

دخائر العرب

١٨

مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بني زيري بغرناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبّيان"

نشر وتحقيق

من النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليثي بروقنسال

أستاذ الحضارة العربية بالسربون

ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف - مصر

مقدمة

إنَّ المصنَّف الذي سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرف لدى كلِّ من درس تاريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصَّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التاريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . ولقد نشرتُ منه ، في فترتين ، أولاً ثلاث قِطَع ، ومن ثمَّ قطعتين واسعتي كلّما اكتُشف شيءٌ منها ، وذلك في مجلّة « الأندلس » الصادرة في مدريد في عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفي عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعي وتوقيع زميلي وصديقي الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذي أُلّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسف له في وسط الكتاب . وستصحب هذه الترجمة بمقدِّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذي يرغب أن يطلع بتفصيل على المؤلّف الذي أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد في تاريخ العالم العربي ملوكاً أو شخصيّات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مُذكراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامي أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجد في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنفٌ واحدٌ يذكر ، وهو كتاب التبيذق صاحب المهدى ابن تومرت مؤسس الموحّدية ، وقد وقّعتُ منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظلّ مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنّه لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأول ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصية لا يقلُّ أهميّة عن الأول ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال الموشية » المجهول المؤلّف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تأريخاً عن الدولة التي أسّستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرتُ في ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلّق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية (ص ٢٩٩) : « وقفتُ على ديوان بخطّ عبد الله بن بلقين ألّفه بعد خلمه بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله ، أتخفى به خطيبُ المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ (١٣٩٠) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كُتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صحَّ ، أصل » .

وأخيراً ، اكتشفت لي صدقة من صدف المطالعة العنوان التام لمذكرات عبد الله : ففي قهرة من كتاب « الرقبة العليا » (ص ٩٧) ، وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي (وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨) ، يتبين أن كتاب عبد الله كان موسوماً بـ « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة » .

إن هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالمؤلف الذي عُزل ونُفي قصد إلى سرد تأريخ دولته وظروف عزله .

* * *

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأية قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟ فلا كُتِفَ هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥) :

كان عبد الله بن مُبلِّق بن باديس بن حبّوس بن زيري الملك الثالث والأخير لملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني زيري البربرية الصنهاجية ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة . وُلِدَ في سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) ؛ وعيّن عند وفاة أبيه مُبلِّق سيف اللولة في عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كوليّ عهد لجده الأمير باديس بن حبّوس ؛ ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) ، بينما أصبح أخوه

تتميز الميراث أميراً مستقلاً في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطنات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وساهم عبد الله في وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط عند تدخل المرابطين في إسبانيا . لكن اتفقاته مع الملك النصراني أدت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) ؛ فاضطر إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعزل عن ملكه وأرسل إلى المنفى بمدينة آغمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لمذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في آغمات . وإن هذه الترجمة الشخصية تكون أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تاريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلف أن يبرز موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدم مملكته ، فإن كتاب « التبيان » يقدم لنا سرداً مفصلاً جداً لجميع الجوادث التي أدت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طليطلة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخل المرابطين في شبه جزيرة إيريا في السنة التالية .

كما أن مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كتب التاريخ التي ألقت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها ، وعلى التقدم الذي حققه في هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّة الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكَّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداءً من العصر الذي تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان . وإنَّ هذه الفترة التي سَأَصِفُها بحول الله في الجزء الرابع من كتابي « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضَّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

* * *

إنَّ مخطوط مذكَّرات عبد الله يحتوي في مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتمتر) . وهو مسجَّل في مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ المبسوط الأندلسي . والنسخة على العموم في حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً .

وقد أرفقنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عِذارى المراكشي ، ومن كتاب « الإحاطة في تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيتين هامتين في دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية في إسبانيا مما جرى ذكرها في النصِّ .

أودُّ في الختام أن أنبِّه قرَّائي الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات في تأليف الأمير عبد الله إلى أن لفته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثرت إلى حدٍّ ما باللغة العامية الأندلسية ، وأتة يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لوزى لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة .

وليس من الضروري أن أنبّه القراء من جهة أخرى إلى أن الصّاهين التي أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن مر في النصّ الأصلي .

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيو ١٩٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١ — القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

.....^(١) واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)

يولد خشونة اللفظ ، الذي تمنجه الأتباع .

- والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رام
رعيش ، ولا متكلم هائب ؛ فإن الميمنة فرع [من] المخافة ، والمخافة فرع
[من] الحذر ؛ ومن حذر ، فقد عقله ، ومن خاف ، تكدر عيشه ، ولا
نصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ، ويذكر بها الجنان ؛ فالنفس ،
إذا منعت ما تشتهي ، ترى مختلطة ، وتصير كأنها بطوارق الخيل مختبطة .
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله ؛ فكل
مفتون ملقن حجة ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غير أصل
وعاملاً لغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويفسد حال نفسه ،
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقتين : يسعى في بلوغ أملة وإدراك

(١) هنا يبتلى نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مراده دون أن يكون ذلك مُخِلًّا بذكره ولا غرضاً لعدوه . وكلُّ بيان ما لم يكن صواباً ، فهدرٌ .

وليس يُحمَدُ لواضع كتابٍ أو ناظم خبرٍ أكثرُ من جودة التأليف فقط ، لأنه إنما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلُّ أحدٍ ينفق ممَّا عنده .
 ٥ وإنَّ الأوَّلَ لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحالةً بعضهم على بعض ، ما سُمِعَ أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن منكرٍ ، ولا يتبرَّع في [شيء] . ولكنَّ الأوَّلَى أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه في قوله ^(١) : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

ولست الفائدة فيما قصدنا إليه ذِكرُ خبرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة
 ١٠ مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدَّى إلى تأدب وارتفاع . فلعلَّك — أيها التأمل كتابنا — أن يكون عندك أو طراً إليك خبرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا ، فتعجز واضعه : فليس إلّا كما قدَّمناه .
 اللهمَّ إلّا أن يكون حديثاً يؤدَّى إلى القيام بحُجَّةٍ صاحبه* والاعتذار عنه
 من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ،
 ١٥ فنطق هذراً ، وساعدَ عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطعنوا على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُحرَّ الجواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه .

أو أبان المؤلف عن نفسه حذقاً ومعرفةً تُذكر عنه وتُنشر بعده : فإنَّ ذلك من آكد ما يجب له السعْيُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّه في تلخيصه ،
 ٢٠ إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء ، وأنفةٌ لسوء اللقال ، ونشاطٌ على

ترفع الذكر ، مع فتو الهمة وصبوة القريحة . وإلا ، فالأمر ناقص منه ،
واللسان عي عنه .

ولا نبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمر ، نزل ضده : كالحياة ، إذا ارتفعت ،
وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،
وجب الفرج .

هكذا نسق كل أمر : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بد له من نقصان
دنياه .

ألا ترى أن مؤلف الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسجع
اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تحقيق عليه ،
وربما وضعه من غير شكله . وإذا تم المعنى ، قص بعض اللفظ ؛ كما قيل :
« إذا تم العقل ، نقص الكلام » .

وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسن خطأ وأفضل
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريد إيراد كالحديث « [فالحديث] ذو
شجون » ، ونضرب المثل لبعضه ببعض : فيتفق إرادته دفعة واحدة ،
ونضه على أكمل ما يمكن .

٢ - حقيقة الإسلام والرّد على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها ببصره وجميع حواسه ،
فهو لآخرته أجهل ، [آخرته] التي لا تُعرف إلا بالتفكير والاعتبار ، بعد

ما حضّر عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى ^(١) :
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما * يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل ^(٢) ()
 العلم كله معرفة الإنسان بدينه ، و [يقينه] بمعاده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا
 صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينتفع به لدنياه التي يشاهدُها معاينةً .
 والرجالُ ثلاثةٌ : رجلٌ عَمِلَ فَعَمِلَ : فذاك الذي يُدْعَى في الملكوت ؛
 ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَلْ : فذاك الذي يُضَاعَفُ له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَلْ
 ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت مَيِّتَةً جاهليّةً ، ولا تصحُّ له معرفة
 دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُنَ تمييزُهُ عن
 الصنف المُلْحِدِ ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فأتبع على يقينٍ وجودةَ نظَرٍ ،
 لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشك . ١٠

وأما من كان من الأصناف المُلْحِدَةِ ، غير أهل الكِتابين ^(٣) من المُشركين
 ومن سيّاهم ، فالضلالُ منهم يَبِّنُ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما
 ما يزعم أهل الكتاب من أنهم على الحقّ ، ولهم الدين القويم ^(٤) ، وأنّ قولهم
 أخلّ [بدينه] ، فالردُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون
 أنه ليس بعد نبيّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلا بأن
 تكفروا بمن كان قبل نبيّكم من الأنبياء ! ألم تكن موسى شائعٌ
 وكتبَ مُنزلةً وأنبياءَ عدّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ،
 لم يجب لكم أنتم شيء ! » ١٥

وإنّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهمّلين ، وهو قوله تعالى ^(٥) :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيتته أن يترك المرء ودينه ، ولا يهمل من يعبد سواه حتى بعث محمداً — صلى الله عليه وسلم — بالحقّ بشيراً ونذيراً ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان ٥ قد ضلّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحّ لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كه * (١) ٢ (ب) الله تعالى ؛ فحتم الله الرسالة بنبيّنا — عليه السلام — ليبيّن له ما فرضه عليهم ، ويظهره على الدين كافّة ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » ١٠ وقال الله تعالى (٢) : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحِجَّة عليهم ظاهرة على ما بيناه فيما يعطى العقل والقياس . وأما تبين نبوته — عليه السلام — في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف . وإذا قتلت أحدهم ببعض هذه الحجج ؛ فن ينتحل منهم فقهاً في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : « إنّما كان رسولاً إلى العرب ! » فتأمل ١٥ تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول (٣) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « يُعِثُّ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جلةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) خرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

٣ - قصور القياس دون عون من الوحي

وقد كانت معرفة الباري تعالى بالعقل اضطراراً لقوله^(١) : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم الظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فن عرف الله قبل العقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً .

١٠ ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن^(٢) * الذين أبانوا عنها ؛ والظن أ كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [رأيه] . وليس حكم الباري تعالى مما يجري على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو

١٥ واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ؟ ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهنية . والحق إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخطئون خبطاً عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) خرم نحو نصف سطر في الأصل .

وحديث ارسول — عليه السلام — ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم
على قياس : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ^(١) .
وترى من الملحدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إِنَّمَا أَعْلَمُ ^(٢)
ما تُدْرِكُه حواسي من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ ويابسٍ ، وما أدركته بعقلي مما
كان ؛ ولا أعلم ما يكون ، وإِنَّمَا أَنَا أَنُ الْآنُ » . فالردُّ عليه أن يقال
له : « أتدري بِمَ عرفتَ هذا كله ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس
بالعقل الذي هو أرفع الدرجات » . فنقول له : « إذا عرفتَ بالعقل
ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شيءٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتَ
لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتدبيراً . وواهبُ العقل الذي
١٠ خلقتك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يميزك ولا يجعلك هماً ، ولم
يخلقك عبثاً ! ولو أنك تعلم — أيها الشقي — أن العقل ، إذا وجدتَ
به آيات ربك ، كلُّ عليك وحتمٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى ^(٣) :
﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا
يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال ^(٤) : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .
١٥ وقد أنت الرسل بالآيات التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في
العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البشر . وقد أمر الله تعالى
بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يعجز الله في قدرته على
ما يشاء * جاحِدٌ كافرٌ .

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إِنَّمَا هِيَ تُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أَعْلَمُ [مَنْ] كُلُّ

(٢) أصل : « نعلم » .

(٤) سورة يس : ٧٨ .

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

عليم وأحكم [من] كلٌّ حكيم ؛ فنجع من فعلها في الأبدان ما لا تدركه
الطبابة باجتهادها . وقال غيرهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يدري
ما هو . » فالحجة عليهم : أهى طبيعة واحدة ، أم طبائع كثيرة ؟ بل ،
سيقولون : « لكل شيء طبيعة » ، فأرى أضداداً لا تصح لأحدها إلهية ،
وغيرها منقوض لها . وهى كانت حجة إبراهيم على قومه وردّه على من قال
إنّ الشمس هى حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى
الظلّ يفعل ضدّ ما تفعله الشمس ؛ والخالق لا يضادّ ! » فأثبت الوحداية
بالحجة القاطعة الواضحة .

وقد ذكر عن سقراط ، وكان في زمن جاهلية ، أنّه قال ، بما أوتي من
الحكمة ، مخاطباً الباري عزّ وجلّ : « يا أزل الأزل ! ويا أول الأوائل !
ويا قديماً ! لم يزل مني نارك لعلّي أن هذه الخلقات من آثارك ؟ »
ولم تكن معه فئة يتبعونه على قوله ، ولا يعقلون ما قال ، حتى أمروا
بقتله .

ولهذا يرجع ما قدّمنا ذكره أنّ شرعاً لا يتم بقياس العلماء وخواصّ الناس
دون الرسالة ، على أنّه لا يشكّ ذو عقل أنّ الخلقات قد جعلها الله عللاً بعضها
لبعض ، ولم يخلقها عبثاً ؛ ولكلّ علّة علّة إلى أن ينتهي ذلك إلى الباري عزّ
وجلّ ؛ فهو الذى لا فوقه شيء . وهو قول إفلاطون لموسى — عليه السلام —
إذ قال له : « يا أخى ؟ رسولٌ منّ أنت ؟ » أراد استخباره ؛ فقال له موسى :
« أنا رسول العلة » . فقال له إفلاطون : « ما العلة ؟ » قال : « لا أدري !
ولو كنت أدري ، لكنت أنا العلة ! إنّما أنا متّبع ! » فقال له إفلاطون :
« اذهب وبلغ ما شئت ! فالآن صبحٌ عندي أنّك رسولٌ حقّاً ! »

(١) سورة البقرة : ٢٢٥ .

٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأعلم أن العقل محتاجٌ إلى التعلم ، ولا يستحكم تعلمٌ إلا بتجربة ، ولا تتحكم تجربةٌ إلا ما كان فيها بعض التكد والإشغاف ؛ فالإنسانُ على ما ضرى عليه وعلى أن السعيد من أعطى بغيره ؛ لكن من شأن الإنسان التسويف و « لعل » و « عسى » ؛ فإذا أُحْتِيجَ في ذاته ، أعقبه ذلك بقطةً وحنكةً . وكذلك من أُخْرِجَ إلى نفسه كأنما لا يتكل على غيره . فينبغي للعاقل أن يعمل نفسه في رياضة ذلك ، والتمرن فيه ، إن لم يحوجه الدهر ؛ وإلا : فليتمب ذهنه ، ويشغل باله بالفكرة فيه ، خوفاً أن يضطرَّ إليه ، وإن الدعة غير دائمة . فإن احتاج إلى نفسه ، وجدها ؛ وإن استغنى عنها ، عرف فضل ما هو فيه ، وكانت لذته به أشدَّ تمكُّناً : فإنه لا يعرف قدر الخير من لا يعرف الشر . وإعمال الفكرة في هذه الممانى كالتجرب بها : فإن الاهتمام بما لم يكن بلاء في النفس كائن ، وذلك البلاء مؤدَّب ، وأعظم ، نافع ، مضحل ، خير من بلاء موجه حال .
- وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إنما هو نور يَضَعُهُ الله في القلوب . ولا عذر للإنسان في أن يجهل علماً يليق به ، لقول الله تعالى ^(١) : ﴿ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ومن حُسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وليس كل ما حض عليه ونهى عنه على العموم ، بل لذلك كله حُكم يحسنه العاقل ؛ والجاهل لا يحسنه ، وإن جهد جهده .

(١) سورة النحل : ٦٣ .

٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كنّا — مَعشَرَ أَهْلِ بَيْتِ الْمَلِكَةِ — نَرَى مِنْ آكَدِ مَا تَأْدَبُ بِهِ إِعْمَالُ السِّيَاسَةِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ ، وَالسَّعْيِ لَهَا بِكُلِّ الْوَجْهِ ، وَإِحْضَارِ الْأَذْهَانِ ، مَا لَوْ أَنَّ الْمُفْرِطَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مِنَّا يَكُونُ أَقْبَهُ النَّاسِ فِي سَائِرِهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ ، لَكَانَ عِنْدَنَا نَاقِصًا ، لَا يَصْلِحُ لِهَذَا الشَّأْنِ ، حَتَّى وَقَعَ التَّنَاقُصُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَتَلْنَاهَا نَحْنُ عِلْمًا لِرِيَاضَةِ أَنْفُسِنَا لَهَا ، وَمَا أَجْرَانَا^(١) عَلَيْهِ آهَاؤُنَا ، وَبَصَّرُونَا فِيهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِنَا .

١٠ وتلك صناعةٌ وجب تعلُّمُها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي منها معاش الناس ، ولا بدَّ لهم من إتيانها . ولعمري إنَّ الوالى أكثر عِلْمًا وأحسن عَقْلًا : فَإِنَّ جَمِيعَ حَقُولِ النَّاسِ تَعْرِضُ لَدَيْهِ ، وَيَجْرُبُ فِي مَوْضِعِهِ مَا لَا يَجْرُبُ غَيْرُهُ فِي تَقْلُبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَإِلَيْهِ تَهْدَى الْأَخْبَارُ ، وَيَتَخَاصَمُ النَّاسُ ، وَعِنْدَهُ يَقَعُ الطَّلِبُ ، وَتَرْفَعُ الْحَاجَاتُ ، وَتَقَعُ الْعِنَايَاتُ ؛ فَيَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدًا لَمْ يَرَهُ أَمْسًا . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْعَزِيزِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — : « لَسْتُ كَخَبِّ ، وَلَا الْخَبُّ يَخْدَعُنِي ! » وَقِيلَ : « فَلَنْ لَا يَعْرِفَ الشَّرَّ » .

١٥ قَالَ : « ذَلِكَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ! »

* ولما كان الْمُظَفَّرُ جَدُّنَا — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَدْ أُوتِيَ مِنَ الدِّهَاءِ وَالتَّمْيِيزِ ٥ (١)

لأحوال الزمان ما لا خفاء به ، وأَنَّهُ مِنْ آكَدِ مَا يَجِبُ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ تَرْشِيحُ

أَخَذَ بَنِيهِ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَمَرِينِهِ وَإِعْمَالِهِ فِي جَمِيعِ خِدْمَتِهِ ، كَيْ يَتَدَرَّبَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ نَفْسُهُ ، كُنْتُ مَمَّنْ وَقَّعَهُ اللَّهُ لِرَبِّهِ وَالْأَنْصِياعِ لَوْصِيَّتِهِ . فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَى التَّصَرُّفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِي — نَصْرًا لِلَّهِ وَجْهَهُ — : « مَعَكَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكَ ! وَهَذَا أَوَّلَى مَا تَتَعَلَّمُ ! فَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِ ذَهْنِكَ لِجَمِيعِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَمَا يَنْقُضِي فِي دَوْلَتِي أَيَّامَ هَذِهِ الْقِيَمَةِ ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشَرُّ ، وَالْأَيَّامُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُذَرِكَ تَعَلَّمَ كُلُّ شَيْءٍ يَعْنِي بِهِ الْمُلُوكُ لِأَبْنَائِهِمْ ! »

فَامْتَثَلْتُ حَذَّهَ ، وَأَخَذْتُ نَفْسِي أَوَّلًا بِالتَّوَضُّعِ لَهُ وَابْتِغَاءِ كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ مِنْهُ فِي نَفْسِهِ أَنِّي أَشَرُّهُ بِهِ إِلَى تَعْجِيلِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْحِرْصِ عَلَى الرِّيَاسَةِ ؛ بَلْ كُنْتُ أَتَابِي لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَحْكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِ وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ السُّنَنِ وَالْعَمَلِ مِنْ وَزَرَاتِهِ ، وَأُنْزِلُ نَفْسِي لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ ، حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْقِعًا ارْتَضَوْنِي بِهِ لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ رَأْيُهُمْ مَعَ رَأْيِ الْجَدِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَهَارٌ إِلَّا وَأُسْتَفِيدُ فِيهِ فَائِدَةً مِنْ تَجَرِبَةٍ وَحُكْمَةٍ . وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَجِدُّ لَهُ أَعْوَانًا مِنَ الْوُزَرَاءِ ، يَعْلَمُونَني بِالصَّوَابِ فِيهِ لِقَلَّةِ خِلَافِي عَلَيْهِمْ وَبِرِّي بِهِمْ .

كُلُّ ذَلِكَ [مِنْ] الْأَسْبَابِ الَّتِي أذنَ اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلَاقِي مِنْ بَعْدِهِ . وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ مَنْ يَصْلَحُ لَهَا قَبْلِي ، وَمَعِيَ مِنْ آخِرِ كِبَرٍ وَعَمٍّ وَقَرَابَةٍ أَتَوَقَّعُ اسْتِهَاذِفَهُمْ إِلَيَّ وَتَغْلِبَهُمْ عَلَيَّ ، مَا لَوْ أَنْفَقْتُ مِثْلَ الْأَرْضِ عَلَى كِفَايَةِ شَرِّهِ ، مَا اسْتَطَعْتُ لَهُ . فَكَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَا كُنْتُ * ه (ب)

أَتَوْقِعُ ، وأراني الخيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهُه . فنحنُ
جُدْرَاءُ بِتَعْدَادِ تَعَمُّ اللَّهِ وَالْإِنْصَافِ فِي شُكْرِهِ ، كما حضَّ الله عليه في
قوله^(١) لَنَبِيِّهِ — عليه السلام — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .
وقد كان أبونا سَيِّفُ الدَّوْلَةِ — رحمه الله — مُرَشَّحًا لِلْمَلَكَةِ ، كثيرًا
حُبُّ أَيْبِهِ لَهُ ، وَجَمْعُهُ الْأَمْوَالِ مِنْ أَجَلِهِ ، وَتَدْرِيبُهُ عَلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِ .
وكان — رضى الله عنه — من العقول والكرام وحُسن الخُلُقِ وَالْحِلْمِ مَاشُورًا بِهِ
فِي الْبِلَادِ ، واجتمع عليه محبة العباد . ولم يكن الْمُظَلَّفَرِ جَدًّا غَيْرُهُ ؛ فَتَوَقَّى
— رحمه الله — ابْنَ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ عَامًا . وسنذكر من أحواله مع سائر
أُمُور الدَّوْلَةِ مَا يَرِدُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ ذِكْرُ دُخُولِنَا الْأَنْدَلُسَ ، وَكَيْفِيَّةِ وَلَايَتِنَا إِيَّاهَا ،
إِلَى هَلَمْ جَرًّا .

فَإِنَّهُ ، مَتَى أَتَيْنَا عَلَى خَيْرِ يَطِيبِ ذِكْرِهِ فِي هَذَا التَّأْلِيفِ ، لِلْمُعْتَرِضِ
أَنْ يَقُولَ : « هَذَا أَحْسَنُ لَوْ كَانَ عَلَى أَصْلِ يُحَمَّدَ ، وَعَنْ وَلَايَةِ تُرْتَضَى ! »
فَيَنْطِقُ هَذَرًا دُونَ اخْتِبَارِ وَلَا إِنْصَافِ ، عَلَى أَنَّ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ لَا يَقَعُ عَلَى الدَّوْلَةِ
إِلَّا فِي مُدَّتِّهَا وَأَيَّامِ سِمَاتِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ ظَالِمَةً ؛ فَلَا يَقَعُ فِيهَا الذَّمُّ إِلَّا بَعْدَ
تَوَلَّيْهَا ، وَلَوْ كَانَتْ عَادِلَةً . وَالنَّاسُ مَعَ مَنْ سَبَقَ إِلَّا مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ الْعَدْلِ ،
لَا بِعَيْنِ الْهَوَى ؛ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ !

(١) سورة الضحى : ١١ .

ولترى أن لا شيء في العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلّق بالسعادة إلا كلّ مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى مرور . وليس مع الإقبال إدبارٌ إلا تمام المدة .

- ٥ ولا يتفق الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمّه : فإنّ رضى العامة أمرٌ لا يدرك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالتقضى عليه انقلب سخطاً ، والتقضى له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلّم على شهوة نفسه . فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد* ٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوّى بين [أمور خلقه ، وجديراً ، وإن] كيفت ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ . ١٠

٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجدّه كأنّما بأرقّ سبب : فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذقٍ مُمخرقٍ . وإذا بعثت على ما هو فيه أعين استحقاقٍ تصير إليه ، لم تختبر من فعّاله ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشفّ على رأى من تزدريه عينك ، ولأنّ الجهل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلّمت على ما ظهر إليها ، ولم تنصّ عليه بعقولها ؛ والله ١٥

ما بَطَنَ ، وللتاس ما ظَهَرَ . ولهذا تَرَى صاحب التاموس أَرْفَعَ ذِكْرًا وَأَطْيَبَ نِئَاءً ، وَإِنْ كَانَ يُرَأَى .

وقد كان المنصورُ بن أبي عامر ، على دَقَّة شأنه قَبْلُ ، ولأنه لم يكن من أهل بيت الملكة ، فيستحقُّها عن الآباء ، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا ، قد حَصَلَ على عِظائِم بدعائه وخِزَنته على العامة ، مع ما هيأت السعادةُ له (وكان أقوى الأسباب في سلطانه) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه مَنْ كَانَ طَالِمُهُ مِنَ الْبُرُوجِ الْحَوْتِ وَالْقَوْمِ كَانَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابِ فِي سُلْطَانِهِ أَوْ عِقَارِهِ .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاعَ له [في جميع] ما يَأْتِي وَيَذَرُ إِلَى طَاعَتِهِ وَإِقَامَةِ أَوْدِهِ ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخاله لأهل الدولة الْحَكَمِيَّةَ (١) ، وتقسيمهم بالقتل ، متأولاً في ذلك أَنَّ دَوْلَتَهُ تَصْنُفُ (٢) بِهِ وَيَقْوَى سُلْطَانُهُ ، وَأَنَّ فِي بَقَائِهِمْ كَثْرَةُ الْخِلَافِ وَإِثَارُ الْفِتَنِ وَهَلَاكُ الْمُسْلِمِينَ ، حتى اتَّسَقَ لَهُ مَا أَمَّلَ ، وبلغ من ذلك كُلُّهُ النِّهَايَةَ الْقَصْوَى — ولو أَنَّ أَحَدًا اشْتَهَرَ بِبَعْضِ مَا أَتَى هُوَ بِهِ دُونَ تَعَلُّقِ بِسَبَبٍ أَوْ إِظْهَارِ طَاعَةٍ ، [لَكَانَ قُتِلَ] من سَاعَتِهِ ، ولو كَانَ من أَهْلِ بَيْتِ الْخِلَافَةِ — إِلَى أَنْ وَرِثَ الْأَمْرَ ابْنُهُ مِنْ [بَعْدِهِ ، فَسَارَ الْمَنْصُورُ] * بِأَحْسَنِ سِيرَةٍ وَأَحْمَدِ طَرِيقَةٍ ؛ وَكَانَتْ لَهُ فِي بِلَادِ ٦ (ب) الْعَدُوِّ فَتَكَاتٌ ، نَالِ الْإِسْلَامَ فِي أَيَّامِهِ عِزًّا مَا كَانَ بِالْأَنْدَلُسِ [مِثْلُهُ] ، وَأَذَلَّ مَا كَانَ النَّصَارَى عَلَيْهِ .

(١) في الأصل : « الحاكمية » .

(٢) أصل : « أَنَّ بِهِ تَصْنُفُ دَوْلَتَهُ » .

الفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري
وحبوس بن ماكسن

٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .

قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [المنصور] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألّهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بين اليقظة ، وسؤل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غابها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماة وأنبجاءها من بلغه فروسيته وشدته . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق العدو من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصاري ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

المدة في الجيش وللوثوق بهم عند اللقاء ومعتزك الوغاء . وكان من أذهام رأيًا وأبندهم همة زَاوَى بن زِيرَى عُمَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإليهما كان الرأى والمشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

فرتب ابنُ أبي عامر الرُتَبَ ، وأظهر هبة الخلافة ، وقع الشرك ، وحضَّ المسلمين عامة على الغزو ؛ فعبز عن ذلك رعيّة الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالفَرَوات عن عمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهلَ حَرْبٍ . فقاطعتهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويمطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الأقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها* عليهم^(١) [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [أن عمت الأندلس] عدة الثَّوَار و [اتبعوا] هم على تلك الآثار . [ودأبه] في ذلك إنما كان على ما وصَّفه .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام والواشي ، يقسمون ذلك على المساكين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرعيّة ، وعزُّ دُولهم ، وذَبُّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأوّل الخير . ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً [عامرة] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلّا ما يلزم الملك من خاصّته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحد

(١) وقع هنا وفيما إلى خرم وبعض نحو في الأصل . وأكلناه بما يتفق والمعنى .

وَدَفَعَهُ لآخر ، لينخل بذلك عسكره ويتخير أفضله فيه للمسلمين
كفاية وعدة ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أصولهم ، ولا اكتسابهم ؛
إنما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة
أو قضية وكل حكم يرجع للسنة ، فإنما كان لقاضي البلدة .

٥ فلما تمت الدولة العائرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد
بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقديمه النظر لنفسه ، واتخاذ المسكر ،
وادخاره الأموال ؛ فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر .
وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء
مختلفة ؟ إلا الله من كان ظالماً منهم يتعدى . . .
١٠ للقدر* الذي شاء ربنا لا شريك له .

٧

٩ — استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها

فلما رأى سلاطين صنهاجة وبني زيري اقتطاع كل أمير في بلد لنفسه ،
وذهاب ما كانوا عليه من عز وأثر ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز
إلى العدو ، ليرجعوا إلى مستقرهم . فاتفقوا على ذلك بعد أمور يطول
١٥ ذكرها ، وظهور فساد كثير أضربنا عن إirاده كله ، إذ كان مقصداً لنا
وصف دولتنا خاصة . ولا بد من ذكر لمع من غيرها عند الاحتياج إليه .
وكان أهل البيرة في بساط من الأرض ، وكان بهم من الفس بضعهم
لبعض ما إن الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجداً وحاماً فراراً من جاره ،
ولا يرجعون إلى طاعة ولا حكم والي . وكانوا مع هذا من أجبن الناس

وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذباب ،
إلا بمن يحميهم ويذب عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ،
وأنها أضمرت ناراً ، وتوقعوا أن يتخطقهم الناس ، وجهوا إلى زاوى المذكور ،
ساكنين مما هم فيه ، ويقولون : « إن كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا
الجهاد آكد عليكم : أنفسكم تحيونها ، ودياركم تحمونها ، وعزة تأوون إليها !
ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم منا الأموال والسكنى ، ولنا
منكم الحماية والذب عنا ! » .

قبل القوم قوتهم . واغبتوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة
لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتشتتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون
فتنة [تحميمهم] ، ولا جماعة يتوقع غضبتهم . فأتوهم محتشدين منائفين ،
قد انقطع إليهم كل من اتقى من البربر وتعلق بهم . ونزلوا ساحتهم ،
وحيوهم بالتشف والأموال ، وتشاركهم أحسن مشاركة ، راضين بهم
لا ساخطين . واستجابت لهم عند ذلك معاقلة كثيرة ، منها جيان وأنظارها ،
وحصن آشر* من الغرب .

(١)٨

فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها ؛ وكانت
عادة في البربر ، كنى لا يأنف أحدكم مما يصير إلى أخيه . فرجعت
إلييرة فى قرعة زاوى ، وحصن آشر مع جيان فى قرعة حبوس ابن أخيه
جدنا — رحمة الله عليهم — . وتعاقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدو
جهة صاحبه ، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله .

١٥

١٠ — ردّ الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيري

اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقوهم ويحصّلوا على بلادهم ، لما اختبروا من شدّتهم ورأيهم .
 ٥ فاجتمعوا على منازلهم وقصدتهم إليهم بأحشادهم ، كراهية توطيدهم بذلك المكان ويُفَضِّهِمَ لجنسهم . وقَدَّمُوا على أنفسهم إنساناً سمّوه بالمرتضى ، زعموا أنه قرشي ، كنى يستهلّوا بخلافته عامة الناس ، ويرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قيل ذلك ، لما بلنهم احتشادهم وتألّبهم ، جمعوا أهل البيرة المذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئات مُقْبِلَةٌ لطلبنا : فإن استوتقنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلمونا : نمضي عنكم على أجل وجه . فلن نعلم الخير بسيوفنا ! » فأجابهم القوم : « اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ! فنحن رعييتكم الطائفة ١٥ وأسيافكم القاطعة ! » فقال لهم زاوى بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرحل عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها مَقِيلًا نأوى إليه بأهالينا وأموالنا * والحرب ٨ (ب) سيجال . . . (١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظَنُّ عجزاً ! وقد أمر

(١) حرم فى الأصل .

النبي^١ — عليه السلام — عند احتشاد المشركين على المدينة أن يُخَنِّدُوا حَوَالِيهَا ، وَسَنَ الْحَرَمَ ، مع مَدِّ الْوَحْيِ لَهُ ؛ فكيف نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل البيرة : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ^(١) من الأموال ما نَسْرَعُكُمْ بِهِ ، إِلَّا أَنْ تَنْفَقُوهَا فِيمَا يَخْصُكُمْ مِنْ تَقْوِيَةِ مَدِينَتِكُمْ بِحُشُودِ رَجَالَةٍ مِنْكُمْ ، تَنْفَقُونَ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا بِهَا لَكُمْ أَعْوَانًا : تَصْرَفُونَهُمْ حَرَسًا وَجَوَاسِيسَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَتَحْمِلُونَ مِنْ تَعْرِفُونَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ عَلَى الْجُنْدِيَّةِ ، أَوْ تَبْنُونَ لِأَنْفُسِكُمْ سُورًا يَتَوَقَّعُ بَرَكَةَ ثَلَاثَةٍ تَدْخُلُ بِهَا الدَّخْلَةُ عَلَيْكُمْ . وَأَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا يَخْصُنَا نَحْنُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ نَأْتِ الْأَنْدَلُسَ إِلَّا وَأَجْلَبْنَا مَعَ أَنْفُسِنَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا نَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى أَحَدٍ ، بَانِينَ عَلَى الْإِقَامَةِ إِنْ اضْطَرَّرْنَا إِلَيْهَا ؛ وَلَمْ نَأْتِهَا عَنْ فَاقَةٍ وَلَا سَعَايَةٍ ؛ إِنَّمَا جُئْنَاهَا رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ ، وَأَنْ تَكُونَ كَفَافَتُنَا الَّتِي شَهَرْنَا بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ دُونَ سَائِرِهِمْ ، وَأَنْ نَقِي بَاقِي أَعْمَارِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، إِلَى أَنْ دَفَعْتَنَا الْأَقْدَارُ إِلَى مَا تَرَوْنَ . وَنَحْنُ لَمْ نَطْلُبْ أَحَدًا ، وَلَا تَمْدِيدًا عَلَى بَشَرٍ ! وَهُوَ لَا بَاغُونَ مَتَطَاوِلُونَ . وَمَنْ ﴿ كُنِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ^(٢) ﴾ ؛ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَأَهْلِهِ ، فَهُوَ شَهِيدٌ ! »

١٥ فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . وَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ أَنْ يَخِيرُوا لِأَنْفُسِهِمْ جَبَلًا مُنِيفًا وَمَعْقَلًا شَاخِحًا ، يَبْنُونَ فِيهِ دِيَارَهُمْ ، وَيَرْحَلُونَ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِمْ وَكَثَرَتِهِمْ ، وَيَحْمِلُونَهُ الْقَاعِدَةَ ، وَيَخْرِبُونَ لَهُ الْبِيرَةَ الْمَذْكُورَةَ

.....^(٣) * فَوَقَعَتْ أَعْيُنُهُمْ عَلَى بَسِيطٍ جَبَلٍ ، قَدْ جَمَعَ الْأَنْهَارُ وَالْأَشْجَارُ ؛ ٩ (١) وَجَمِيعٌ مَا يَلِيهِ مِنَ الْبَلَدِ كُلِّهِ يَنْسِقِي مِنْ وَادِي^(٤) شَلِيلٍ الْمُنْحَدِرِ مِنْ جَبَلٍ

(١) أصل : « نَكْلِفُكُمْ » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) حرم نحو

سطين في الأصل . (٤) أصل : « وادي » .

شَلْتَر . وبصروا بالجبل الذى فيه الآن مدينةُ غَرْناطةِ موسَّطةٌ للبلدِ كُلِّهِ :
 الفَحْصَ أَمَامَهُ ، وَجِهَتِي الزَّائِيَةَ وَالسَّطْحَ بِجَنْبَيْهِ ، وَنَظَرَ الْجَبَلَ وَرَاءَهُ .
 فَأَفْتَنَهُمُ الْمَكَانَ ، وَعَمَلُوا عَلَيْهِ كُلَّ حَسَابٍ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي وَسْطِ النَّعْمِ وَجْهٌ
 الرِّعَايَا ، وَأَنَّ الْعُدُوَّ ، مَتَى نَازَلَهُ ، لَمْ يُطَقْ لَهُ إِحْصَارًا ، وَلَا مَنَعَهُ دَاخِلًا
 وَلَا خَارِجًا بَلَّتَهُ ، فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمُرَافِقِ . فَشَرَعُوا فِي
 بُنْيَانِهِ . وَتَوَلَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِقَامَةَ دَارِهِ مِنْ أُنْدَلُسٍ وَبَرْبَرٍ . وَخَرِبَتْ
 عِنْدَ ذَلِكَ الْبَيْرَةُ .

١١ - خروج المرتضى لحرب بنى زيري وهزيمته

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُدَّةً يَسِيرَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمَلَ الْبُنْيَانُ ، فَإِذَا بِالطَّوَائِفِ
 الْبَاغِيَةِ قَدْ أَقْبَلَتْ طَامِعَةً مُتَأَلِّفَةً ، يَطْلُثُونَ أَنَّهُمْ ، عِنْدَ وَصُولِهِمْ ، لَا تَرْتَفِدُ
 لَهُمْ سَاعَةً . وَقَدَّمُوا كِتَابًا إِلَى زَاوِي الْمَذْكَورِ ، يَأْمُرُونَهُمْ - بِزَعْمِهِمْ -
 بِالْخُرُوجِ أَمَامَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، وَلَا يَتْرَكُونَهُمْ بِذَلِكَ
 الْمَوْضِعِ : يُبْلِغُونَ بِذَلِكَ الْعَذْرَ عِنْدَهُمْ ، إِذَا ظَفَرُوا بِسَدِّ هَذَا ، أَنْ لَا يَقْبَلُوا
 لَهُمْ عَثْرَةً .

١٥ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَى زَاوِي كِتَابُ الْمُرْتَضَى الْمَقَامَ لِهَذَا النَّامُوسِ ، جَمَعَ
 رِجَالَهُ ، وَخَاطَبَ ابْنَ أَخِيهِ حَبُوسًا ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ؛ فَأَتَى فِي جَمِيعِ
 عَسَاكِرِهِ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، غَيْرَ مُجَانِبٍ لَهُمْ ، وَلَا مُتَكَاثِمٍ مِنْهُمْ .
 وَاجْتَمَعَ بِغَرْناطةِ مِنْ صِنِّهَاجَةِ دُونَ الْأَلْفِ مِنْ خَيْرَةِ الْخَلِيفَةِ ؛ وَكَانَتْ الطَّوَائِفُ
 الْبَاغِيَةُ فِي نَحْوِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَلْفِ فَارِسٍ .

٢٠ فَأَمَرَ زَاوِي الْمَذْكَورَ [بِكُتُبِ الْجَوَابِ مِنْ] إِمْلَائِهِ ، وَقَالَ لِلْكَاتِبِ :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أُمِّلِي عَلَيْكَ ! * اكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ٩ (ب) زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ^(١) 》 .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَائِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ ، أَوْ مُوَطَّنٌ عَلَى الْمَوْتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِحَيِّ ! » فَرَحُّوا إِلَيْهِ .

وهشَّ القومُ إِلَى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوَى بِالثُبُوتِ وَتَرْكِ الطَّيِّشِ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أَيقَنَّا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرُ بِهِمْ أَوْ الْمَوْتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قِتَالِهِمْ ! إِنْ يَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُونَا ، وَأَحْصَرُونَا مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دِفَاعًا عَنْهُمْ ! فَإِمَّا هُلُكٌ وَإِمَّا مُلْكٌ ! وَإِنْ مَوْتَنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ الْعَذْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَغْلِبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسٍ جَرِيئةٍ وَعَلَى الْمَوْتِ مُوَطَّئَةً ، وَقُلُوبٌ حَقِيقَةً وَالْمَوْتُ طَالِبَةٌ . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَامَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِحِشَاةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعْتَهُمْ صِنْهَاجَةٌ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدَى الْبَرَبْرِ ، يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفْرِ ثَبَتُوا بِهِ فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مُلْكُهُمْ بِفَرْنَاطَةٍ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ أَعْدَائِهِمُ الْمَهْزُومِينَ . ٢٠

١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تَأَلَّبَ أهل الأندلس عليهم وبُغْضهم لهم ، عمل بذلك فِكْرَتَه وقال : « قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون * دأبهم أبداً ، وإن كُنَّا قد مُنَحْنَا الظفر في أوَّل ١٠ صفة ، لم نَأْمَنهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُمْ ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مَيَل جنسيِّهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنَّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أَحَدٌ ونخلفه أبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزَهَدَ فيه ، مع ما عَلِمَهُ من وفاة باديس بن المنصور ، والِدِ المَعِزِّ ، مَلِكِ القَيْرَوَانِ ، وأنَّ ابنه وَلِيَّ طفلاً صغيراً ؛ فشرحت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقَدَر الذي قَدَرَهُ اللهُ من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بَنُونَ ، يعدل كلُّ واحد منهم بِيَدَنه مائة فارس في نجدته وقوَّة بأسه ورأيه : منهم مُبْلَقِينَ بن زاوي . فأعاب هذا الرأى على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لَنَفْسِكَ ، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضراً لغائب ! واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة وإشراف ١٥ من نفسك على الهلاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تَلَكَّاتَةِ الموثوق بهم في المِهْمَات مَنْ يَثْقُّها ، وينوب منابى فيها ، حتَّى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوَانِ وكيفية دَوْلَتِها . فإمَّا أن يتهياً غَرَضُنَا ، وإلا انصرفنا إلى مَرَكَزِنَا » .

٢٠ فتهياً للمسير على سبيل المشاركة للمَعِزِّ ، وأن يكون له بالأندلس عُدَّةٌ

وعَبْدًا ، وما أشبه ذلك مما يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَشَارَكَاتِ وَاتِّصَالِ الْأَيْدِي عَلَى الْمُهَيَّمَاتِ . وَاسْتَحْلَفَ مِنْ اسْتَحْلَافِهِ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَّا يَدْخُلُوا^(١) عَلَيْهِ دَاخِلَةً وَلَا يُسْلَمُوا^(٢) مِنْ أَحْوَالِهِ شَيْئًا لِابْنِ أَخِيهِ وَالْأَحَدِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، * يُرِيهِمْ^(٣) ١٠ (ب) فِي مَسِيرِهِ^(٤) النَّظَرَ لَهُمُ وَالسَّعَى فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مَوْطِنِهِمْ ذَلِكَ .

٥ ثُمَّ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ كَأَنَّهُ يُقَادُ قَوْدًا ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا بِمَرْحَلَةٍ إِلَّا وَكُتِبَ مُسْتَحْلَفِيهِ سَائِرَةً إِلَى حَبُوسِ بْنِ مَآكِسَنَ ، يَسْفَهُونَ رَأْيَ زَاوَى وَيَقُولُونَ لَهُ أَنْ يُعْجَلَ بِالْقُدُومِ إِلَى الْبَلَدِ ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ بِوَلَايَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَطْمَعُ فِيهِ مَنْ لَا يَرْضُونَهُ ، أَوْ يَشْرَهُ إِلَيْهِ مِنْ فَخْرٍ فَاهُ إِلَيْهِ بِزَوَالِ زَاوَى عَنْهُ . فَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ إِقْبَالُ حَبُوسِ . وَتَلَقَّيْتَهُ^(٥) صِنْهَاجَةَ بِالطَّاعَةِ وَالْإِثْقَادِ لِمُلْكِهِ . ١٠ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ . وَلَا مَهْ وَلَدَهُ عَلَى ذَلِكَ .

وَيَذْكُرُ أَنَّهُ ، لما وصل إلى الْقَيْرُوانِ ، وَأَحْسَّ بِمَذْهَبِهِ بَعْضُ وُزَرَاءِ الْمُعِزِّ نَكَرُوهُ وَخَافُوا دَوَاخِلَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكْدُرَ مَا صَفَا . وَرَأَوْا أَنَّ وِلَايَةَ الْمُعِزِّ عَلَى طُفُولِيَّتِهِ ، وَعَيْشَتِهِمْ مَعَهُ ، وَتَحْكُمَتِهِمْ عَلَيْهِ ، أَخَفُّ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوَلِّيَةِ دَاهِيَةٍ ١٥ مِثْلَ زَاوَى ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ مِنْ قِطْمِيرٍ . فَدَسَّ إِلَيْهِ مَنَ سَقَاهُ السَّمَّ . وَمَاتَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ .

١٣ — إِمَارَةُ حَبُوسِ بْنِ مَآكِسَنَ

وَصَفَا الْأَمْرُ لِحَبُوسِ بْنِ مَآكِسَنَ ، وَسَارَ بِأَجْمَلِ سِيرَةٍ وَأَعْدَلَ طَرِيقَةٍ . وَصَرَفَ أَحْكَامَهُ أَجْمَعَ إِلَى قُضَاةِ الْبِلَادِ ، وَتَنَفَّضَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَجَمَدَتْ

(١) أصل : « يَدْخُلُونَ » . (٢) أصل : « يَسْلَمُونَ » . (٣) أصل : « يَسِيرُهُمْ » .

(٤) أصل : « وَتَلَقَّيْتَهُ » .

يَدُّهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحْبَبَهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ السُّبُلُ ، وَقَلَّ
الْفِسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ .
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيقُ بِهِ
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا قَائِدَةٌ
تَقِيدُونِي بِهَا تُتَّفَقَ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَحْفَةَ غَيْرِ الْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى
دَعَوْتُ * أَحَدَكُمْ لِمِهْمَةٍ ، وَبَصَرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجُودَ خَبْرَةً ، ١١ (١)
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَالْحَظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى الْاَلْحَقَّةِ ، وَزَادَ
الْجَيْشُ فِي أَيَّامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ
١٠ الْحُرُوبِ وَمَقَاطِعِ الشُّجْعَانِ .

وكان بنو عمِّه كلُّ إنسانٍ مِنْهُمْ سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ
وَانْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِ دُونِهِمْ ،
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِنْهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ
خَارِجٍ قَصْرَهُ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْصَانًا مِنْهُ ، كَيْ لَا يَحْصُلَ عَلَيْهِمْ
١٥ مَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْهُ ذَلَّةٌ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلِّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صِنْهَاجَةٌ عِنْدِي مِثْلُ
الْأَسْنَانِ فِي الْفَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا نَخْلُفُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ
لَهُ بِهِمُ الصَّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالِاسْتِطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى
تَرْكَهُ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعَ فِي شَيْءٍ
٢٠ مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ تُحْدِثَهُ نَفْسُهُ بِغَزْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ .

١٤ - المؤامرات التى دُبِّرت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُباسة .

موت حَبُوس

وكان لَحَبُوس بن مَكْسَن - رحمه الله - ابنُ أَخْر يُعْرِفُ يَدَيَّر
 ٥ ابن حُباسة . وكان عنده آثَر من وَلَدِه ، لِلَّذِي كان يَرى من نباهته ،
 وإقباله على قراءة الكُتُب ومُجالسة الفُقهاء ؛ وهو الذى كان يلقى به
 الرُّسُل ، ويصرفه فى المُهمَّات . وكان بارًّا بِحَبُوس وبجميع أهل المملكة .
 وكان من أَحَبِّ الناس فيه كاتبُ حَبُوس المعروف بأبى العباس ، لِمَا يَرى
 من تواضعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب . وطار له بذلك نامُوسٌ
 ١٠ كبيرٌ عند* صِنْهاجة حتَّى أَكْثَرُوهُ على غيره .

١١ (ب)

وكان بِادِيس بن حَبُوس جَدُّنا - رحمه الله - كبير النفس ، على الهمة ،
 حادًّا للزاج ، لا يستطيع أَحَدٌ [أن] يَمْخُرق عليه فى أمر من الأمور ، ولا يَنْكسر
 لأَحَدٍ من بنى عَمِّه ، رِقَّةً منه بسعادته ؛ وإنَّ الانخضاع والتمريض فى القول
 لا يَنْفِيهِ ذلك ولا يَزِيد فى أَيْامِه . وكان ذلك كُلُّهُ منه فى حزم وروية ،
 ١٥ لا يفسد جانبًا حتَّى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أَنفُسُ
 البعض منه ، وأُشْرِبوا هَيْبته وخافته ، وتوقَّعوا ، إن صار الأمر إليه ، أن
 يَجْرِبَهُم على خلاف ما عهدوه من أَيْهِ . فَأَضْمَر أَكْثَرُهُم لَهُ الغوائل ، وآثَرُوا
 عليه يَدَيَّر المذكور ، وتمنَّوا بولايته : كلُّ ذلك لشقايتهم وتَمَام أَيْام سعادتهم !
 وَتَمَيَّعَتُ الْمُظْفَر بِادِيس - رحمه الله - يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه

ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنهاجة من قال له : « إنَّ من آكِدٍ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرك مَنْ يَخْلُقُكَ مَعْنٍ تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عَمَّكَ ! فَإِنَّ الموت يندو ويروح ! » فقال أبو العباس كَاتِبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمر إِلَّا يَدَّيرَ ، لطهارته ، وعفافه ، ومحَبَّته في الناس ! » وكان في الجُمْلَةِ من شيوخهم صديقٌ لى اسمُهُ فِرْقَان ، قد اصْطَنَعْتُهُ واستمَلَّتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلَّم بهذا ! كيف يُقَدِّمُ للأمر غَيْرُ ابنه ، وهو مستطَلعٌ بجميع الأمور ؛ وقولُكَ أنتَ وقولُ غَيْرِكَ باطلٌ أكْثَرُ ، والله ، أَرَى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده ، وَإِنَّ يَدَّيرَ سيتحاطق على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرَّني * كلامُهُ ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار . »

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثُمَّ إِنَّهُ اطَّيَّبَ من وجوه صِنهاجة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهده على حلِّ تلك الصَّفَقَةِ ، إلى أن كلَّموا أباه في تَوَلَّيته . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . ١٥ وزجر يَدَّيرَ في ملأٍ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُباسة ! » يُخَاطِبُهُ بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّيرَ عدواةٌ مجدَّدة لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتِهِ وإِجْماعِ الجماعات عليه ، وشَتَّتْ أقواماً من صِنهاجة ، حتى صاروا معه . وَوَالَى بُلُقَيْنِ شقيقَ باديس — رحمه الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجدة ، غير أَنَّهُ لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْكَ . ٢٠ ولما رأى بعضُ أصحابه موالاته لِبُلُقَيْنِ وسَعْيَهُ له في ظاهر الأمر ، لامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنت لا تسعى لنفسك ، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى^(١) ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذى هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة ! » فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سعى بلقين إيثاراً منى له على نفسه ، غير أنه صحيح النية ، غير حاذق بمكايد المملكة ؛ وهو شقيق الذى أطلب ، ولن أجِدَ لطلبه أقدر على ضرره من أخيه ! فإنما أنا أصيدُ به ! فلو اتسقت لى الأمور ، وتهايا قتلُ باديس على يدى أخيه ، كان أمرُ بلقين من بعده هيناً ، وخلعه مُمكناً ! »

فكان أبداً يحضه على قتل أخيه ، ويريه السعى له . وكان الأخُ فى ذلك متشبباً فى أمره مُشفقاً على أخيه ، إلى أن توفى حبوس بن ماكسن — رحمه الله .

(١) أصل : « نروا » .

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوليتها إلى موت ابن نغالة

١٥ — أولية إمارة باديس بن حبوس
وتعاضد الوزير اليهودي أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جدنا باديس — نصر الله وجهه — فحاول
أموراً كباراً ، وشقي* مع كل أمة : صنتهاجة يطلبون مكانه مع يدير ، ١٢ (ب)
وسلاطين الأندلس برمون بلاده ؛ وهو في ذلك كله حسن السياسة ، صبور
على الأذية .

وكان أبو إبراهيم اليهودي كاتباً بين يدي أبي العباس كاتب حبوس .
ولما توفى أبو العباس المذكور ، وترك بينين ، أقام حبوس — رحمه الله —
أكبرهم عوضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان في الابن صبوة لا يرتبط
معه إلى خدمة الرياسة ؛ ففكر به أبو إبراهيم اليهودي ، ولزم خدمة الرئيس ،
١٠ وصار ، متى عاب ولد أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حبوس ؛
فيقول ، معتذراً في الظاهر ومطالباً له في الخلق القول : « ولد أبي العباس ،

كما ترى ، صبيٌّ يُؤثِّر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامةِ
عنده . وأنا عَبْدُهُ ، أنوبُ منابه ؛ فمرّني بما شئتُ : يَهَيِّأُ ذلك ! »
فلم يزل على هذا أبداً حتّى تمكّن ، وظهرت خدمته وسعيه في
ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترض السّعى
له والتخدّم لإرادته ما دَامَ أَمْكَنُهُ ذلك ، في وقت المفاويز له والقائمين
عليه ، للذي قدّر من أيتامه معه .

فلما اتَّفَقَ أعداؤه مع يَدَّير عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ،
واجتمعوا في منزله ، يرومون قتلَ باديس وإقامة يدّير ، وَعَدَمَ على الاجتماع
عنده . وتقدّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال
له : « ليس الخبر كالعيان ! اسمع بأذنك وعِ بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع
على البيت الذي يرومون فيه عمَلَهُمْ ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كَلَّه يقول عند
محاورتهم كالمخاطب للباري : « يا مَنْ يَرَى ولا يَرَى ! » وهو يعنى بذلك
باديس جدّاً الذي يَرَاهُمْ ولا يَرَوْنَهُ . فشكر ذلك باديس* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١)
وأيقن بثِقته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النهار ؛ وشاوره في أكثر
رأيه مع بني عمّه .

٢٠ وكان في اليهوديّ من الكيس والمُدَاراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذي
كانوا فيه والقوم الذين يرومونهم . فاستعمله لذلك استيحاءاً من غيره ، ولَمَّا
كان يَرَى من طَلَبِ بني عمّه له ، ولأنّ هذا يهوديّ ذِمِّيٌّ ، لا تشره
نفسه إلى ولاية ، ولا هو أُنْدَلُسِيٌّ ، فيتّقى منه إدخالَ داخلٍ مع غير جنسه
من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يَطَّيُّ بها بني عمّه ، ويحاول بها

أخَرَ الْمُلْكِ ، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك
مهما الآمال . ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ في حَقٍّ ولا باطِلٍ ، ولأنَّ
الرعايا أَكْثَرُهُمْ بتلك البلدة ، والأعمال إِنَّمَا كانوا يَهُوداً ؛ فكان يجبي منهم
الأموال ويعطيه ؛ فيلقى ظالماً منهم إلى ظلمةٍ ، يأخذ منهم ما [يملأ به]
بيت للال ؛ وإقامة أود الملكة أَوْلَى به منهم .

١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يَدْيَرُ بن حُبَّاسة

ضدَّ باديس

فلما ولي باديس ، كَثُرَ عليه الخلفاءُ والهرَجُ ، واتَّفَقَ رأيهم على
ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدْيَرٍ . وأعطى على ذلك أقواماً المشاكيل والصكوك
بالإنزالات القويَّة .

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرَّمْلَة ، ويلبثها مُنِيَّةً
كان يحكم بها حَبُوس أبوه ؛ وكان لها بابان ، [فاتَّفَقوا] على أن يقيموا
المَلْعَبَ ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنِيَّة ، وهم قد تسلَّحوا بالدرع
من تحت الثياب ، عازمين على الشرِّ .

وكان ممن ارتشَى على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعرَف بِفِرْقَان ،
أعطى خمسمائة مثقال وصكاً بقريةٍ قُولَجَر من عَمَل السَّطْح . فقال في
نفسه : « لم أَجِدْ فُرْصَةً نحظى بها عند باديس أَمَكَنٌ * من هذه ! » ٣
فجعل أنَّ القَرَمَسَ زَادَ به في جَرِيدِهِ ، كأنه جمع ، حتى دخل المُنِيَّة ،
والتقى باديس على الخروج من ذلك الباب ؛ فقال له مختليساً : « اتَّجُ بنفسك
وأخرج من الباب الآخر ! فَإِنَّ المَلَأَ يَأْتَمرون بك ليقتلوك ! » وأراه الدنانيرَ ٢٠

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يجدُّ في السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، يَنْتَظِرُونَهُ .

فبينما هُمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِذَا بِعَلِيِّ بْنِ الْقَرَوِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ وَزَرَاءِ بَادِيسٍ وَثِقَاتِهِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ ؛ فَهَالُوا لَهُمْ : « إِنَّ السُّلْطَانَ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَنْظَارِهِ خَبَرٌ مُقْلِقٌ وَجِبَ الْإِنْصِرَافُ لَهُ ؛ فَأَعْزِدُوهُ فِي تَخَلُّفِهِ عَنْكُمْ أَوْ مَعَ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ » . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ ، فَكَلُّوا مِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ خَبَرٌ هَرَبَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَهَرَبَ يَدَّيْرُ بْنُ حُبَّاسَةَ ، لَا يَلْتَفِتُونَ عَلَى شَيْءٍ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِمُهْجِهِمْ .

ثُمَّ افْتَضَحَتْ الْقَضَايَا كُلُّهَا لِبَادِيسٍ مِنْ بَعْدِ هُرُوبِهِ ؛ وَمَشَى إِلَيْهِ بِالنَّصَاحِ كَثِيرٌ مِمَّنْ بَغَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ . وَطَلَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بُلْقَيْنُ ، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَأَلَهُ الْعَفْوَ عَمَّا أَدْخَلَهُ فِيهِ الْفَاسِقُ ابْنُ عَمِّهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ أَبَدًا يَرُومُ ذَلِكَ مِنْهُ لَوْلَا تَلَبُّهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ . وَإِنَّ يَدَّيْرَ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ ، وَصَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَكُلُّ رَئِيسٍ قَدْ اتَّعَدَّ إِلَى فِتْنَةٍ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — يَنْحَازُ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيَصِيرُ مِنْ أَعْوَانِهِ وَعَلَى أَعْنَانِهِ ، يَدُلُّ بِهِمُ الْبَلَدَ ، وَيُرِيهِمُ الْمَخَادِعَ ، وَيَكْشِفُ لَهُمْ مِنْ عَوْرَاتِ الْجِهَةِ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ ، لَا يَفْتَرُ بِالضَرْبِ عَلَيْهِ وَتَهْتِكِ بِلَادِهِ ؛ وَجَدُّنَا فِي هَذَا لَا يَأْوِي مَعَهُ إِلَى رَاحَةٍ ، وَلَا يَقْرُ بِهِ قَرَارًا .

وَصِنْهَاجَةٌ مَعَ هَذَا يَخَاطِبُونَهُ ، حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ بِيَدِ السُّلْطَانِ بَادِيسٍ — رَحِمَهُ اللَّهُ — كُتِبَتْ كَثِيرَةٌ مِنْ عِنْدِ صِنْهَاجَةٍ إِلَى يَدَّيْرَ ، تَضَمَّنَتْ أَرْزِيْدَ مِنْ

٢٠ مَائِي رَجُلٍ* مِنَ الْأَكْبَرِ . فَغَضِبَ لَذَلِكَ ، وَهُمْ يَقْتُلُهُمْ . وَشَاوَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ (١) فِي الْأَمْرِ ؛ فَقَالَ لَهُ : « أَرَى مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا تَوَنَّبَ أَحَدًا عَلَى هَذِهِ

الكتب ، ولا تعلمهم أنها صارت إليك ، وأن تأمر الآن بنار تحرقها بها وتطفى أثرها ؛ ورأس العقل مُدارةُ الناس . فإن عاقبت ، كم عسى [أن] تُعاقب ، وهم أجنادك وأجنحتك ! فاحتل للأمر بغير هذا الوجه ! « فقبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابن بأبيه والأخ بأخيه .

فكان دأبُ يدبّر هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سامة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار في ثقافه . وذُكر أنه مات مقروعا حتف أنفه . وتأنّت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجوّ .

١٧ — انتصار باديس على زهير صاحب المريّة

وأولُ فتحٍ أفاء الله عليه هزيمته لزهير الخصي والي المريّة . وكان له كاتبٌ ، يُعرف بولد عباس ، من أشدّ الناس حماقةً واستخفافاً ، مُثيراً للشر ، مؤرّشاً بين الملوك ؛ وكان الغالب على أمر زهير ، إذ لم يكن زهير يصلح لشئٍ لعباوته وجهله . وكان قد جمع كلَّ خصي بالأندلس واحتفل ؛ فبالغ . وأدركه الطمع في غرناطة ، ليأ بلغه من موت حبّوس بن ماكسن . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالقنوت ، محتقراً لمن ولي غرناطة ، يزعم أنهم أصاغِرُ وأمرهم مختلٌ بعد حبّوس ، ليأ أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيّيه الخصيان .

وكان جدُّنا باديس — رحمه الله — قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحوَر غرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فهالَه ذلك ، وخشى أن تكون الواقعة عليه ؛ فأرسل في المُعبّر وقصّ عليه . فقال له المُعبّر : « أبشّر بهنم

الرُّؤْيَا ! إِنَّ الْحَوْرَ شَبِيهٌ بِالْخَصِيَانِ ، الَّذِي * لَا طَعْمَ لَهُ ، وَلَا أَصْلَ يَتَوَرَّكَ ١٤ (ب)
عليه ؛ وَهُمْ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ . وَلَا شَكَّ فِي سَقُوطِهِمْ وَبَوَارِهِمْ عَلَى يَدَيْكَ !
فَكَانَ ذَلِكَ .

وَقَدَّمَ عَلَى السَّاكِرِ أَخَاهُ بُلْقَيْنَ ؛ وَكَانَ مِنْ أَشَجَّعِ النَّاسِ ؛ وَكَانَ
٥ باديس ، عِنْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، قَدْ اخْتَصَّهُ بِكُلِّ مَا شَاءَ وَفَضَّلَهُ فِي الْمِيرَاثِ عَلَى
نَفْسِهِ إِلَّا النَّاصِ الَّذِي تَحْتَاجُهُ الْمَمْلُوكَةُ . فَلَقِيَ الْعَسْكَرَ الْمُرْذُولَ ؛ فَلَمْ تَكُنْ
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ حَتَّى انْهَزَمَ وَقُتِلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَصِيَانِ ،
وَنَحَى زُهَيْرٌ عَنِ الْعَسْكَرِ ؛ فَلَمْ يَوْجَدْ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا . وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ
سَعَادَةِ بَادِيسَ ، كَمَا كَانَتْ هَزِيمَةُ الْمُرْتَضَى أَوَّلَ سَعَادَةِ أَبِيهِ ، ثُمَّ افْتَتَحَ
١٠ الْبِلَادَ ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ الَّتِي تَلِي الْمَرْيَةَ . وَظَفَرَ بَعْدُوهُ كَاتِبَ زُهَيْرَ ،
وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ مَتَأَوَّلًا لِإِثَارَتِهِ الْفِتْنَةَ ، وَنَقِمَ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً قَبْلَ ذَلِكَ ، مِنْ
أَقَاوِيلَ خَشَنَةٍ وَمُعَامَلَاتٍ قَبِيحَةٍ عَرَفَهُ بِهَا .

وَقَرَّ مُلْكُ بَادِيسَ جَدًّا قَرَارَهُ ، وَطَارَ لَهُ الذِّكْرُ . وَكَانَتْ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ
فِي النَّاسِ أَنْ لَمْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ .

١٥ ثُمَّ إِنَّ بُلْقَيْنَ أَخَاهُ لَمْ يَلْبِثْ بَعْدَ تِلْكَ الْوَقِيعَةِ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى مَاتَ
— رَحِمَهُ اللَّهُ — . وَكَبُرَتْ سَنُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي حَالِ الْخِلْدَانَةِ ، وَهُوَ أَبُوْنَا .
وَتَرَكَ عَمَّهُ بُلْقَيْنَ ابْنًا كَانَ يَنَاوُهُ وَيَخْشَى مِنْهُ ضَرًّا كَثِيرًا ، وَيَتَوَقَّعُ عَلَى نَفْسِهِ
مِنَ الْمَطَالِبَاتِ بِتِلْكَ الْأَخْبَارِ ؛ فَخَرَجَ عَنِ الْبِلَادِ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَتَرَكَهُ أَبِيهِ ،
لَمْ يَعْتَرِضْ لَهُ شَيْءٌ .

١٨ — شخصية الأمير بُلقين سيف الدولة والد المؤلف

ولم يكن للمظفر جدًّا غير بُلقين أبينا — رحمهم الله — . وكان رفيقًا به ، مشفقًا عليه ، حذرًا من أعدائه وبنى عمه أن يُبلغوه من بعده بما يُولِّغ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخله ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إخالٍ أو نقيٍّ أو أخذٍ مالٍ ، لئلا يبقى لابنه من يُناوئه ويُذله .

وكان سيف الدولة حليماً* رفيقاً ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فإنه لم يجربْ ١٥ من الأمر ، ولا ابتليَ بما ابتليَ هو به . وكان يعدُّ الناسَ بالجيل ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقة أبي ا » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذنى ضررٍ ، كان هو الذى يعنى بأمره ، ويتشفع فيه عند الأب ، حتى يتخلَّصه . ١٠ فأجمع الناس على محبته خاصَّةً وعامةً للذى يرون من مكارمه ، مع تمكين أبيه له وبسطِ يده على الأموال .

١٩ — نشاط يوسف بن نمرالة اليهودي ومؤامراته

وكان في زمانه للمظفر أبيه وزيران ابنا القروى : أحدهما على ، والآخر ١٥ عبد الله ، ممَّن نشأ معه ؛ وكانا حَصِيرِيَّه في المكتب ؛ وكانا قائدَي العسكر ؛ وإليهما كان يرجع الرأى في أمور القن^(١) . وكان أبو إبراهيم الشيخ مؤثِّراً لهما ، مستعيناً بهما .

(١) أصل : « الفتن » .

- فلما توفي أبو إبراهيم، وترك ابنه وزيراً جدُّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرة، ووصاهُ بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتَفٌ كل واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستثمارهم بالجبايات. فجعل الخنزير نفسه لذلك. وكان المُظفَّر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالبةٌ لمُسْلِمٍ، ولا عرضةٌ لذلك، غير أنه كان يتلطف بالأموال، ويعطى لثقاته وعبيده ما يجعلهم في المُطالبة على هواه، وهو ساكت، لا يتكلم بشيء مثل أن يَدُسَّ في طلب أحدٍ على يدي مَوْقٍ الخصى صاحب المدينة من ثقات باديس؛ وكان متصباً لهذه المشايخ؛ فيأتي مَوْقٍ المذكور بنصيحة إلى السلطان ممن يزعم أنه من أهل الشر؛ فيُرْسَل في اليهودي ويُقال له: «بلغني أمرٌ كذا وكذا». فيريه اليهودي التبرؤ^(١) من ذلك بأن يقول له: «كل ما نُقِلَ إليك كذبٌ: فتثبت^(١)!» فيقول له الرئيس: ١٥ (ب) «أخبرني مَنْ لا شك عندي في نصحته! فكان آخر ما يقول له: «ما قطع الشر إلا سياسة!» وكان لمباهاته ومخزقته، يرى الناس أنه يقدر؛ ولم يكن ذلك منه، إلا عن تحيُّل ومكرٍ.
- ١٥ فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنه في سنِّ الصبا، كره توليته جدُّنا، وقال لعلّ المذكور: «الزِمْ خِدْمَةَ المملِكة؛ فأنت أحقُّ بها!» فأبى ذلك على. واطَّباهُ وَلَدُ أبي إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أرغب إلا أن أكونَ عَبْدَكَ وتَرْبِيتَكَ؛ ولك الأمر؛ وأنا كاتبٌ بين يديك، وأقوم بِنَفَقَتِكَ كلها، ولو كان أهْلَكَ عَدَدَ الخصى!» فقطع ٢٠ على في قوله، وكَلَّمَ السلطان في ذلك، وقال له: «إن أبقيتَ على وَلَدِ

(١) أصل: «التبرؤ».

أبي إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لو لآدى من بعدى ؛ وأنا المشرف عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقدمه على العمال والجبايات . وكان يعطى لعلّى صدرأ من دولته إلى أن كبرت سنّه .

وأظهر [ولد أبي إبراهيم] للسلطان نصائح كثيرة حظى بها عنده ؛
 ٥ وتبرّمتك على على وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يسأل به عن على ولا عن أحد من خلق الله . وكان فيما قال له : « إن الذى يأخذ على أنت أوّل به ؛ والرجل كثير الأولاد والصفف ، ويذهب مالك إن لم تحمى وتمضنى . وهو متى تملاً ، طمع فى ملكك ! وأنا رجل ذمى لا همّة لى إلاّ خدمتك وجمع الدراهم لبيت مالك ! » فوثق الرئيس بقوله ،
 ١٠ وقاس عليه بعقله ، ومنع منه علياً وجميع الناس . ولما رأى على تأخره وتقدم اليهودى ، ندم على ما كان منه أولاً ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وعاطه ذلك وأكرّبه .

وكانت مدينة وادى آش* بيده ، قد قدّم عليها أخاه عبد الله ؛ وكان (١٦)
 ١٥ يأكلها طعمة ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دراهم ، وهى تساوى أزيد من مائة ألف دينار ثلثية . فدخل عليه اليهودى بهذه المطالبة وقال للسلطان : « اقبض وادى آش من عنده ، ولك منى فيها أزيد من مائة ألف ا » فقال له : « لست أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاودة ، وهم متصرفون فى خدمتها » . فوجد اليهودى السبيل إلى حيلة فى نزاعها باسم سيف الدولة أينا ، وقال : « لآخذنّ البلية من يد عدو ، فأضعها فى يد سلطان يشكرنى عليها ، ويرى لى ذلك عن تخدم ونصيحة ا »
 ٢٠ فقال لأبى : « إنه يلزمنى طاعتك ونصيحتك لآكون لك كالذى أنا لأيك ؛

وأراك كثير الذرية ، تلزمك نفقات وتجمل الرئاسة ؛ ومن الغبن أن يكون
وزراه والدك أغنى منك ! وهذه وادي آش ، بنت غرناطة ، لا تجمل إلا لك ،
وأنا أتمررها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ! » ففرح لقوله والدي — رحمه
الله — ، وشكر له رأيه ، ووعدته بالزيادة في مرتبته إن صار الأمر إليه .
ثم مضى إلى الوالد ؛ فأخبره الخبر ، وقص عليه أمر ابنه ؛ فقال له
المظفر : « الآن وجب أخذها من أولاد القروى . » فأرسل على اللقمان في
علي وقال له : « إن ابني محتاج إلى المال ، وطلب مني وادي آش . ولو كنت
أخذها منك ومعطيتها لقرنك ، لعز عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرع
بها لابني . » فلم يكن جواب علي إلا أن قال له : « ما صلح للموتى على
العبد حرام ! » فضمها اليهودي خادماً لأبي فيها ، وشرط عليه أن يعطيه
رتمها في أنجم العام ؛ واتفقا على ذلك * . وصارت المودة متمكنة بين الابن ١٦ (ب)
والوزير مدة طويلة .

٢٠ — موت الأمير بلقين مسموماً

فلما رأى وزراء الدولة وعلي وأخوه تمسكن اليهودي عند السلطان وعند
الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كل مبلغ . وأجمع رأيهم على
الدخول بينه وبين أئينا . وكان أولاد علي وعبد الله وزراء لسيف الدولة
وندماء ، لا يفارقونه . فصلوا عليه من كل وجه بأنفسهم ومع بنينهم ،
وقالوا لسيف الدولة : « إن الأموال التي ينعم اليهودي ويستأثر بها ، أنت
أحق بها وأولى . وقد أخلك وأخل الدولة أجمع ! ولو أنك قتلتته ، لم يقل
لك أبوك في ذلك شيئاً ! وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفسقة —

قَتَلَ عَدُوَّهُمْ عَلَى يَدَيِ ابْنِ الرَّئِيسِ ، لِيُخْرِجُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ : فَإِنْ عَاقَبَ ، عَاقَبَ ابْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ، وَحَصَّلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ مَلَامَةٍ مِنَ السُّلْطَانِ . فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ أَبَدًا ، يَنْمُونُ بِالْيَهُودِيِّ ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْضُونَ^(١) إِلَى الْيَهُودِيِّ بِالْكَذْبِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَتَّى تَغَيَّرَ أَبُونَا عَلَيْهِ وَتَغَيَّرَتْ لَهُ نَفْسُ الْيَهُودِيِّ ، مَعَ قَلَّةِ تِجَارِبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِمَكَايِدِ النَّاسِ . فَعَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ ؛ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ ، وَيَنْشَى سِرَّهُ إِلَى الْوُزَرَاءِ الرَّافِعِينَ إِلَيْهِ ؛ فَلَا هُوَ يَعْزِمُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَا هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالْأَمْرِ ، إِلَى أَنْ صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، وَاعْتَزَمَ رَأْيُهُ عَلَى أَنْ يَسْبِقَهُ بِالْأَمْرِ ، وَرَأَى عَيَانًا تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُونَا ، لَمَّا هُمْ بِقَتْلِهِ ، وَأَعَدَّ لَذَلِكَ عَيْدَهُ ، فَكَّرَ فِي سَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَكَفَّ .

- ١٠ وَكَانَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَخٌ صَغِيرٌ اِسْمُهُ مَاكْسَنُ ، عُنَا الشَّهِيدُ فِي وَقِيعَةِ بَطْلَيْوُسَ . فَعَمِلَ الْخَزِيرُ رَأْيَهُ مَعَ مَشِيخَةِ الْيَهُودِ ، * وَأَخْبَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ سَيْفِ ١٧ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَأَدَّاهُمْ رَأْيًا : « لَا تَطْمَعُ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَ الشَّيْخِ ، وَلَا فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ ! وَلَكِنْ انْظُرْ لِنَفْسِكَ فِيمَنْ يُقِيمُ إِنْ مَاتَ رَيْسُكَ : أَوْجَدْتَهُ ؟ وَتَحْيَلْ فِي سَقَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَهَذَا مَا كَسَنُ أَخُوهُ ١٥ مَخُولٌ ؛ فَإِنْ قَتَلْتَ أَنْتَ هَذَا ، وَوَلَّيْتَ هَذَا ، قَدَّمْتَ عِنْدَهُ يَدًا لَا يَنْسَاكَ عَلَيْهَا ! » فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَقْيَهُ . وَكَانَ مَتَمَكِّنًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ أَبَانَا كَانَ كَثِيرَ الشَّرْبِ مَعَهُ وَالتَّكْرَارِ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ . فَشَرِبَ يَوْمًا عِنْدَهُ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَلَمْ يُخْرِجْ عَنْهُ حَتَّى قَذَفَ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ الْمَشْيَ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ ؛ وَلَبِثَ يَوْمَيْنِ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى مَاتَ — ٢٠ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

(١) أَوَّلُ : « وَيَمْضُونَ » .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان باديس يقول : « أُرْسِلَ في سَيْفِ الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمّهَاتِي وَقُلْ لهنَّ ^(١) إِنِّي اعتزمتُ على قتل اليهوديِّ . » يقول الخَصِي : « قُلتُ له : « أنا لا أمضي بهذه الرسالة ! فَإِنَّ الخَبَرَ لا مَحَالَةَ عنده ! لو أنك تريد قَتْلَهُ ، ما كان ينبغي لك أن تُسمِعَنِي ذلك ولا أَحَدًا من خلق الله ! » فعلمتُ أن حاله تَوَوَّلُ إلى مثل ذلك . »

ومما أظن على الفساد قَبْلَ ذلك أن أبانا كان مع أُمّهَاتِهِ ، اللَّائِي رَبَّيْن وَلَدَهُ المِعْرَ أَخانا ، على ضِدِّ من الأمن ، لإفراغِهِنَّ المَال على ابنه طفلاً صغيراً وَمَنَعِدِ هو منه . فاحتاج إلى اليهوديِّ عن المَال . وكان أُمّهَاتُهُ يُطَالِبْنَهُ وَيَمْنَعْنَهُ عن صحبة اليهوديِّ ، حتى شعرا بذلك ؛ واتفق رأيهما على مُطالبة النساء عند الرئيس ، وتجريمهنَّ بسرقة المَال وإرساله إلى البلاد . فلما وقف جدُّنا على المقالة ، وقد وقعت المفاصلة بينهنَّ وبين ابْنِهِنَّ ، صار مَكُومًا* من الأب والنساء . وتَحَيَّلَ النساء على أن يرَّأْنَ ^(٢) أَنْفُسَهُنَّ مِمَّا قُذِفْنَ ^(ب) ١٧ به ؛ ودَعَتِ الضرورةُ سَيْف الدولة أن يتصالح مع النساء لرجوع أبيه معهنَّ ؛ وَرُدَّتِ القِصَّةُ في رأس اليهوديِّ . فكان ذلك ممَّا زاده غائلةً ١٥ ونفوراً ، وجرى على يديه ما قَدَّرَ اللهُ به لتمام المَدَّة .

وكان في أوَّلِ المفاصلة قد احتبس له بكثير من جباية وادي آش ؛ وشكا به سَيْفُ الدولة لأبيه . فتَحَيَّلَ الخنزيرُ على أن دعا أبانا إلى منزله لشرابٍ ، حتى سكر ؛ وأمرَ بمُخْرُوجِ بنيه وعياله في ثياب الحزن . فهالَ ٢٠ ذلك أبانا لِمَا رأى من حالهم وبكاؤهم ، إلى أن قال له : « هل مات عندك

(١) أصل : « لم » . (٢) أصل : « برين » .

أَحَدٌ ؟ » فقال له : « مات عندي مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمَطْلٍ الرعيّة ! وهذا يومٌ طيّبٌ : فَأَنْسَ أَهْلِي بِكَتَبِ بَرَاءَةٍ تَبَرِّئُنِي بِهَا إِلَى أَنْ يَرِدَكَ مَالُكَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ وَجَسَتْ نَفُوسُهُمْ وَفَزَعُوا . فَأَتَيْتُ إِحْسَانَكَ بِكَتَبِ الْبَرَاءَةِ ! » فَافْتَرَصَهُ فِيهَا ، وَكَتَبَهَا ؛ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : « إِنَّمَا يَنْفَقُ مَالُهُ عَلَى الْوُزَرَاءِ وَالشَّرَابِ الْمُدْمِنِ ! وَهَذَا إِبْرَؤُهُ لِي : فَأَيْنَ شَكْوَاهُ ؟ » فَرَجَعَ مَلُومًا مِنَ الْأَبِ زَائِدًا ، وَصَارَ فِي خُسَارَةٍ مَعَ الْوَزِيرِ وَالتَّسَاءِ ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَمَامِ الْمُدَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِجَمِيلِ نَيْتِهِ وَصَفَاءِ مَذْهَبِهِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ !

٢١ — ما بلغ ابن نَعْرَآةَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَرْفَعِ

- ١٠ فلما تَوَفَّى أَبُونَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الرِّزَايَا لِلنَّاسِ ، لِمَا كَانُوا يَرْجُونَهُ مِنَ الْعَدْلِ عَلَى يَدَيْهِ ، هَاجَ النَّاسُ بِأَمْرِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَتْ تِلْكَ مَقَدِّمَاتٌ لِهَلَاكِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَاقِبَةَ الرَّئِيسِ . وَزَادَ فِي طَلْبِهِ لِأَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ ، وَصَوَّرَ عِنْدَ الْمُظَفَّرِ أَنَّ بَنِيهِ زَيْنُوا لَابْنَهُ الْإِدْمَانَ عَلَى الْخَمْرِ حَتَّى هَلَكَ . وَأَدْرَكَتْ لِتِلْكَ أَوْلَادَ الْقَرَوِيِّ مَنَحَسَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نَفْيِهِمْ عَنِ أَوْطَانِهِمْ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، وَقَتَلَ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ* الَّذِينَ كَانُوا (١٨) حَوَالِيَّ أَيْنَا لِمَا أَتَّهَمُوا بِهِ ؛ وَجَانِيَ الْقَضِيَّةَ لَا يُوبَهُ لَهُ . وَتَبَرَّكَ مَلِكُ الْيَهُودِيِّ بَعْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَسَعَى فِي إِقَامَةِ مَا كَسَنَ عَمَّنَا .
- ١٥ وَكَبُرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَنٌ جَدًّا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَزَهَدَ فِي طَلَبِ الْبِلَادِ لِكِبَرِ سَنِّهِ وَمَوْتِ ابْنِهِ ، وَأَلْقَى بِمَقَالِيدِهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فِي الْخَلْدَةِ عَنْهُ ؛ فَتَمَكَّنَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ .
- ٢٠

٢٢ - امتيلاء باديس على مالقة

وإنما كان طلبُ جدِّنا أَكْثَرُهُ وَسَعْيُهُ على أَخْذِ مالقة ؛ فَإِنَّهُ ، متى كان يأخذ شيئاً من معاقل الأندلس ، يبلغه من المعزِّ بن باديس أَنَّهُ يقول : « يَخاطِبُنِي صاحبُ غرناطة بِأَخْذِ الكُورِ والقُرى ! أما أَنَّهُ لو أَخَذَ مثل قُرْطُبة ومالقة وما أشبههما من القواعد ، كُنَّا نبايع له في ذلك ! » فجعله كلامه يحدُّ في خبرِ مالقة ، ولَّذِي كان يرى من اندبار سلاطينها ، وتوقُّعه على أن يأخذ البلدةَ مَنْ يَدْخُلُ عليه السَّخِطَةُ منها . فلم يزل يماودُّها سنين^(١) بلا سامة ولا فترة ، حتى حصل عليها .

وبنى قَصَبَتِها بنياناً لم يقدر على مثله أَحَدٌ في زمانه ، وأَعَدَّها عُدَّةً لِلْمِهْمَاتِ ، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه ، وزاد عليه ؛ وكان الذي يتوقَّع من كَلْبِ سلاطين الأندلس واتِّفاقهم عليه لذلك أن يتحصَّن فيها ما استطاع ، وإلا ، فيجوز منها إلى عِدوة بني عمِّه بأهلِه وذِخائِرِه ومُذَّ أَخْذَها ، حلَّ عن نفسه .

ونازَعَهُ عليها ابنُ عَباد ، وأطاعَهُ أَهْلُها دون القَصَبَةِ ؛ فوجَّه إليها عساكرَه ، وهزمه عليها . ورجعتْ إليه بعد اليأس منها . ولم يُلاقِ سلطانٌ على مدينةٍ مالاقي هو على مالقة من طول الفِتَنِ ونفقة الأموال . فلما بلغ منها الغاية من آماله ، حلَّ على نفسه ، وتمتَّع بِمُلْكِه . ومن ذلك دخلت عليه الدواخِلُ باستنামته إلى الوزراء وولاةِ البلاد ، على حسب ما تُقَصُّه بعد هذا .

(١) أصل : « سنيناً » .

ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دولتنا خَاصَّةً ، لَدَكَّرْنَا لَمَعًا مِنْ دَوْلِ بَنِي
 كُحُودٍ فِي مَالَقَةٍ ، وَاخْتِلَالِ أَمْرِهِمْ* وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، حَتَّى تَصِيرَ الْأُمُورُ إِلَى جَدُّنَا ١٨ (ب)
 — رَحِمَهُ اللَّهُ — ؛ لَكِنْ نَقْتَصِرُ عَلَى ذِكْرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَى إِيْرَادِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
 قَهْدَنْتُ الْحَالِ ، وَتَأَتَتْ السَّعَادَاتُ ، وَامْتَلَأَتْ بُيُوتُ الْأَمْوَالِ سِنِينَ^(١)
 ٥ لَا يُسْمَعُ فِيهَا يَفْتَنَةٌ ، وَلَا يُرَى مَعَهَا تَشْغِيبٌ ، إِلَى أَنْ اخْتَلَّتِ الْأَحْوَالُ
 بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا كَانَ مِنْ نِفَاقِ الْيَهُودِيِّ — لَعَنَهُ اللَّهُ — ، وَتَضْيِيرِ وَادِي آشَ
 وَجَمِيعِ أَنْظَارِهَا لِابْنِ صُمَادِحَ ، وَاسْتِشَادِ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْبِلَادِ ، حَتَّى إِنَّهُ
 لَمْ يَبْقَ لَنَا أَكْثَرُ مِنْ غَرْنَاطَةِ وَالْمَنْكَبِ وَبَاغِهِ وَقَبْرَةٍ . وَلَمَّا شَاعَ عِنْدَ
 الرِّعَايَا خَبَرُ مَوْتِ الرَّيْسِ الْأَجَلِّ — فَإِنَّهُ كَانَ مُحْتَجِبًا أَبَدًا — خَلَّتِ الْمَعَاقِلُ
 ١٠ مِنَ الرِّجَالِ ، وَافْتَرَصَتْهَا الرِّعَايَا بِأَسْبَابٍ نَحْنُ نَذْكُرُهَا^(٢) إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا .

٣٣ — عِلَاقَاتُ بَادِيسِ بِنِي صُمَادِحِ أَصْحَابِ الْمَرْيَةِ

وَالْأَوَّلَى أَنْ تَقْدُمَ وَصْفَ وَلَايَةِ ابْنِ صُمَادِحِ لِلْمَرْيَةِ ، وَعَضْدَةَ جَدُّنَا —
 رَحِمَهُ اللَّهُ — لِرِيَاسَتِهِ ، وَإِثْبَاتِهِ لَهُ فِي مُلْكِهِ عِنْدَ قِيَامِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَيْهِ ،
 طَالِبًا لَهُ خِلَافَتِهِ عَلَيْهِ ، وَأَيَادِي كَرِيمَةٍ سَلَفَتْ مِنَ الْمُظْفَرِّ قَبْلَهُ ، لَمْ يَسْبِقْهُ
 ١٥ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ جَنْسِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَكَافَأَتُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ افْتَرَصَ بِلَادَهُ
 وَقَبِيلَ دَوَاخِلَ إِلَى الْإِفْرَنْجِ ، يَعِدُّهُمْ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ . وَأَجَابَهُ مُجَاهِدٌ لِمَا
 أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَعَمِلَتْ الْكَلِمَةُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا هَمَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ بِالرَّجُوعِ
 عَنْ لُرْقَةٍ يُرِيدُ الْمَرْيَةَ ، تَأَخَّرَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ ، وَتَيَّيَنَ لِلْمَنْصُورِ قَعُودَهُ عَنْهُ
 وَخِذْلَانَهُ إِيَّاهُ ؛ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَقَالَ مُجَاهِدٌ مُخَاطِبًا لَهُ وَلِأَعْلَامِ قَوَّادِهِ :

(٢) أَصْلُ : « ذَاكِرُهَا » .

(١) أَصْلُ : « سِنِينَ » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّ ، ولا جرّبتُم حروبهم ، فأنا ،
والله ، أعلم بها أفديّاكم أن يكون بوارُكم على أيديهم . وأنتم [ستعلمون]
أنّ فِتنة عشرين سنة خيرٌ من مُلافاة ساعةٍ واحدةٍ ؛ فإنّ فيها تلف
الدُّول ، وينتقل المُلْك ، ويستأصل الجمع . فعليكم بالتأني ! » فقال له ابن
أبي عامر : « جُبنت ! ارجعْ إلى دانيّة ولا تفسد على الجيش ! » فأقلع
على القيام مفضّباً من قذفه .

وجزع الناس بزوال مُجاهدٍ عنهم ؛ وأدرك* الإفرنج الطمعُ ، وطلبوا ١٩ (١)
منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف ترون هزيمة هذا التسكر
١٠ من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُقِّت ! وأنتم ، متشَرّ الملوك ، لم
تُعْطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعل عقولكم أجَلَّ
وأَنفَسَ من عقول الناس ؛ وبذلك فضّلتم من دونكم ! » ورجع المظفرُ
غالباً منصوراً . وصار أبو الأخوص [بن صُمادح] طاعةً له ؛ لا يروم شيئاً
من كلِّ ما بالمرية إلا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلا وكان مِلْكاً
١٥ يديّه . وبقي الأمرُ على ذلك سنين .

وكانت قُرطبة في ذلك الزمان بمنزلة المَريّة ، إذ كان فيها ابنُ السَّقاء ،
لا يمتنع على المظفر من رغبته فيها شيء ؛ إلى أن توفّي أبو الأخوص ،
وترك ابنه هذا التوفّي بالمرية — رحمه الله — عند ظهور المرابطين عليها ،
وهو إذ ذاك صغير السن . فأرسل إلى المظفر يرغب إليه أن يكون له في
٢٠ المضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ اِشْياداً
من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المظفر إلى كلِّ

ما سأل ، ووعدّه بالذّب عنه على أتمّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .
وجدد معه عقدًا . وثبتتْ رياسته ، وقرّر حاله قراره ، ودأبًا على ذلك
دهرًا طويلًا ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشغيبٌ .

- وكان في ذلك [الوقت] خدامٌ دُولتًا مُتَّفِقِينَ مع اليهوديِّ ، إذ
كان وزيرُ السلطان وصاحبُ سرّه : فمنهم صنيعةٌ له قد استغنى معه ،
ومنهم عدوّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهر استدفاعاً لشرّه . فَاتَّسَقَتِ الأمور بذلك ،
وأعان بعضهم بعضًا على خدمة السلطان ، وأنسوا إلى ثقته بهم وعَضِدَ
بعضهم لبعض . ولما تهَيَّأت له الأمور ، وتوطّدت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا
من تلك الفتن ^(١) وغيرها ، وحصل على مدينة مالقة بعد المكابدة واليأس * ١٩ .
١٠ منها ، حلّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها للوك ،
وفوض أمره إلى الوزير والخدّمة .

٢٤ — وصول النّاية إلى غرناطة .

حظوته ومنافسته لليهوديِّ

- وفي أمكن ما كانت الدولة وأبهجها ، قصده النّاية ، عبدٌ كان للمُعْتَضِدِ
١٥ ابن عبّاد — رحمه الله — ؛ وكان من جملة من اتَّفَق على غدره مع ابنه
المشهور خبّره ؛ فأبى للقدر الذي لم يكن عنه محيصٌ . واعتنى به جماعةٌ
من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العطايا ؛ فأجابهم إلى ذلك تَقَمُّغًا
لسرورهم ^(٢) ، كئى يزيدوا في خدمته ونصيحتِهِ ؛ وقالوا له : « قَصَدَكَ هذا
الإنسان عن مفاسدةٍ لغيرك وتمويلٍ عليك ؛ وقد أمْلَكَ ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « العتُون » . (٢) أصل : « لسارم » .

إِنَّمَا تُسَدِّدُهُ إِلَيْنَا . » ودخل غرناطة في أَسْعَدِ وقت له ، وأَشْغِيهِ عَلَى الدولة .
وسار في أوَّل أمره مع الخِدْمَةِ بِأَجَل سِيرَةٍ وَتَوَاضَعُ لَهُمْ ، حَتَّى حُدُّوا
طَرِيقَتَهُ ، وَنَعَمُوا عِنْدَ السُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ اسْتَعْمَلَهُ فِي بَعْضِ خِدْمَتِهِ وَصَرَّفَهُ فِي
وَلَايَةِ بَعْضِ عَسَاكِرِهِ . وَكَانَ لَطَلَبُهُ النَّارَ مِنْ بَنِي عَبَّادَ ، قَدْ اكْتَفَى فِي فِئْتِهِ
مَالَقَةً وَاسْتَمَالَ أَقْوَامًا مِنَ الْجُنْدِ ؛ وَكَانَ فِيهَا مُتَصَرِّفًا بَيْنَ يَدَيْ مُقَاتِلِ بْنِ
يَحْيَى قَائِدِهَا . وَلَمْ يَزَلْ مُقَاتِلُ الْمَذْكُورُ ، مَتَى خَرَجَتْ مُعِيرَةٌ إِلَى بَلَدِ ابْنِ
عَبَّادَ ، يُعَلِّمُ الْمُظَفَّرَ بِكِفَايَةِ النَّايَةِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ، حَتَّى كَادَ يَجْعَلُ لَهُ الْحَسَّ
كَلَّةً ، إِلَى أَنْ وَرَدَهُ كِتَابُ السُّلْطَانِ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا ، وَصَارَ قَائِدًا مَعَهُ فِي
الْبَلَدَةِ . وَزَادَ جِدُّهُ ، وَنَمَا خَبَرُهُ ، وَتَضَاعَفَ إِحْسَانُ الْمُظَفَّرِ إِلَيْهِ . وَكَانَ ،
مَتَى مَا أَتَى مَالَقَةً ، نَزَلَ السُّلْطَانُ فِي دَارِهِ ، وَشَرِبَ مَعَهُ ، مَعَ تَتَوِيهِهِ بِهِ
وَالزَّيْدُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ الْأَيَّامِ .

وَكَانَ ، مَعَ تَقَرُّبِ السُّلْطَانِ لَهُ مَتَى انْقَرَدَ بِهِ أَوْ افْتَرَصَهُ عَلَى الْخَمْرِ ،
يُجْرِّحُ عِنْدَهُ الْيَهُودِيَّ ، وَيَقُولُ لَهُ : « قَدْ أَكَلَ مَالُكَ ، وَتَمَلَّكَ بِأَعْظَمِ
مِنْ مَالِكَ ، وَبَنَى خَيْرًا مِنْ قَصْرِكَ ! فَاللهُ اللهُ فِي إِزَاحَتِهِ وَالتَّجَبُّبِ إِلَى
الْمُسْلِمِينَ بِفَقْدِهِ ! » وَالْمُظَفَّرُ فِي هَذَا كُلِّهِ يَعِدُّهُ وَيَقُولُ لَهُ : « لَا بُدَّ لِي
مِنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْكُلُكَ * عَلَى قَتْلِهِ ! » فَرُبَّمَا لَفِظَ بِذَلِكَ بِمَسْمَعٍ مِنْ لَا يُؤْبَهُ (١) ٢٠
لَهُ مِنْ عِبِيدِهِ وَالْمُتَصَرِّفِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَيَنْقَلِبُونَ ذَلِكَ عَلَى الْمَقَامِ إِلَى الْيَهُودِيِّ
لِيَصِلَهُمْ عَلَيْهَا . فَلَا تَزْدَادُ نَفْسُ الْخَنْزِيرِ إِلَّا حِمَاقَةً وَمُنَافَرَةً ، وَيَكَادُ أَنْ
يَمُوتَ هُمَا وَحَقًّا ، مَعَ حَسَدِهِ لَهُ عَلَى النَّزْلَةِ الَّتِي خُصَّ بِهَا دُونَهُ ؛ وَرَامَ
مُطَالَبَتَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ بِكُلِّ مَرَامٍ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ . فَلَمَّا رَأَى أَنَّ مَنْزِلَتَهُ
لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَرْفِيعًا ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَحْمِلَ السُّلْطَانُ عَلَى هَلَكَتِهِ ،

انقطع رجاءه من كل وجه وقال : « إِنَّمَا اسْتَهِزَّأُونَا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ
السلطان ! وَأَمِنَّاهُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا بِحِمَايَتِهِ وَعِزَّتِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَقَدْ انْقَطَعَ
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمَنُهُ ^(١) ، وَفَرِينُ سُوءِ يَطْلُبُنَا عِنْدَهُ ، وَعَامَّةٌ تَرِيدُ
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [اليهودي ^{١٠}] قد ألقى يده في عهد ماكسن ، رجاء منه أن
يسند إليه ؛ فكان من أشد الناس عليه ، ولم يكن حوَالِيَهُ رجلٌ رشيدٌ
يُسَدِّدُهُ وَيَأْمُرُهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَّاكْسَنُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ
سَيِّئُ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلُ الْبِرِّ ، خَشِنُ الْكَلَامِ ، يَمِيدُ النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى
كَرِهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .
وكَانَتْ أُمُّهُ تَتْرُكُ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَى خَالِهِ :
يَهُودِيٍّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرِّيعِ بْنِ الْمَاطُونِيِّ ، وَكَانَ قَابِضَ الْوَجِيئَةِ ؛ فَتَخَاطَبُهُ
أَبَدًا ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا بِاسْمِ السَّلَفِ . فَخَارَ الْوَزِيرُ لَذَلِكَ ، وَعَمِلَ عَلَى طَلْبِهِ
وَطَلَبِ أُمِّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، فَمَنْ نَقَمُوا عَلَى مَّاكْسَنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا
ذِكْرَهُ . وَأُغْرِيَ بِهِمْ حَتَّى جَعَلَتْهُ الْأَنَفَةُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تُقِلُّ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ
بِقَتْلِ أُمِّهِ وَدَايَاتِهِ وَبَعْضٍ مِنْ ائِمَّتِهِ . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غَدْرًا* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ د)
عَلَى الشَّرَابِ خِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمَنُهُ » .

- وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قتل كل يوم يهوديا ، فيغرم عليه مالا .
- ثم أمر بعد ذلك بنفى ولده . وكان من آكد الأسباب في نفيه أن خرج السلطان يوما لمرض الأجناد ، وقت الفتنه مع ابن صمادح ؛ فالتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تقدم علينا العبيد وغيرهم ، وتترك مثل هذا الابن ! أرسله معنا ، وتبعه في كل ميلة ! » يعني ما كسن . فعز ذلك على أبيه ، مع سخطه عليه لما كان يرى منه وقيل إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فلان يخلوه ويقدموا ابنه . وجرع اليهودي لذلك جزعا شديدا وقال : « ما حسبت نفسي في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأعلم السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنفيه عن البلد ، ووجهه معه من عبيده من يخرج به عن نظره كله . ووصى اليهودي — لعنه الله — ذلك ^(١) العبد أن يصل معه إلى موضع سماه بحيث ينفى أمره ، فيضرب فيه عنقه .
- وكان أخونا المعز قد رباه جدّه ، ونال معه الكرام ، وأحبوه في حرمة أبيه . واتفق رأى الجميع مع اليهودي على قتل ما كسن وتولية المعز ، حذرا على أنفسهم من ما كسن أن يثور عليهم ويماقبهم بمحببتهم في [ابن] أخيه وتربيتهم له . فكان من ذلك ما أمْلوه .
- وخرج عمنا على أسوأ حال ، مذعورا ، خائفا ، بعضهم يُشير بقتله ، وبعضهم يأتي إلا لإزاحته عن النظر كله ، حتى صار يبعض الطريق .
٢. وانحل عن عمومته بهلاك اليهودي ، على ما نذكره بعد هذا .

(١) أصل : « لذلك » .

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبّوس

(٢) من موت ابن نَعْرَالَةَ إلى نهايتها

٢٦ — مؤامرة الوزير اليهودي ابن نَعْرَالَةَ

ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإنّ الخنزيرَ — لعنه الله — لما رأى طغيان النساء ، وكلّ فرقة منهنّ
تريد ولاية من تربيّه من أبناء السلطان ، ورأى تغير مولا* عليه وإيمان ٢١
الناية في مطالبتيه والازدياد في جاهه ، لم يجد في الأرض مهزباً ، ولا
وجد إلى التخلص سبيلاً ، وشاور في ذلك مشيخته من ذوى الرأى ؛ فقال
بعضهم : « انتج بنفسك ، وقدم جلّ مالك إلى أى البلاد أحببت ،
تستوطنها غنياً أميناً » فقال : « ذلك ممكنٌ لولا أنّ الرئيس الأجلّ ، إن
أرسل فيّ إلى صاحب تلك الجهة ، يقول : « ذهب وزيرى بأموالى : إمّا أن
تصرفه علىّ ، وإمّا أن أفاتنك ! » أترى أنه يبيع الرئيس عني ؟ هذا
١٠ ما لا يجوز إلّا أن أصير إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما ، ونأمن
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يمكنه إسلامى . وأنا قد وضعتُ في

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فالتقى رأيهم على مخاطبة ابن صمادح ، وأنه الأولى لجيرته وقربه من كلِّ أمرٍ يحتاج إليه فيه .

وأخبرني رسولُ ابن صمادح ابنُ أرقم ، وكان قد تَخَيَّرَوه للرسالة ^(١) حينئذ ، قال : حضرتُ يومًا مع المظفر — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض متنزّهاته والنّايةُ معه ، واليهوديُّ وراءه ، حتى بصر النّاية بحكيم كان للوزير ، يهوديًّا ؛ فأمر ياهاته وإرجاله عن دابّته بحضرة الرئيس ، وتوقّف في ذلك ، وأبلغ في شتم اليهوديِّ ؛ فاستعظم اليهوديُّ ذلك وقال لابن أرقم : « حسبك هذه الإهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كنتم تستطيعون لي على شيء ، وإلا فلا بدّ من التّرامى على غيركم ! » فقال له ابن أرقم : « أنت جديرٌ بالتّثبت في هذا الأمر ! وأيّ ضرورة دفعتك إلينا وببديك الرعايا ، وإليك تُجبي الأموال ؟ والسلطانُ لم يغيّر عليك شيئًا أكثر من هزات هذا المطالب ! فاحتلّ بأن تُصابِرَ الأمور إلى أن يموت الشيخ ، لاسيّا أنه قد أَسَنَ ؛ وتلقَى يدك في حفيذه المُعزِّ ، وتبقى حالّك معه حسب ما كانت مع جدّه ؛ وهو أقربُ إلى السلامة ! » فقال له اليهوديُّ : « كنتُ أفعلُ ذلك لولا أنّ المُعزَّ صغيرُ السنِّ * ، وله أمّهات وطبقات جمّة من النساء والحاشية . فكيف نرجو منهم (ب) ١٥

الفلاح ؟ والحالُ إذ ذاك تكون على أشدّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحّ عندي أن الصبيَّ يحقد على ما قاله الناس من سقَى أبيه . وقد أدّرتُ هذه الوجوه ؛ فلم يتّجه لي منها أمثلُ من التّرامى على المُعتصم ! » فقال ابن أرقم : « دخلتُ على المظفر ، وألقيتُ إليه من الكلام رُموزًا ، وقلتُ له : « أيدك الله ! تيقّظ ! فإنك لم تظنّ في السنِّ ، ولا بلغت فيه مبلغًا يولد عليك الغفلة ٢٠

عن دَوْلَتِكَ ! » رَجَاءٌ مِنِّي أَنْ يَسْتَفْهِمَنِي عَنِ الْكَلَامِ وَأَقْصَى عَلَيْهِ بَعْضَهُ .
 فَعَدَا الْيَهُودِيَّ وَقَالَ لَهُ : « انْهَضْ إِلَى ابْنِ أَرْقَمَ وَقُلْ لَهُ : « لَأَيُّ وَجْهِ
 قَالَ لِي الْآنَ : تَبَقُّظًا ! » وَاسْتَفْهِمَهُ عَنْ ذَلِكَ ! » فَجَاءَنِي الْيَهُودِيُّ وَأَخْبَرَنِي
 بِالْفَضِيَّةِ . فَدَهَشْتُ لَهَا وَمِتُّ ، وَلَمْ أَجِدْ جَوَابًا . فَاتَّهَنَى الْخِنْزِيرُ ، وَخَاطَبَ
 ٥ بِأَمْرِي الْمُعْتَصِمَ وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يُقِمَّ دُنَى عَنِ الرِّسَالَةِ وَيُوجِّهَ فِيهَا مِنْ يَثْقُهُ ؛ فَسَفَرُ
 فِيهَا رَضِيْعَةً وَأَمْرَهُ بِنَسِجِ الْأَمْرِ مَعَهُ ، وَكَيْفَ الْحِيلَةُ فِي تَصْيُرِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِ ،
 وَغَرْنَاظَةُ مَعْدَنِ الْجَيْشِ ، وَفِيهَا مِنْ صِنْهَاجَةٍ مِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ ؟ وَقَالَ
 لَهُ : « لَا تُدْخِلْ نَفْسَكَ وَالْمُعْتَصِمَ فِيمَا لَا يَتِمُّ وَتَقْتَضِحُ فِيهِ مَعَ الْمَظْفَرِ ،
 وَهُوَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْفَتْنَةِ ! وَتَخْزِي مَعَهُ ، وَتَكُونُ سَبِيلًا إِلَى
 ١٠ هَلَاكِ نَفْسِكَ وَالْفَسَادِ عَلَيْهِ ! » فَرَأَى الْخِنْزِيرُ مِنْ رَأْيِهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْبِلَادِ
 كُلَّ مَنْ يَتَوَقَّعُ قِيَامَهُ .

وَتَخَيَّرَ مِنْ كِبَارِ صِنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، الَّذِينَ يَخْشَى مَعْرِفَتَهُمْ ،
 أَقْوَامًا ، وَأَشَارَ عَلَى السُّلْطَانِ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى الْمَاعِزِ الْمَهْمَةِ ، وَصَكَّكَ لَهُمْ بِهَا ،
 وَقَالَ لَهُمْ فِي سِرِّ الْأَمْرِ : « أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ أُخْلِصْتُمْ مَعِي ، وَرَأَيْتُمُونِي !
 ١٥ وَأَرَى مِنْ دَوْلَةِ هَذَا السُّلْطَانِ مَا يَنْبَغِي لَكُمْ لِانْكَارِهِ بِأَنْ يَقْدُمَ عَلَيْكُمْ مِنْ
 لَيْسَ مِنْكُمْ وَلَا شَأْنُهُ شَأْنُكُمْ ، وَتَبْقَى وَلَا يَتُّهُ عَارًا عَلَيْكُمْ وَشَنَارًا مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ؛
 وَقَدْ* نَصَحْتُ السُّلْطَانُ فِي أَمْرِهِ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنِّي ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَى مُضَادَّتِهِ ؛ ٢٢)
 وَالْآنَ أَتَوَقَّعُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَاعِزِ الْفَارِهَةِ أَنْ يَلِيَهَا مِنْ قَبْلِ النَّايَةِ
 مَنْ يَشْقِي بِهِ الْجَمِيعَ ، وَلَا يَقْدِرُ مَعَهُمْ عَلَى إِمْسَاكِ النُّوَلَةِ ، وَتَكُونُ لَهُمُ الصَّوْلَةُ
 ٢٠ عَلَيْنَا ، ثُمَّ لَا مَهْرَبَ إِلَّا إِلَى يَدَيْهِ ، فَإِذَا أَمْسَكْنَا مَعَاظِلَنَا وَكَانَ بَنُو عَمِّكُمْ
 بِالْحَضْرَةِ ، يَتَجَسَّرُ عَلَى تَبْدِيدِكُمْ ، وَكَانَ أَمْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْئًا ، مَتَى أَرَادَ التَّغْيِيرَ ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بتنقيهِ على يديه ، لَجَأَ إلى مَعْقِلِ صاحِبِهِ .

فقبل القومُ قَوْلَهُ ، مع شَرهِهِم إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك . فأخرج يحيى بن يفران إلى مدينة المنكب ، ومُسَكَّن بن حبوس المَغْرَالِيَّ إلى جِيَّان ، وَمَنْ سِوَاهُم إلى غيرها من القواعد . وزَيْنُ للسلطان أن ذلك من وَجْهِ النَّظَرِ له ، وأنه لا يحى القواعد إِلَّا كبار الرجال ، وأن للمعزولين قد صَحَّ عنده غفلَتُهُم وتَضْيِيعُهُم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه المَشَايِهِ ، لِيُثَبِّتَهُ بِهِ .

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخْبِرُهُ بخروج القَوْمِ الغَوَّاءِ من المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَهُ له ، ويحصدُهم سَتِيقُهُ إذا دَخَلَهَا ، وأنه مَسَّيٌّ لَفَتْحِ أبوابِها متى جسر وطرقها ؛ وَضِيعُ النَّظَرِ في سائر الحصون غير القواعد ، وأَهْمَل ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه الغفلة ، حتى خَلَّتْ .

والمُظَفَّر ، في هذا كُلِّهِ ، لا خَبَرَ عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة . فلما خَلَّت المعاقِل ، وصَحَّ عند أهلها ، يَاهِلُهُم واحتجبِ السلطان عنهم ، أنه قد مات لا سَحَالَةً ، تصايَحَتْ بعضها لبعض ، وَخَلَّتْ بأقطارها ؛ وافتَرَصَهَا رجالُ ابن صُمَادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْنُ قَبْرِيَّةَ ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح ، يُلحُّ* عليه في الإقبال إلى ٢٢ (ب)

٢٠ المدينة ، وأن لا مانِعَ يمنعه . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِح ، وجزع من الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسع اتَّخَرَقُ وتَمَادَى النفاق ؛ وصار

اليهودي مُتَنَقِّلًا من داره إلى القَصْبَةِ حِذْرًا من العَامَّةِ ، حتى يَتِمَّ ما أُمِّلَ ؛
فَأَتَكَرَ ذَلِكَ النَّاسُ ، مع بُذْيَانِهِ لِحِصْنِ الْحُمْرَاءِ عَلَى أَنَّهُ ، إِذَا دَخَلَ ابْنُ
صُمَادِحِ الْبَلَدِ ، صار هو بِأَهْلِهِ إِلَيْهَا ، إِلَى أَنْ تَتَوَطَّدَ الْحَالُ . فَأَنْفَتِ الْعَامَّةُ
وَالْخَاصَّةُ لِمَكْرِ الْيَهُودِ وما اشتهروا به من تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ ، ورَأَوْا من الرُّتَبِ
خِلَافَ ما عَهَدُوا .

وَالَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِعَشْرِ خَلَوْنٍ مِنْ صَتَرٍ
[مِنْ سَنَةِ ٤٥٩] ، اسْتَعْمَلَ الْيَهُودِيُّ الشَّرَابَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مع أَقْوَامٍ مِنْ
عَبِيدِ الْمُظْفَرِّ ، كَانُوا قَدْ عَاقَدُوهُ وَاتَّقَوْا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَأُهُ ؛
فَأَغْلَمَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُمَادِحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوَغٌ لَهُمْ مِنَ الْقُرَى فُلَانَةٌ
وَفُلَانَةٌ مِنْ فَخْصِ غِرْنَاطَةِ ؛ فَاتَدَبَّ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بُغْضَهُ ،
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيكَ هَذِهِ الْإِنْزَالَاتِ ،
أَهْوَى مَوْلَانَا حَيْثُ أَوْ مَيَّتْ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْيَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَ عَلَى
قَوْلِهِ ؛ فَأَنْفَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِ [وَهُوَ] سَكْرَانٌ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالْمُظْفَرِّ قَدْ غَدَرَهُ الْيَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُمَادِحِ
دَاخِلٌ فِي الْبَلَدِ ! » فَتَسَامَعَ لَذَلِكَ النَّاسُ أَجْمَعُ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَتَحَيَّلَ عَلَى الْمُظْفَرِّ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَيْثُ ! » وَرَامَ الرَّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ
عَلَى الرَّاقِعِ . وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ الْعَامَّةُ حَتَّى
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالْبَلَدِ ، وَحَصَلُوا عَلَى
عِظَائِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .

وَاسْتَأْصَدَتْ إِذْ ذَاكَ صِنْهَاجَةً ، وَطَفَنُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرَّئِيسِ ، مع الْفِتْنَةِ

- المُطَفَّر* عليه من كل قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي^(١) الدولة ؛ ٢٣ (١)
- والمُطَفَّر من هذا كَلِّه تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيء من دواخله ، ولا صدق قولهم عليه ،
وسائر أمره معهم بالمدارة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت
طاعته إليه بما نَحْنُ نذكره^(٢) بعد هذا إن شاء الله .
- ولما مضى مُسَكِّن إلى جَيَّان ، على ما قدَّمنا ذِكره ، أَلْقَى في طريقه
عَمَّنًا ما كَسَن ، يحمله الصَّقِيلُ ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جَيَّان ، وقال :
« لا فائدة أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريدُه
من مُلْكِ جَيَّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناس ، ونحصل على عظامهم ! »
١٠ كالذي كان . فَوَلَّى جَيَّان باسمِهِ ، وصار حاكمها مع بني عمِّه . وحصل
إذذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصَّل . وبقي ثائراً على أفضل حال .

٢٧ — الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش

من أيدي ابن صُمَاح

- وإنَّ المُطَفَّر ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ الصَّدُو وطَمَعِ الناس فيه ،
وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ
١٥ وادي آش ، وتصيرها إلى ابن صُمَاح ، واستحوذِهِ على أنظارنا ؟ »
فأجابه قوادِه وجملةُ رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلَّا أن تبذل الأموال ،
وتترك الدَّعة ، وتُباشِر الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مثلي ومثلُ ابن
صُمَاح كمثل القُبعة التي كان يلزأها عشُّ إوزة ؛ فأعجبها بيضُها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنَّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ! » فلما رامت ذلك ، هَجَزَتْ وقصُرَتْ جَنَاحَاهَا عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدَتْهَا قد فسَدَتْ . وكذلك ابن صَادِح : تمدَّى على بلدى ، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديماً بيده ! « قَوَّيْتُ نفوسُ الناس ، وادَّرَعُ الحَرَمُ والعَزَمُ ؛ وتأهَّبَ للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [وفرَّق] فيهم العطايا . ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَهَا .

وكان في أوَّلِ الفتنَةِ ، للذى* رأى من قيام رعيَّته وخشى خلاف ٢٣ (ر) الجميع ، قد وجَّه لابن ذى النون ، صَاحِبِ طَلَيْطَلَةَ ، يعلمه بما دهمه من الأمر ، ويسأله صِلَةَ يده به ، وأَنَّهُ ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختار ؛ فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ، وهو على وادى آش قد حاصَرَهَا وقَرُبَ مَرَامُهَا ؛ واجتمع معه إلى أَتَجَلِ هيئة وأتمَّ رتبة . وفي قَصَبَةِ وادى آش ذلك الوقتَ وزراء صاحبِ المَرِيَّةِ وأكابرُ رجالِهِ . فاشتدَّ عليها الحربُ ، وكَثُرَ الإنفاقُ ، حتى إنَّه انتهت النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخطِّ يد جدِّى — رحمه الله — ستَّةَ بيوت من لئالِ دَرَاهِمِ ثُلُثِيَّةٍ ، البيتُ منها ألفُ دينارٍ ثُلُثِيَّةٍ . وصار ذلك مثلاً في الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى مَنْ بالقَصَبَةِ من أكابرِ أهلِ المَرِيَّةِ ما دهمهم ، وأَنَّهُ لا مَلْجَأَ لهم إلا الحربُ أو السَّيْفُ ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تَحَيَّلُوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون ، وهُمُ على الهلكة ، يعلمونه بما هم فيه وقَطَعَ رجالُهم عن إمدادِ صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسَّطَ أمرهم مع المَظْفَرِ ، ويأخذَ لهم العَفْوَ ، ويخرجُهم على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يُصَيِّرُوا

العرية ملكه . وكان ابن ذى النون من الطمع في غاية لم يفتحه إليها ملك ؛ فطمع في قولهم ذلك ، وتراعى على جدنا ، ورغب إليه ؛ فأستغفه ، حتى خرجوا وأخلوا له القصة . وثقفها بحياة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وعده ، وقال : « إن الذى أريد من هذه البلاد بسطة . » فلم يكن بدّ للمظفر من إنجاز وعده ، وأمر بإخلاصها له . وتفتحت للحاجب بلاد كثيرة أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صمدح بعد ذلك ، يسأله العفو والإغضاء على ما كان منه ، وأنه لا يتعرض من ذلك شيء لولا اليهودى ، وخوفاً ، إن * أهل (٢٤) (١) البلد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وتراعى على جدنا وأتامه بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويجدد عقداً . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ، عند اجتماعه به ، كان أول ما خاطبه به : ﴿ يا أبانا ! استغفر لنا ذنوبنا ! إنا كُنَّا خاطئين ! ﴾ (١) فأجابه المظفر على البديه : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ! يغفر الله لكم ﴾ (٢) .

٢٨ — الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عباد

١٥

ولما صار إلى المظفر جميع بلاد ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل أخذ لواءى آش قد أخذ مالقة ، وقدمها قبل شغله كله ؛ وكان قائد عسكره إليها تلك السفرة يحيى بن يفران ؛ وكان الرجل من أكابر تلكاتة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة . ولما استأسدَّ صِنْهاجة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، ترأَّسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ ففقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على أنه ، إذا انصرف من فتح مالقة ، أن ينظر في خلمه ، ويشور عليه مع بني عمِّه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدِّنا . فقضى الله تعالى أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الواقعة . فقال عند ذلك المظفر : « أتئنا في يوم واحد فرحتان : أولهما موتُ يحيى ، والأخرى فَتَحُ مالقة ! » ثمَّ نهض على المقام إلى وادي آش ؛ ففعل عليها ما وصَّناه . وكان ابن عبَّاد قد دخل مدينة مالقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القَصبة لِمَا كان فيها من كفاة المغاربة ، وقائدها ذلك الوقت مَخْلُوفُ ابن مَلُول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاتِهِ ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبراً منهم ، وكثرةً بقيّاً ، وأنفةً من كشفِ حرمة الذين كانوا بالقَصبة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عبَّاد ؛ فَمُنِحُوا عليهم الظفر ، ودخلوها عَنوةً .

- ١٥ وكان حصول ابن عبَّاد عليها لَدَاخِلَةٍ* أهلها ومَتِيلِهِمْ إليه ، اختياراً له (٢٤) بـ علينا ، على إحسان المظفر — رحمه الله — إليهم ، وأنه وجدَّهم على أَسْوَأِ حالَةٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحل فقهاءها ومُقرِّبِيها على المطايا ، وأنزلهم على أفضل المراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قَبْلُ في حال قِلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه بما فعلوا . وبعد
- ٢٠ ظفروه بهم ، عفا عن ذلك كُلِّهِ ، وزاد في مَرَاتِبِهِمْ . ولقد اخْتُطِبَ لابن عبَّاد مُدَّةً كونه فيها ؛ وحُكِيَ أَنَّهُ قِيلَ في الخطبة : « اليومَ أَكَمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ «
فلم تعطِ السياسة مُعَاقِبَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً ، وَلَا يَصْحَحُ إِمْسَاكُ
بِلَدَةٍ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

قَرَّرَ مُلْكُ جَدِّنا قَرَارَهُ ، وَجَبَرَ الْأَمْوَالَ ، وَزَادَتْ الْجَبَايَا .

٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها

ولما انصرف من فتيانة^(١) ، غزوته تلك الوادي آشيّة^(٢) ، دعا بقائده [الناية
وعبد الله بن القروى*] ، وكانا على المسكر مُدَّةَ فِتْنَةٍ وادى آش ؛ وامتنح
على أموالهم أين أنشقت : أكانت في واجب أم زيفت ، لِمَا استعظم من
النفقة ؛ وجمع القائدين والكتبة ، وكشف على ذلك غاية الكشف .
وكان الناية من أهل التجربة والفكرة في العاقبة ، قد عمل هذا الحساب ،
وأخرج منه نفسه : فمضى وردت أموال من غرناطة للعطاء ، يتحرى عنها ،
ولا يقبض منها شيئاً ، ويقول للذي يأتي بها : « احملها إلى خباء الشيخ
عبد الله بن القروى* ؛ فهو أعلم بما يصنع ، وهو أسن وأدرب ۖ ا » فاحتجج
الناية بهذا الفعل عند المظفر ، وأتى على ذلك بالبزهاج ، وتبرأ منها .

١٥ وغضب الحاجب على عبد الله ساعته ، وأمر بنفيه .

وكان أكثر الجند يشنأ الناية على ما وصفتها ، ويؤثر عبد الله لترابته^(٣)
معهم ؛ فشق ذلك عليهم ، وأدركهم من الأتفة أن خرجوا كلهم حرمة
في عبد الله ، وأخلوا* عليه المحلة . وزال عنهم أكابر صنهاجة أجمع ؛ ٢٥ (١)

(١) أصل : « فتيانه » ، وهو تصحيف .

(٢) أصل : « الواشية » .

(٣) أصل : « لترتيبه » .

- فلم يصبح الحاجب بِفَتْيَانَةٍ مِنْهُمْ مَعَهُ أَحَدٌ ؛ وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ يَرْغَبُ إِلَيْهِمْ ، وَيَفْزَعُونَهُ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ . فَأَتَى إِلَيْهِ النَّايَةُ بِرَعْدٍ قَرَقًا ، وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ .
- قَالَ الْمُظَفَّرُ فِي نَفْسِهِ : « لَا خَيْرَ لِي فِي رَدِّ هَؤُلَاءِ ! فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ طَغْيَانًا ، وَتَجْرُئُهُمُ الْعَادَةَ ، مَتَى أَحْبَبُوا الْخِلَافَ ، عَلَى أَنْ يَمْتَثِلُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ .
- ٥ وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى إِسْأَلِهِمْ ، وَفِي مُضِيِّهِمُ الْغَنِيمَةُ وَالرَّاحَةُ ! » فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ؛ فَصَارُوا فِرَقًا وَأَشْتَاتًا ، مِنْهُمْ مَنْ مَضَى إِلَى جَيَّانَ يَرِيدُ مُسْكِنًا ابْنَ عَمِّهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى غِرْنَاةٍ عَلَى خَفَاءٍ ، يُرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجُلَّةِ .
- وَأَقْلَعَ الْمُظَفَّرُ عَنْ فِتْيَانَةٍ وَأَتَى غِرْنَاةَ ، لَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،
- ١٠ وَلَا عَدَمُ جُنْدًا . وَاسْتَوَزَرَ النَّايَةَ ، وَبَقِيَ عَلَى الدَّعَةِ وَالتَّمَكُّنِ دَهْرًا طَوِيلًا .

٣٠ — اسْتِيْلَاءُ بَادِيسَ عَلَى مَدِينَةِ جَيَّانَ

- وَلَمَّا تِمَكَّنَ مَاكْسَنُ مِنْ جَيَّانَ ، وَثَارَ مَعَهُ مُسْكِنٌ مَعَ بَنِي عَمِّهِ ، أَقْلَقَ ذَلِكَ جَدَّنَا ؛ وَخَافَ النَّايَةَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَجَزَعُ مِنْ أَنْ يَتَّفِقَ مَنْ هُنَاكَ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ وَسَائِرِ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ بِغِرْنَاةَ ، وَيَقْتُلُوهُ ، وَيَسْعُوا فِي وِلَايَةِ مَاكْسَنَ . وَلَمْ يَرَّ الْمُظَفَّرُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لِمَفَاتِنَتِهِ وَجْهًا ، وَإِنْ مُسَايَرَتَهُ وَمُدَارَاتِهِ أَوْلَى ، وَإِنْ فِي فِتْنَتِهِ مِنَ الْعَارِ وَسُوءِ الْقَالَةِ أَنْ يُقَالَ : « رَجَعَ الْمُظَفَّرُ يُكَابِدُ فِتْنَةَ ابْنِهِ ، وَإِنْ أَعْيَاهُ أَمْرٌ عَجَزَ ! » فَتَرَكَهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرَأَى أَنَّ السُّنَى عَلَيْهِ بِالْمُدَاخَلَةِ أَوْلَى . وَالنَّسَايَةُ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْذُلُ الْأَمْوَالَ لِلتَّغَارِبَةِ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ إِلَى قَصَبَةِ جَيَّانَ مُتَخَيِّسِينَ مَنْ يُدَاخِلُهُمْ .
- ٢٠

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَ عَمَّنَا مَا كُنْ ، واستبدَّ بالرأى ، وجمع الأموال
 دونه ؛ وصار له مَا كُنْ بمنزلة* البازي الذي يُصَيِّد به ، وما كُنْ لا يقدر ٢٥ (ب)
 على أكثر من الصبر ، إذ لا فِثَّةَ غيرهم ، وقع بتلك الحال لاستنقاذه له
 من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غنيمَةً ، فَضْلًا عن طلب ما سوى
 ذلك . فلم يَزَلْ أبدًا يُدْخِل عليه بالأموال ، حتَّى استمال جميع مَغَارِبَةِ ٥
 القَصَبَةِ . وكان ، مُدَّةَ كونه بجيَّان ، يُخَاطِبُهُ أَقْوَامٌ من صِنهَاجَةٍ في حُبَّتِهِ ،
 ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرًّا وجهرًا ، ويروْنَ ولايته خيرًا من
 تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشَبَّهُهم ؛ قد سَمَوْا من ذلك ، وأشربوا
 الْمُظْفَر من الشَّنَّان والبغضاء ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السَّعَادَةَ وَالْمُدَّةَ
 لم يقطع عليها قاطِعٌ ! والرئيس من هذا كُلِّهِ تحت أمرٍ عظيم ، والناية ١٠
 متوقِّعٌ للقتل مساءً وصباحًا ، تكثرُ عليه الأراجيف مع الساعات ، إلى أن
 نجت تلك المُدَاخَلَةُ : فقام المَغَارِبَةُ بالقَصَبَةِ على مَا كُنْ ، وخرج منها
 فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يلوى على شيء ،
 يطلبون النجاة بمحاشاة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث
 أتوا لما سمعوا النداء بالليل : « لاطاعةَ إِلَّا لِلْمُظْفَرِ ! » وعجَّلَ الحاجبُ ١٥
 بثغاف جيَّان ، واستراح من تلك الفِثَّةِ .

ولقد حُكِيَ عن الْمُظْفَر — رحمه الله — أنه لما تَهَيَّأت له هذه
 السَّعَادَةُ ، رأى النايةَ مهمومًا . فسأله^(١) في ذلك ؛ فقال : « اهتَمَمْتُ
 لخلاص هذه الشرذمة بأرواحهم . ولسنا نأمن شرَّهم في البلاد ! » ومن
 ثَوْرٍ حَيٍّ لَا يُلبَسُ هَرَاكيس ! « واسمُ وَلَدِكَ كبيرٌ ! » فأجابه الْمُظْفَرُ أن ٢٠

(١) أصل : « فقال له في ذلك » .

قال : « الذى حلَّ بهمَّ أشدُّ من القتل ، لخلاصهم ^(١) عن أوطانهم وكشفهم في اتقاهم بأهاليهم إلى من يتولَّى خِدْمَتَهُمْ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ . والموتُ دونَ هذا راحةٌ ! »

فقصد ما كَسَنَ إلى طَلَيْطَلَة ، وصار بها عند ابن ذى النون * مُكْرَمًا ،
 ٥ على حال الجُنْدِيَّة . وتقلبَ مُسَكِّنٌ في البلاد ، يخدمُ الجُنْدِيَّة . وصاروا أباديدَ .

٣١ - استيلاء الناية على ييَاسة

وزاد جَاهُ الناية بقرناطة ، وأخملَ صِنْهاجَةَ ، وأظهر لهم البغض لثقافتهم
 كان بَزْعَمَة على اليهوديَّ وعلى الحاجب في ابنه ؛ واستنصَّ بنى بَرَزَال
 وأخسَنَ إليهم ، وقرَّبهم من نفسه ، وهُمُ كانوا أولياءه ^(٢) وأنصاره ، وبثَّ
 ١٠ فيهم العطايا . وأخذ السلطانُ إلى الراحة .

ثمَّ إنَّه ، لما فُوِّضَ له الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يوثر
 عنه ، في غزو البلاد ومُداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة ييَاسة ،
 وقال للمُظَفَّر : « إنَّ مُداخلةَ بعض أهلها عندي ! » وكانت إذ ذاك لولَد
 مُجَاهِد . فقال له الحاجب : « لا تتمرَّض إليها ، ونَحْنُ في دَعَةٍ ! وكأني
 ١٥ والله أرى تُنفق عليها الأموال ، وتُهْلِك الرجال ، ولا تُحصِّل على فائدٍ ! »
 فألحَّ عليه وزيرُ له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالمسير ، وهَيَّأَ
 معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فَرَامَ من ييَاسة أمرًا عظيمًا : كلُّ ذلك
 يتعذَّر من أمرها ما لا يُرجى به أخذُها ، حتى سُمِّ السلطان النفقة ومنع
 منه المال .

(٢) أصل : « أوليائه » .

(١) أصل : « خلاصهم » .

- وكان في المجلس ممن يطالبه بذلك رجلٌ كاتبٌ للمظفر يُعرف بابن أضحى ، ويقول للحاجب : « لم تقيم بياسة وعشرة أمثالها ببعض هذه النفقات التي كُنتَ عنها في غنى ! » وكلُّ ذلك يتصل بالناية ؛ فيُخرج الغابر ، ويغني الأغنام ، ويوجهُ بها إلى مولاة ليخبرَ منها بعض نفقاته ؛ فكان ابن أضحى يبيعها بيخسٍ من الثمن ، ويحضر المال بين يديه ، ويقول له : « أين هذا مما أنفقت ؟ » فيخرج أخلاق المظفر عليه ؛ فيصبر عليها الناية ؛ واستسلف طعاماً كثيراً من شيوخ جيان . وكان بانياً على أنه ، إن لم يقدر فيها على شيء ، أن يكون ذلك طريقه فاراً ، لا ينصرف إلى غرناطة ، إلى أن استفتحها بكثرة المؤاظبة والملازمة ، وكانت عليه الصولة على مطالبه بذلك . ودخل * المدينة في عزّة ورفعة وإكرام من السلطان جسيم ، مهّداً ٢٦ (ب) لمن طالبه ، ومستطيلاً بذلك معلنًا .
- وقدم إلى المظفر يقول له : « لا أدخل البلد حتى تأمر بنفي ابن أضحى أو أنصرف من مكاني هذا ! » فرأى الحاجب أن ننفي ابن أضحى أوّل من فساد عسكره . فأمر بنفيه ، بعد تغريمه وإهانتِهِ . وخرج من ذلك الوقت ساعياً على الدولة ومطالباً لها إلى زمان ولايتنا ، حتى أنظرنا الله به ، على ما يأتي ذكره بعد هذا .

٣٢ — مؤامرة ضدّ الناية ومقتله

- وإنّ وزراء الدولة وكثرة عبيدها ، لما بصروا بما فعل الناية ، والزيادة في أمره وجاهه ، وأنّه هو الحاكمُ دون السلطان ، حتى قالوا إنّ طامعاً بالرياسة والقيام مع بني يرزّال ، وشنع ذلك عليه ، أدركتهم منه أنفة ٢٠

عظيمة وحسد شنيع . فاتفق رأيهم أجمع ، أفني ولاية البلاد : منهم ولد القاضي ، صاحب باغته وابن يعيش ، صاحب قبرة ، وواصل ، صاحب وادي آش ، والقاضي ابن الحسن الثبائي بمالقه ، أنه متى قدم إحدى هذه الجهات ، قتل فيها ، وأرميل في ما كنن — وقدم — أراد والله أم لم يُرد .

ثم إن النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكروا في العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصل العليج بوادي آش ؛ [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظن بهم : فإن عاقب عاقب غلامه وتبرأوا من ذلك . فوعد واصل المذكور على ذلك بالوزارة مكانه ، وضمنوا له توظيفهم للأمر عند السلطان ، حتى تهيأ ذلك في دماغ العليج ، واستعد لقتله ، إلى أن حدث بوادي آش أمر لم يكن مبدئاً للسلطان أن يرسل وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فنهض في آنحس وقت وأشر قدر . وكان واصل هذا المذكور من أكبر صنائع الناية ، وممن أطباء بإحسانه ، وشرقه عند السلطان ، ورفضه من الخضيض . ففشا الأمر عند الناس قبل ذلك أن واصل عازم على قتل الناية .

وحي لي إنسان من البرير ، قال : « نصحتك بذلك وحذرتك أن لا ينهض إليه ، وأن مثله لا ينزل في داره ؛ فكان من جوابه : « تريدون أن تنزعوا الريب من أنفسكم وتردوها على أصدق الناس إلى ! » فلما توجه إلى وادي آش ، ونزل في منزل واصل ، أظهر له إكراماً وتبجلاً لم يكن عليه قبل ، حتى اطمأن ، وانصرف عنه أعوانه . ولما دخل الليل في جنه ، أتاه واصل برمحه ، وهو سكران ؛ فضربه ضربة أفند بها ، حتى أثرت الضربة في الحائط ؛ وقطع رأسه وطوَّفه صبيحة الليلة [بأزقة مدية وادي آش

- ومُنَادٍ ينادى [: « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »
 فورد الخبر فجأةً بغرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يَدْرِ أَحَدٌ من حيث
 أُتِيَ ، فَنَهَمَ من يقول : « السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لتلك المَلِج أن
 يتعدَّى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعَلِمَ أن هذا من اتِّفَاق
 ٥ عايبه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لدَّته . وأظهر للناس
 تجلُّداً ، وهدَّده الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمره بالقدوم عليه ،
 ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرىَّ كيفية الحال ، وينظر
 لها على مهل . فزاد بذلك العِلْجُ حاقةً ، وقال مُعَلِّناً : « لم أدْخِلْ يدي في
 هذه القضية وحدي ، حتى يساعدني عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! »
 ١٠ وأتى مُشترطاً للوزارة . وكَلَّمَ وَلَدُ القاضى المظفر في أمره وقال له : « إنَّ هذا
 العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإنما فعل حُبّاً منه فيك ورغبةً في
 قُرْبك ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيَّتكَ ! » وجعل [أهل] الدولة يعتنون به
 ويسألون العفو له . فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه ، وأيقنَ أنَّ هذه النّصبة
 لم تكن إلّا عن اتِّفَاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فإِنَّه ، ساعةً
 ١٥ ما قُتِلَ النّاية ، أُرْسِلَ عن ما كَسَنَ إلى طُلَيْطُلَة ، ووُجِّهَ* إليه بخاتم النّاية ٢٧ (ب)
 كَتَبَ يتحقَّق قتله ، وقيل له : « ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصدُّك ! »
 إلّا أنه لم يتجاسر حتى يَرى إلى ما تووُل الأحوالُ . فكظّم الحاجب هذا
 في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارى جميعهم ، وصوّبَ فعلَ واصلٍ ، وقال :
 « هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينقذني منها إلا إطفائها والنظر لها على سَعَةٍ ! »
 ٢٠ وأمرَ بتقديم واصلٍ على الخليل .

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة

واتفق رأي الجميع ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدخَلَ عليه
ابنته ، ويُخلع من أجله على كل حال . فلما رأى المظفر اتفاقهم عليه ،
وأحسن بهذه المصائب ، ولم يَرِ لنفسه مع من يستريح ، أرسل في أبي الربيع
النصراني ، وكان فيما مضى كاتبَ حشم ، قد عرف خدمة اليهودي وتصرّف
معه ؛ فأرسل عنه سرّاً ؛ وأتت كُتُبُه قبل ذلك ، فراجعَ عنها بخطّ يده .
فكان ذلك زيادةً في الشرِّ وخيالِ الدولة . فلما أحسن بهذا ولّد القاضي
صاحبُ باغِه ، شافَةَ المظفرَ في الأمر وقال له : « إن كنتَ تعزم على
أبي الربيع ، فنحنُ لا نبقى معك ، ولا ياتوى أحدٌ حوائيك ! » فأجابه :
« ألا أبقى اللهُ منكم أحداً ! » وضيّع الحزم في هذا ، لا سيما أنه قد علِمَ
أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئاً ؛ فعمِلت في نفس صاحب باغِه وأهل
الدولة ، وتغيّرت الأُفُس ، وكثر الإرجاف . واتفق مع صاحب قَبْرَة ،
وكان صديقه قديماً ، إلى أن ورد أبو الربيع .

فاستراح إليه المظفر على المقام ، وأعلمه بما حلَّ به . وأتام المذكورُ من
دانية ، إذ كان بها من وقت قتل اليهودي . فقال له أبو الربيع : « قد أيقنتُ
أنهم أرسلوا عن ابنك ، ولا يختلف عليه . ولا قدرة بك على مُكابرة العائمة
والخاصة ! فالرأي في ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر ، وتوجّه في ابنك ، وتكتبَ
إليه بخطّ يدك بالغو عنه وإيثارك له على كلِّ والٍ لم يصالح لك ، وأنتك
مقدّمه* لولايتك ومورثه مُلكك . فإنك ، إن فعلت ، هدّنت قلوبَ هذا العالم (٢٨)
وتقبّلت مسرّهم^(١) . فإذا وصل ولدك بين يديك ، كنتَ في أمره بالخيار ،

(١) أصل : « سارم » .

وتخذمت قصته على سعة : فمكابدته ، وهو معك ، خيرٌ من مكابدة شره مع بعده ! ولست تأمن مكره حيث ما توجه ! »

فرضى المظفر ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه قصباً كبيراً من قصبائه يؤمنه ويوطئه ، ويبشره بمذهب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس في الدولة من بنيه من يرجي لهذا الأمر سواه ، وكتب إلى ابن ذى النون يرغب في تسريحه إليه . فسر بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسهم عما كانت عليه ، وطفف العالم في محبة ما كسن ، ورجوا الخير معه ، إلى أن ورد في أنحس طالع وأنكد جد .

فأنسه أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصيه بوصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضره وانصراف نفوس الناس عنه . فأول ما أمره به بالشدة والفظاعة ، وبغض إليه صنهاجة ، وقال له : « أنت تعلم ما شقيت أنا بهم بعد حبوس ! فصل عليهم ليهابوك ، وليس في الدولة غيرك إلا بنى أخيك : فهم أطفال صغار ! » وكان ما كسن من السفه وعجز الرأي وقلة الفطنة بحيث لم يخف على أحد . فزاد على ذلك أضعافاً مضاعفة . ووافق سوء طبعه مقالة أبيه ؛ فتحكم الشر فيه ، ولم يقدم شيئاً على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوس العالم فيه إلى البغضة ، وتبين لهم من قلة عقله ؛ وأجمع * الكل على ألا خير فيه يرجي .

٢٨ (ب)

وكانت بنت عمه أم الملو طامعة بزواجه ؛ وكانت مطاعة في قومها : قد استمالت أكثر نساء الجند ؛ فأول ما ابتدا بهجيتها وشتمها ، وأنها فيما يزعم لا تصلح له . فزاد ذلك في نحسه والسنى بكل وجه عليه . وكانت كريمة

المُظَفَّرُ الساعية في خبره بعد سعيها في قتل أمه ، قد أغارت من أن يكون ما كَسَنَ يزوج بنت عمه ، حِذْراً منها أن تجعل منها حاشيةً وتمنع حرمتَه . وانتَهَى من ذلك واصلَ وامرأته ؛ فقال^(١) لها : « أَيْ فائدة لك في زواج أمِّ العُلُو؟ لكنَّ الأولى بِكَ أن تعطيه صبيّةً من تربيّتك ، تكونين^(٢) من أجلها حاكّةً على داره ! » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصوّرت عند السلطان أنها تُوفّيَت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسمِ أخرى ماتت عندها .

وشقَّ على بنت عمه ذلك كلّهُ ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل المذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا أردتِ الانفراد بما كَسَنَ ، فما حمل امرأة الصلج على السكنى معه ؟ » فمُنِعَت الدخول إلى داره ؛ فأفت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلٌ يُوَثِّرُ عليها صبيّةً كانت لها ، ويُوَثِّدُها من أجلها . فاجتمع على المرأة الفيرة والأُنفة لما طُرِدَت عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني : وقالت له : « أنا أمةُ المُظَفَّرِ : فليَنظُرْ من نفسه ! فإنَّ الاتفاقَ عليه على وجه كذا وكذا ! » وبيّنت جميع ما راموا من غدره . فأبى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظرُ كيف تبتدى سعادتك في تشيت هؤلاء القوم ! أخبرني امرأة واصل بكذا وكذا ! ألم أقل لك^(٣) ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إلى هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن حبوس جد المؤلف .

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ — رفض مطالب الفونش السادس واشترائه

مع ابن عمار

[..... وأما] * الفونش ، لما تيقن هذه الفتن ، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ (١) ٢٩

من أكبر سعادته وأعظم فرجه في طلب الأموال . فَأَرْسَلَ إلينا رسوله :
أَوَّلَ مُدَاخَلَةٍ نَشَأَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ فَأَتَى بَاطِرُ شَوْلِسٍ يَطْلُبُ مِنَّا ضَرِيَّتَهُ .
فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنَّ لَا نَفْعَ ، وَأَنَّ ضَرَرَ الْفُونْشُ لَا يُخْشَى
وَعَبْرُنَا أَمَانَنَا ، نَعْنَى بِذَلِكَ ابْنُ ذِي الثُّونِ . وَلَمْ نَقَسْ أَنَّ أَحَدًا يُعَاقِدُهُ
عَلَى مُسْلِمٍ . فَانصَرَفَ عَنَّا دُونَ عَمَلٍ .

وإنَّ ابْنَ عَمَّارٍ انْتَهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ وَكَانَ مُنْتَظِرًا لَهُ بِبَاغِهِ ، مُرْتَقِبًا
لِمَا يَصْنَعُ مَعَنَا . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ ، أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ
وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُمْ ^(١) مُنْتَعِمُونَ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وهي التي سأل عن
ضَرِيَّتِهِ) ، فَتَحْنُ نَمْطِيكُمْ خَمْسِينَ أَلْفًا ، عَلَى أَنَّ مُعَاقِدَكُمْ عَلَى غَرَّ نَاطَةٍ :

(١) أصل : « إِنْ كَانَ مِنْكُمْ » .

تمطونا القاعدة ، ولكم ما فيها من الأموال ١ « فمأقذوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة مَقْلًا يَضِيقُ عليها حتى تلقى يدها . وكان ابن أضحى ، للذكور قبل هذا — هو المخرج على يدى الناية — قد انحاش إليهم ، يدلُّ بهم على عورات البلدة ، ويريبهم أشدَّ ما يكون عليها من المواضع إن بُني ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حصن بليش .

وأكرى ابن عمار من عسكر ألقوش ما قوى به على البنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يسوفهم فيها تارات ، ويمدُّهم ويخادعهم ، حتى تمَّ البنيان . وجعل المتمدِّد يُحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبداً على مقربة من غرناطة مدَّة كونه ، طمعاً في أن يشومَّ معه أهلُ البلدة . فلما تمَّ بُنيانُه ، قواه بالندب ، واتخذ فيه جميع الأقوات ، وأمرهم بالتضييق . وكانت الحال شديدة ، ونسى به أمرُ القلعة .

وعند انصراف المتمدِّد عنه وعساكر الرُّوم ، عبَّينا عسكراً كثيراً ، ونهضنا إليه ؛ فلم نقدر فيه على شيء . واقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المطالبين عليها مع الروم . ونذمنا على التفريط أولاً في مُعاقدته حسب ما سأل . وكان من أحسن شيء على السلاطين أخذُ مَقْلٍ بالسيف ؛ ٢٩ (ب) فَإِنَّهُ ، متى اعترض ، لم يستطع على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوة تأتية ، فيقلع عنه إلا من كان أقوى . ولم نكن نحن إلا متكافئين في ذلك : متى ما أعطى أحدنا لعسكر مالا ، ٢٠ وأراد الآخر نقضه ، أربى عليه وأراحه منه .

فكانت بليش قد أفسدت ، وضيق على فحص غرناطة ؛ ولم يكف

ما حلَّ من أجلها حتى جعلنا الفؤش أن نُغرم ما فاتهُ مِنّا ، تباعةً وتذنيباً لرَفَضنا إِيَّاهُ ، واستدفاعاً لِمَا يُتَّقَى من تَمَادِيهِ عَلَى الطَّلَب . وابنُ ذى النون فى هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى فى تصيير المال إليه ، يرضيه بذلك وينتظرُ فسادَ مَمْلَكَتِنا ، فيفتَرِصُها هو أو يأخذُ منها حصَّته .
 ٥ فكان — على ما قدَّمنا ذِكْرَه — عدواً فى الباطن ، صديقاً فى الظاهر . وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قُرْطُبَةَ ، ويسعى جهده فيها ، إلى أن قدَّر الله ، وافترَصها غُدْراً بِمُدَاخَلَةٍ من بعض أهلها مَن لا خَطَرَ له . واستُشْهِدَ فيها ابنُه عَبَّاد [بن المُعْتَمِد] وقائده ابنُ مَرْتِين .

فلما انقضت بقرطبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ بِلَيْش ، أخلَوْها على اللقَام ؛ ودخلها رجالُنا ، وصارت فى مِلْكنا مُشِيدَةً مَبْنِيَّةً . فنظرنا منها بالذى نصنع بقصبة غرناطة . وتروَّح نُحَنِّقُها من حيث لم يُحْتَسَبُ .
 ١٠

٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمَادِح صاحب المَرِيَّة

وكان قائداً مدينة بَسْطَةَ ابنُ مَلْحَانَ ، رَجُلٌ مُعْجَبٌ ، قد شَرِهَتْ نفسه إلى رُتَبِ الملوك . وكان المظفر — رحمه الله — قد فوّض إليه أمرَ البلدة عِيَوْضاً من أبيه . فلما صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراءُ الوَزَرَاءِ ، جعل كلُّ واحد منهم يطلبه بمال ، ويسأله مُتَاحَفَات : فن لم يعطِهِ ، طالِبُهُ وأَذَاهُ ، مع صغر سُنَّنا ؛ فلم يجدْ سبيلاً إلى الدِّفاع عن نفسه ، ولا شكوى لمن يذُبُّ عنه ويحميه . فتراعى على ابن صُمَادِح وقبلة ؛ وصارت البلدةُ إليه ؛ وعَلِمَ أَنَّهُ لا يُفَاتِنَ طولَ مدَّةِ الفِتْنَةِ مع ابنِ عَبَّاد .
 ١٥

ثمَّ إِنَّهُ غَدَرَ* حِصْنَ شَيْلَش ؛ ونحن ، فى ذلك كلِّه ، لا نفتر عن مُخَازَنَةِ ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أفلج من معاقله ما وقعت
المعاوضة به من شيلش . وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى نرى
ما نصنع مع ابن عباد .

٣٦ — مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة

واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه .

وبقى ابن عمّار مرتين بما جعل على نفسه للنصراني من كراء بليش
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُهَا لَهُ ، وَيَعِدُّهُ بِهَا . وَأَدْخَلَ سُلْطَانَهُ
من ذلك في تشييب ، لَأَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ يَخْلُدُ إِلَى رَاحَةٍ لِكَيْ
يحتاج إليه في تلك الفتننة لا يقرُّ عن إدخال ضررٍ على المسلمين . ومضى
١٠ ما كان الْمُعْتَمِدُ يسعى في تهدين الأمر ، ونومٍ معه الصلح ، أو تنشأ
مهادنة ، لا ينامُ في نَقْضِهَا وإشغال نار الفتنة .

فساد ثانية إلى النصراني ألفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصوّرنا
عنده في صورة مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ من أجل الضعف وسنّ الصبا ،
وَأَنَّهُ ضَامِنٌ لَهُ أَمْوَالُ غَرْنَاطَةِ لِتَصِيرُ إِلَيْهِ بِأَسْرَها ، عَلَى أَنْ يُعَاقِدَهُ ،
١٥ إِذْ تَمَكَّنَ مِنَ الْبَلَدِ ، أَنْ يَجْعَلَهَا مُلْكَهُ ، وَلَهُ مَا لَقِيَ مِنْ أَمْوَالِنَا . وَأَلْقَى
يَدَهُ فِي أَلْفُونَشٍ ، عَازِماً عَلَيْهِ فِي الْإِقْبَالِ إِلَيْهَا ، وَأَعْطَى عَلَى ذَلِكَ أَمْوَالاً
جسيمة ، ووعدته بخمسين ألف مِثْقَالٍ إِذَا تَمَّتِ الْقَضِيَّةُ ، سَيُعْطِيهَا زَائِدَةً عَلَى
مَا يَجِدُ ، لِمُسَاعَدَتِهِ عَلَى السَّيْرِ .

فَأَدْرَكَ الرُّومِيُّ مِنْ ذَلِكَ طَمَعٌ كَبِيرٌ ، وَقَالَ : « هَذِهِ نَصْبَةٌ لَسْتُ
٢٠ أَخْلُو فِيهَا مِنْ فَائِدَةٍ ، وَإِنْ لَمْ تَحْصَلِ الْبَلَدُ ! وَأَيُّ فَائِدَةٍ لِي فِي إِعْطَاءِ

بلقة من واحدٍ لآخرٍ إِلَّا تَقْوِيَّتُهُ عَلَى نَفْسِي ؟ وَكَلَّمَا أَكْثَرَ الثَّوَارُ ، وَوَقَعَ
 بَيْنَهُمُ التَّنَافُسُ ، كَانَ لِي أَفْعَدَا « فَأَتَى عَلَى نَيْتَةٍ أَخَذَ مَالِ الْفَرِيقَيْنِ ،
 يَكْسِرُ رُؤُوسَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . وَلَا كَانَ أَيْضًا فِي أَمَلِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْبِلَادَ
 لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ فِي ذَلِكَ حَسَابًا أَنْ قَالَ : « إِنَّا مِنْ غَيْرِ الْمِلَّةِ ؛ وَكُلُّ
 ٥ النَّاسِ يَشْتَأِي ؛ فَبِأَيِّ وَجْهِ أَطْمَعُ فِي أَخْذِهَا ؟ إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الطَّاعَةِ ،
 فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقِتَالِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا رِجَالِي * وَتَذْهَبُ ٣٠ (ب)
 أَمْوَالِي ، وَتَكُونُ الْخَسَارَةُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا نَرْجُوهُ إِنْ صَارَتْ إِلَيَّ .
 وَلَوْ صَارَتْ ، لَمْ تَتَمَسَّكَ إِلَّا بِأَهْلِهَا ؛ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ ! وَلَا مِنَ الْمُتَمَكِّنِ
 أَنْ نَسْتَبِيحَ أَهْلَهَا وَنُعَمِّرَهَا بِأَهْلِ مِلَّتِي ! وَلَكِنْ الرَّأْيَ ، كُلَّ الرَّأْيِ ،
 ١٠ تَهْدِيدُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَبَدًا ، حَتَّى تَرَقَّ وَتَضَعُفَ ؛ ثُمَّ
 هِيَ تَلْقَى بِيَدِهَا إِذَا ضَعُفَتْ ، وَتَأْتِي عَفْوًا ، كَالَّذِي جَرَى بِطُلَيْطَلَةَ إِنْمَا
 كَانَ مِنْ قَعْرِ أَهْلِهَا وَتَشْتَتِهِمْ ، مَعَ انْدِبَارِ سُلْطَانِهَا ، وَصَارَتْ إِلَى بِلَا
 مَشَقَّةٍ ! »

وَكُنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ ، عَلَى مَا كَانَ يُخْبِرُ بِهِ وَزَرَؤُهُ . وَلَقَدْ
 ١٥ قَالَ ذَلِكَ شِشْلَانْدُ فِي حَالِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَشَافَهُنَا بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنْمَا
 كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ لِلرُّومِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، حَتَّى غَلِبَهُمُ الْعَرَبُ ، وَالْحَقُّوهُمْ
 بِأَنْحَسِ الْبِقَاعِ : جَلِيْقِيَّةَ ؛ فَهُمْ الْآنَ عِنْدَ التَّمَكُّنِ ، طَامِعِينَ بِأَخْذِ ظُلُمَاتِهِمْ !
 فَلَا يَصْبَحُ ذَلِكَ إِلَّا بِضَعْفِ الْحَالِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَالٌ
 وَلَا رِجَالٌ ، أَخَذْنَاهَا بِلَا تَكَلُّفٍ ! »

٢٠ فَكَانَ الْجَمِيعُ يُسَايِرُ الْأُمُورَ ، وَيُدَافِعُ الْأَيَّامَ ، وَيَقُولُ : « مِنْ هُنَا
 إِلَى أَنْ تَمَّ الْأَمْوَالُ وَتَهْلِكَ الرِّعَايَا بِرُحْمِهِمْ ، يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ ! »

فورد علينا من إقبال ألفونش مع ابن عمّار هَوَلٌ عظيمٌ ، وصحَّ
 عندنا أنه لم يأتِ إلّا طالباً لملكنا : قد استوثق من ألفونش على ماقدونا
 ذِكْرَهُ . ثمَّ أرسل إلينا ينذرُ بإقباله ، ويأمرُنا بالخروج إليه ، يُرى أنه
 يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشكَّ
 ٥ أن ذلك للتقبُّض علينا وإنجاز ما عاهدَ عليهم . فاجتمع علينا أهلُ الرأى
 والمشورة ، وقالوا : « ما الذى تذهب إليه ؟ هذا عدُوٌّ قد جاء لطايبك ،
 ولا قدرة بك على مناواته ! وسواء عليك خَرَجْتَ أم بَقِيتَ ! فإنَّ أنت
 بقيتَ ، حَلَّتْ بك الداهيةُ العظمى ، ووقعت المفسدةُ ، وأصاب مطايبك
 سبيلاً إلى العمل ؛ وتكون هذه أشدَّ من الأولى ، وَتَرَقَضْنَا بَطْرَهُ سُولِس
 ١٠ وألقى ابنُ عمّار يَدَهُ* فيه حتى بَنَى علينا بَيْلِيش . والآن لم يتروَّح مُخْتَفِئاً ٣١ (١)
 حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمرُّ ؛ فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا
 الجيش ، لم تُثَبِّق ولا تَنَذِرْ لشعفة ما قد دَهَوَا به قَبْلَ ، وكان الرجاءُ يقطع ،
 ويتلف الكلُّ حتى تُؤَخَّذَ هُنَا باليدِ على غَيْرِ صَلَاحٍ ، فلا يرقب فينا
 إلّا ولا ذِمَّةً ! فَاخْرُجْ إليه أَيْسَرُ لَأَمْرَيْنِ : فإن كانت سلامة ، شكرتَ
 ١٥ رأيك ، وثبتَ مُلْكُكَ ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجُك عن
 أَمَانٍ ، وصيرتَ حَيْرًا في العاقبة ! فاعزَمِ على لقائِهِ^(١) ، وَقُلْ له قولاً
 لِيُنْفَذَ قَضَاءُهُ .

فاستعدَدنا لذلك جهَدَنَا ، وأَجْمَعْنَا حَوَالَيْنَا مَنْ يَثِقُ به من رجالنا ،
 وَأَخَذْنَا أَهْبَةَ الْحَالِ ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالغنا بالضرورة في
 ٢٠ إِكْرَامِهِ ؛ فَأَعْرَضَ عَلَيْنَا وَجْهًا يَسِيطًا وَخُلُقًا حَسَنًا ، ووَعَدَنَا أَنَّهُ يُجَامِي

(١) أصل : « لقاء » .

عنا كما يُجاي عن بلده .

ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرُّمْلُ مِنَّا إليه ومنه إلينا ، يُبَيِّنُ ما عُوقِدَ عليه وأنه سيقَ سَوْقًا ، ويقول : « إِنِّي قد تَشَبَّثْتُ في الأمر ، ولم تُنَجِّلْ حتى نسمع ما عندكم . فإن جامَلْتُمُونِي ورَأَيْتُمْ لِقَصْدِي وَجْهًا ، انصرفْتُ عنكم على خير ، وإلاَّ ، فما أنا مع من عاقَدَنِي ! » وطلب خمسين ألفَ مِثْقَالٍ .

فشكَّونا إليه قِلَّةَ البلاد ، وأنَّ ذلك لا يقدرُ عليه ، وفيه من القطع لنا ما يَقْتَرِصُنا به ابن عَباد ؛ فإنه ، لو أخذَ غرناطة ، قوى عُنُصْرُهُ ، « ولم يَنْطَعُ إليك . فَخُذْ ما تقدرُ إليه ، واتركْ رَمَقًا لا نَسْتَأْصِلُ من أجله ! وما تركتَ ، تَجِدْه عندنا متى ما طلبت ! » فقبل العُذْرَ بعد جُهدٍ عظيمٍ ، وقاطَعناه لِقَصْدِهِ بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفًا ، نِصْفِ العَدَدِ ؛ ثُمَّ أَعَدَدْنَا له من الفرش والثياب والآنية كثيرًا ، استدفاعًا لشرِّه ؛ وَجَمَعْنَا ذلك كُلَّهُ في خِباءٍ كبير ، ودَعَوْنَاهُ إليه . ولَمَّا رَأَى الثياب اسْتَحَقَّرَهَا ؛ ووقع الاتفاقُ معه على زيادة خمسة آلاف مِثْقَالٍ لِيَتِمَّ بها ثلاثون أَلْفًا ؛ فَأَكَلْنَاهَا له لَيْلًا يَنْفَسِدُ الْأَكْثَرُ عن * الْأَقْلَى . فشكر على ذلك كُلَّهُ ، وطابت عليه نفسه . ١١ (ب)

١٥ ورجع إلى ابن عَمَّار يقول له : « كَذَبْتَ لِي في قولك إنَّ غرناطة في ضَعْفٍ ، وَإِنَّ صَاحِبَهَا من صغر سنِّه لا يعقل ! ورأيتُ من رَتْبَتِهَا وأحوالِها ما خَالَفَ قولكَ ! »

فرجع ابن عَمَّار يسأله أن يعقدَ بَيْنَنَا عَقْدًا يُوقِفُ عنده ، واسْتَمَالَه على أخذِ إِسْطَبَّةٍ من عندنا ؛ وكانت مَتَقِلًّا عَظِيمًا مما يَلِي جِهَاتِ إِشْبِيلِيَّة ، قد كان أَخَذَهُ قَائِدُنَا كِتَابًا في الفِتْنَةِ . وَسَأَلْنَاهُ تَحْنُ خَبَرِ القَلَمَةِ ؛ فوقع الاتفاقُ على أن تكونَ قَلَمَةُ أُسْطَلِيرٍ عِرَاصًا من إِسْطَبَّةٍ . ٢٠

وكانت قاشتُرُهُ وَمَارْتَشُ الْمُتَعَمِّلِينَ الَّذِينَ عَلَى جَيَّانٍ . ومن أَجْلِهْمَا انقطع
صاحِبُهَا عَمَّنَا [مَا كَسَنَ] ولم تكن لجَيَّان مَعْنَى إِلَّا بهما . فترامى ابنُ عَمَّارٍ
في أمرهما على الْفُونَشِ ، وَوَعَدَهُ عَلَى مَارْتَشِ بِأَمْوَالٍ كَأَنَّهُ يَشْتَرِيهَا مِنْهُ .
فَعَزَمَ عَلَيْنَا فِيهَا لِلطَّمَعِ فِي الْمَالِ ، وَوَعَدَنَا نَحْنُ عَلَى قَاشْتُرِهِ بِالْمَطْمَرِ ، وكان
أَيْضًا حِصْنًا قَدْ اشْتَرَكْ نَظَرُهُ مَعَ نَظَرِنَا بِيَدِ ابْنِ ذِي النُّونِ ؛ فَضَمَّنَ خَبْرَهُ
أَنَّهُ بَعِطِيه لَنَا عِوَضًا مِنْهَا ؛ فِدَافَعْنَا الْأَمْرَ جُهْدَنَا ؛ فلم تقدر على أَكْثَرِ فَعَلٍ
الْقَوَى مَعَ الضَّعِيفِ ،

ثُمَّ إِنَّهُ عَقِدَ الْعُقْدُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ لَا يَتَعَدَّى مِنَّا أَحَدٌ عَلَى
صَاحِبِهِ ، وَذَكَرَ فِيهِ مَا نَعطَى كُلَّ عَامٍ مِنَ الضَّرِيَّةِ : فَجَعَلَ عَلَيْنَا عَشْرَةَ
١٠ آلَافٍ مِثْقَالٍ فِي الْعَامِ ، وَطَيَّبَ لَنَا الْكَلَامَ بِأَنْ قَالَ : « طَمَعُ ابْنِ عَمَّارٍ
أَنْ نَقْدِرَ بِكَ ؛ وَمَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشِيعَ فِي الدُّنْيَا أَنَّ مِثْلِي كَبِيرًا فِي
الرُّومِ يَقْصِدُكَ ، وَأَنْتَ كَبِيرٌ فِي جَنْسِكَ ، ثُمَّ نَقْدِرُ بِكَ ! فَاثْبِقْ عَلَى أَمَانٍ !
لَا أَكَلِّفُكَ إِلَّا الضَّرِيَّةَ ، تُوجَّهْ إِلَى بَيْتِهَا فِي كُلِّ عَامٍ دُونَ مَطْلٍ ؛ وَإِنْ
تَأَخَّرْتَ بِهَا ، أَتَاكَ رَسُولِي عَنْهَا وَتَزَامَكَ عَلَيْهِ نَفَقَاتٌ ؛ فَبَادِرْ بِهَا ! »
١٥ فَقَبِلْنَا قَوْلَهُ ، وَرَأَيْنَا إِعْطَاءَ عَشْرَةِ آلَافٍ فِي الْعَامِ نَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ خَيْرًا
مِنْ هَلَاكِ الْمُسْلِمِينَ وَفَسَادِ الْبِلَادِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ بِنَا قُدْرَةً عَلَى مُلَاقَاتِهِ وَمُسْكَابَرَتِهِ ،
وَلَا وَجَدْنَا مِنْ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ عَوْنًا عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ يَسُوقَهُ إِلَيْنَا لِهَلَاكِنَا .
فَبَقِيَتِ الْأُمُورُ عَلَى مُصَالَحَةٍ وَمُهَادَنَةٍ* وَرَفَاهِيَةٍ ، لَا يُسْمَعُ فِيهَا بِفِتْنَةٍ . ٣٢ (١)

٣٧ — اسْتِيلَاءُ الْفُونَشِ السَّادِسُ عَلَى طَلِيْطَلَةَ

٢٠ وَمَا هِيَآءُ اللَّهِ أَنْ فَقَدْنَا وَسَائِلَ السُّوْهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِفَقْدِ ابْنِ عَمَّارٍ ،
وَشُغْلِهِ فِي مُرْسِيَةٍ ، وَبِرُؤَالِ سِمَاجَةَ عَنَّا وَأَشْيَاعِهِ . وَتَوَفَّى قَبْلَ ذَلِكَ ابْنُ

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتججت له ، وخافه
الروساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت .
وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه
وإذا تم شيء ، دنا نقصه .

٥ ثم خلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى ألفونس ؛
فصرفه إليها على قهرٍ وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً ، أشدها
ما جعل على نفسه في شراء حصن من ألفونس على مقربة من طليطلة بمائة
وخسين ألف منقال طيبة وخمسة مئدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه
عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولازمها ألفونس حتى صارت إليه .
١٠ وعوض صاحبها ببكنسية ؛ ولم يعترض له مالا ولا أهلاً غير الذهب والفضة .
وكان حفيد ابن ذى النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على القدر
بوزير جدّه [ابن] الحديدى لسعاية البغاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن
قتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم
وسلطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كذبهم عليه أشد ، وصاروا طالين للنار
١٥ وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارنكى ، وبنو ميث ،
ومن انحاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف
الرأى عمياً عليه وجه الصواب .

٣٨ — استيلاء ابن هود على دانية . بمض أخبار بنى هود

وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بغفلة صاحبها عن الرجال وحبه
٢٠ في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزيره ابن الرثيولة ، الخارج

عنه إلى سَرَقُطَّة ؛ فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل المدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال بوفرها . وكان * ٣٢ (ب) عنده وَلَدٌ مُجَاهِدٌ صَاحِبُ دَارِيَّةٍ مَكْرَمًا حتى مات .

وَإِنَّ ابْنَ هُودٍ ، لَمَّا حَصَلَ عَلَى دَارِيَّةٍ ، انْقَسَدَ طَبْعُهُ ، وَأَدْرَكَتْهُ الرِّغْبَةُ ه في البلاد ، وزال عما كان عليه من جهاد الروم ، وطَمِعَ فِي بَلَنْسِيَّةٍ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَأَعْطَى عَلَيْهَا أَمْوَالًا جَسِيمَةً لِأَلْفُونُشٍ ؛ وَالْفُونُشُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذَكَرَهُ ، يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ ، وَلَا يَحْقُقُ لِأَحَدٍ أَنْ يُهَاوِدَهُ عَلَى أَخْذِ بِلَدَةٍ . فَتَوَفَّى ابْنَ هُودٍ فِي إِثْرِ أَخْذِهِ لِدَارِيَّةٍ وَبُلُوغِهِ آمَالِهِ مِنْهَا . وَقَدْ كَانَ ابْنُ الْخَلَّيَاطِ الْمُنَجِّمُ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ وَلَقَدْ قَرَأْتُهُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْقُضَ ، حَتَّى رَأَيْتُهُ عَيْنًا . ١٠

وَكَانَتْ قَضِيَّتُهُ فِي دَارِيَّةٍ كَقَضِيَّةِ ابْنِ ذِي النُّونِ بِقَرْطَبَةِ : فَإِنَّ ابْنَ هُودٍ اهْتَزَّتْ لَهُ الْأُنْدَلُسُ عِنْدَ حَصُولِهِ عَلَى دَارِيَّةٍ ؛ وَجَزَعَ جَمِيعُ الرُّؤَسَاءِ لِأَخْذِهِ لَهَا دُونَ قِتَالٍ وَلَا زَمَانٍ ، وَأَعَدَّ كُلُّ أَحَدٍ عُدَّةَهُ مُتَاهَبًا لَشَرِّهِ ، إِلَى أَنْ أَرَاخَ اللَّهُ مِنْهُ ، وَقَبِضَهُ عَلَى فِتْنَةٍ وَاقْتِبَالَ أَمَلٍ .

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الْمُؤْتَمِنُ ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى مَاتَ . وَشَعَرَ ١٥ الْمُؤْتَمِنُ لِابْنِ الرُّيُولِ وَزِيرِ أَبِيهِ بِأَعْمَالِ فَاسِدَةٍ مَعَ أَلْفُونُشٍ ، لِيَتَخَذَمَ لَهُ خِدْمَةً ابْنُ عَمَّارٍ ، فَيَرَأْسَ لِنَاكَ عِنْدَهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ خِذْلَانًا وَطَغْيَانًا ؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ . وَتَوَفَّى الْمُؤْتَمِنُ ، وَوَرِثَهُ الْمُسْتَمِينُ حَقِيقُهُ هَذَا الْوَالِي الْآنَ .

وَكَانَ الْمُؤْتَمِنُ رَجُلًا عَالِمًا ، قَدْ طَالَعَ الْكُتُبَ ، مَعَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ ٢٠ الْأَثَارِ ؛ فَرَأَى مَوْتَهُ قَرِيبًا . فَكَانَ لَا يَسِرُّ بِالْمَمْلَكَةِ ، وَيَزْهَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا . وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُ مَنْ حَضَرَ تَجَلِّسَهُ مِنْ أَعْلَامِ جُنْدِهِ أَنَّهُ كَانَ

يُريهم ذخائره التي لم يجمع مثلها عند ملك ؛ فبهتثونه عليها ؛ فيقول لهم :
« ما أصنع بها ، والمدة يسيرة ، ولا أدخل منها قبري إلا بكفن ! »
فكان يكدر قوله ذلك عليهم ، حتى مات .

وكان مُنذِرُ أخوه بدانية ، إلا أن أباه الشيخ لم يُمكنه من مال ،
حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدته وشدة بأسه . فلما توفي المُقتدر ،
اضطربت الفتنة بينهما . وكان مُنذِرُ منهما* يتضعضع له ويتكافى به ، (١) ٣٣
لِمَا كان من إحسانه للأجناد ومواساته لهم ، إلى أن توفي بعد أخيه ؛
وقام ابن له صغير بعده ، يدبرُ مُلكه وزيره .

٣٩ — ثورة ابن عمار على المُعتد بِمُرسية

إلى أن أخرجه منها ابن رَشِيق .

١٠

أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع

وصار ابن عمار في حيز الخلاف على المُعتد ؛ وجعله يطلب مُرسية ،
واعتراه عليها مشقات ونفقات أموال . وجرى من أسر ابن المُعتد عليها
ما قد شهر . وطال مكثه على مُرسية ، يُحزَّب عليها الأحزاب وينفق
الأموال ، يُرى سلطانه أن السعى له ؛ وهو في الباطن يجد لنفسه ،
لكن يتخذها معقلاً يرأس فيه ، كالذي صنع . ولقد كان يقول أهل
العلم بالآثار والتأثير : « إن مُلك بني عباد يتناهى حتى يبلغوا إلى تدمير ،
ومن ثم يثم هلاكهم . وكان الناس إذ ذاك يتوقعون عليه الفساد عند محاولة
ابن عمار لأمرها ؛ فلم يكن إلا بعده مجيء ، عند بلوغ الكتاب أجله .
وصار ابن عمار بِمُرسية بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس ، واستعمال

٢٠

للمعاصي ، والإيمان على الخمر ، حتى أبغضه أهلها . وكان للمعتد طاعة في معصية ؛ واشتهر بأخذ عريضه وهجوه بما قد تزهه الله عنه ، فقل الأوغاد والأرذال .

- وقدم إلى مرسية ابن رشيقي ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشبك عليه المعاقيل بقرابته ، واتخذ لنفسه صنائع مدة غفلة ابن عمار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسية ، يريد لنفسه في رسالة النصراني ليعلم أمر الأنظار التي تجاوره في الشرق ، وعسى يضعها في يديه ، مثل شنت مرية ، ويستعي في إصلاح ما أفسد عليه ابن رشيقي ؛ فإنه لم يجد إليه سبيلا لكليته عليه . ولما نهض إلى القنوش ، فأول ما سمى في تضيير طليطلة إليه بمداخلة أهلها ، ليكونوا حاكين أنفسهم ، ويؤثروا الجزية للنصراني دون رئيس . وأتى طليطلة ، وابن ذى النون فيها باسم الرسالة ، ٢٣ (ب) ووافق على ذلك ، ونحلة القنوش عليها ، في حين صرف حاجيها إليها بعد خلع أهلها له ، لينفي له بوعده ، ثم يمسك عليه القصة ، فيقتل . فشر لنك ، وغلب حفيد ابن ذى النون القشة القائمة عليه . ففر منهم من خلص إلى القنوش ؛ وفر ابن عمار . ١٥

- ولما لم تتم له خدمة القنوش في ذلك ، نهض إلى صاحب سرقسطة ، وتخدم له خبر شقورة (وبها ظفر به ، ووُجّه به إلى المعتد) . فلما ثبت أنه استقر عند ابن هود ، غدره فيها — أعنى مرسية — ابن رشيقي ، مع استمالته لأهل البلدة ؛ واستحسنوا ولايته . ولم تكن لابن عمار بعد ذلك رجعة إلى مرسية ، وصار خادما عند ابن هود صاحب سرقسطة . ولما احتل بذلك القطر ، أضرمه نارا ، وأهاج فيه فتنة ؛ وصار سفيرا ٢٠

لِلْإِفْرَنْجِ . وَآثَرُهُ ابْنُ هُودَ ، وَقَرَّبَهُ ، رَجَاءَ مِنْهُ أَنْ يَنَالَ عَلَى يَدَيْهِ مَا نَالَ الْمُعْتَمِدُ ، لِذَلِكَ قَامَ لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّارُوسِ بِسَعَادَةِ صَاحِبِهِ ، لَا بِأَعْمَالِهِ . وَكَانَتِ الْعِدَاوَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى يَدَيِ الرَّشِيدِ ابْنِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، بِفُسُوقِهِ ، كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَوْلَادِهِ ، وَيَضِيقُ عَلَيْهِمْ ، وَيُسِيءُ الصَّنِيعَةَ ٥
مَعَ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ إِكْرَامُهُ مِنْ قَرَابَةِ سُلْطَانِهِ ؛ وَالْمُعْتَمِدُ ، فِي هَذَا كَلَّهُ ، يَصْبِرُ لَهُ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَمَالَ النَّصَارَى ، وَانْدَخَلَ مَعَهُمْ بِحِيلَةٍ : فَتَقَى مَا دُمَ أَمْرُهُ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَجَهَّهُ إِلَيْهِمْ ؛ فَيَنْجَلِي مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَضِيقُ الصَّدْرَ بِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْوَالِ رَأْسِيهِ وَسَعَادَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ يَجْهَلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِسَبَبِهِ ، وَيَرُدُّ الْحَسَّ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَانَتِ هَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا أَحْنَقَ عَلَيْهِ الْمُعْتَمِدُ ، حَتَّى عَقَبَ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ ، وَأَمَكْنَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، ١٠
وَجَازَاهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ مُبَدًى ، وَلَا رَأَى لغيره أَهْلًا . وَكَانَتِ شَقُورَةُ قَدْ أَخْلَاهَا الْمُعْتَمِدُ ، وَبَنَى صَاحِبَهَا — عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ — أَنْ يَضَعَهَا فِي يَدَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ* ابْنُ عِمَارٍ إِلَى مَرْقُطَةَ ، نَهَضَ إِلَى الْعَبْدِ الْمَذْكُورِ ، ٣٤ (١)
عَسَاةَ يَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ ابْنِ هُودَ ؛ فَتَقَفَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَتَلَهُ شَرًّا قَتْلًا . ١٥

وَأَنَّ ابْنَ رَشِيقٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخِلَافَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَاحْتِجَّ بِأَنْ قَالَ : « لَمْ يُقَدِّمْنِي إِلَى مُرْسِيَّةٍ ! » وَزَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اخْتَارُوهُ ، وَأَنَّ مُقَدِّمَهُ إِنَّمَا كَانَ ابْنُ عِمَارٍ مَتَى ذَهَبَ عَنْهَا . وَسَنَدُّ كُرٍّ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ هَذَا ، عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُرَاطِبِينَ — أَعَزَّهَ اللَّهُ — وَقَصْدِهِمْ إِلَى لَيْطٍ ، مَا انْقَضَى مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ . ٢٠

٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلِمَ سِرَّ الْأَمْرِ كَالَّذِي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قَدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إلى الْخَيْرِ وإِثَارِهِ لِلصُّلْحِ بزوال هذا الفاسِقِ ابنِ عَمَّارٍ عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنَةٌ فيما بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ وَحَقَّقَ معنا في كُلِّ أَمْرٍ ، كَالَّذِي قَعَلْنَا نَحْنُ معه . وَجَدَدْنَا الْعَقْدَ على ما ارتضيناهُ من مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى ما كان قَدِيمًا بيده ، مِمَّا خَرَجَ عَنَّا في أَيَّامِ الْمُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الْفِتْنَةُ عليه حَقَّهَا ، ولم يوجَد في طَلَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ ، ولا إلى غير المصالحَةِ سَبِيلٌ ،

١٠ قَرَّرَتِ الْأَحْوالُ قَرَارَهَا ، وَتَهَيَّأَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا ما كان من سَيْفِ بَرَّائِيٍّ يَعْتَرِضُ بِلَادَنَا من الرُّومِ ؛ فَكان الرُّزْءُ فيه واحداً والمشاركة سواءً ؛ وَإِنْ كُنَّا لا نَقْدِرُ على ذلك بِالْإِمْدَادِ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ لضعفِ الحالِ ، فَكُنَّا تَشَارِكُ بِالْمُدَاخَلَةِ وإِعْمالِ الرَّأْيِ والتَّحْذِيرِ من أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَفِيَ عن الْآخِرِ وما أَشَبَهَ ذَلِكَ .

٢١ - الْمُؤَلَّفُ يَتَحَدَّثُ عن مَنهجِهِ في كِتابَةِ مُذَكِّراتِهِ

١٥ وَإِذا أَتَيْنَا على ذِكْرِ جُمْلَةٍ من أَحْوالِ الْأَنْدَلُسِ الْحَادِثَةِ فيها ، المشهور خَبَرُها حسبما اسْتَفَاضَ ، وَتَرَكْنَا وَصْفَ الْاِخْتِلَافَاتِ ، إِذْ يوجَدُ الْحَقُّ في طَرَفٍ وَاحِدٍ ، ولم يكن منها ما طَوَّلَعَ بِالمُشَاهَدَةِ ولا بِالْمَعَايِنَةِ أَكْثَرَ من إِشَاعَةِ خَبَرٍ ، ذَكَرْنَا منه ما يَنْقَاسُ في الْعَقْلِ ، وَحَدَفْنَا منه الْإِكْثَارَ وَالشُّبُهَاتِ . وَإِنَّهُ ، متى أَتَيْنَا على ذِكْرِ خَبَرٍ حَادِثٍ في دَوْلَتِنَا مِمَّا حَاوَلْنَاهُ

أو شاهدناه* أَطْنَبْنَا فِي وَصْفِهِ ، وَقَتَلْنَاهُ عِلْمًا إِلَى آخِرِهِ ، وَأَخْبَرْنَا بِسَرِّهِ ٣٤ (ب)
 عَنْ جَهْرِهِ ، وَبَارَقَ الْأَسْبَابَ فِيهِ . وَالْإِطْنَابُ فِيمَا يُحَاوِلُ الْإِنْسَانُ أُبْلَغُ
 وَأُنْعَتُ مِنْ وَصْفٍ لِلْمُشَاهِدَةِ لغير مَا يُخَصُّهُ ، كَمَا أَنَّ وَصْفَ الْمُشَاهِدَةِ ، وَإِنْ
 كَانَ لَا نَعْنِيهِ ، أُبْلَغُ مِنْ ذِكْرِ الْمُسْتَفَاضِ الَّذِي لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا
 يُذَكَّرُ مِنْهُ مَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، ثُمَّ يَجْتَزِي وَاضِعُهُ عَلَى أَنْ يَضَعَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ
 دُونَ الْأَغْلَبِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَامَةِ ؛ فَيَصِيرُ مُكَذِّبًا .

ولهذا مَا اخْتَصَرْنَا مِنَ الْكَائِنَاتِ الْمَشْهُورَةِ بِالْأَنْدَلُسِ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
 عَنْهَا ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى الْإِطْنَابِ فِيمَا يُخَصُّنَا مِنْهَا ، مِمَّا حَاوَلْنَاهُ أَوْ رَأَيْنَاهُ عَيْنَانَا .
 وَالْحَقِيقَةُ مِنَ الْخَبَرِ عَوْنٌ كَبِيرٌ عَلَى مَا يَرُومُ الْإِنْسَانُ مِنْ صِفَةٍ فِي مَنْظُومٍ
 أَوْ مَنْثُورٍ ، كَالْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ ؛ فَإِنَّهُ ، إِذَا وَجَدَ إِلَى الْقَالَ سَبِيلًا ، أَطْنَبَ
 وَأُبْلَغَ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ زِيَادَةٍ ، فَإِنَّهَا لَا تَمُكِّنُ إِلَّا فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ ،
 وَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الْأُمُورِ مَصْدَقًا لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ ؛ وَلَئِنْ كَتَبْنَا لَمْ يَكُنْ
 مَتَبَيِّنًا إِلَّا عَلَى وَصْفِ مَمْلُوكَتِنَا خَاصَّةً ، « وَالْحَدِيثُ ذَوْشُجُون » ؛ فَلَا بُدَّ
 مِنْ ذِكْرِ جُمْلٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصْفِهِ أَوْ ضَرْبِ مَثَلٍ بِهِ ،
 تَزِينًا لِلْكَلَامِ وَإِقَامَةً لِلْبُرْهَانِ وَدَوْرَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ . ١٥

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٢) مشا كل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سِماجة

ثمَّ لإجلاؤه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنه ، لما تهدّنت لنا الأحوال وقرّر مُلْكنا قراره بمُصالحة المُعتَمِد ،
ومُعاقدة الرّوى على المُهادنة ، وتوطين النفس على ما نعطيه^(١) في العام ،
انصرف نظرنا إلى إصلاح أمر بلادنا ، والفتش على رعيّتنا ، والكشف
على العمال إن كانوا عادلين أو ظالمين . ولما شعر بذلك خدمتنا ومن كان
له مذهب في نصيحتنا ، اتدب جميعهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على
ما خفي عنا زمان تلك الفتنه ؛ فكنا لا نقبل من أحدهم على الآخر إلا بعد
روية وهجوم على الحقيقة ، حذراً أن يكون مقال أحدهم حسداً للآخر
أو طلباً لا يُتقى الله فيه . ١٠

وكان سِماجة ، وزير دولتنا المُتقدّم ذِكْره ، قد شعر بذلك وأحسّه
مينا ؛ فاعتم للأمر* وعمل في نفسه ، وشكاه إلى إخوانه ؛ وكان فيما قال ٣٥ (١)
لهم : « إنما كنّا نطمح بالتحكم على هذا الرئيس والتمكّن من دولته مدّة

(١) أصل : « نعطيه » .

- أَيَّامَ صَبُوتِهِ ، يَعْنِي صَغَرَ سَنَّهُ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَلَسْنَا نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى رَدِّهِ
عَنْ دَوْلَتِهِ ، لَا يَفْتَحُ قَحْمِينَا ، وَلَا بِصَغْرِ سَنٍ نَجِدُ بِهِ السَّبِيلَ إِلَى صَرْفِهِ عِنْدَ
الْعَامَّةِ وَتَسْفِيهِ رَأْيِهِ ، لَا سِيَّامًا إِذْ كَانَ رَأْيُهُ النَّظَرَ مِنْ دَوْلَتِهِ وَالْبَحْثَ عَنْهَا .
فَقِيلَ لَهُ : « لَسْتَ ^(١) نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى أَكْثَرِ مِنَ الْمُدَارَاةِ لَهُ ، وَالْإِيتْيَانِ لِمَرْغُوبِهِ ،
وَقَوْلَةِ الْخِلَافِ عَلَيْهِ لَثَلَا يَتِمَكَّنْ عَدُوُّكَ مِنْكَ ، وَيَشْتَفِي حَاسِدُكَ عَلَيْكَ . فَهُوَ ،
إِذَا وَجَدَ مِنْكَ الَّذِي يَرْغَبُ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُبْلِغَ النَّظَرَ وَالْخِدْمَةَ وَيُفَوِّضَ
الْأَمْرَ إِلَيْكَ ! ثُمَّ أَنْتَ بِالْخِيَارِ عِنْدَ غَفْلَتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى رَاحَتِهِ ! وَعَلَيْكَ
بِإِشْغَالِهِ بِالنِّسَاءِ ، وَعَجَّلْ لَهُ ابْتِيَاعَ الرِّقِيقِ ! وَلَسْنَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ يَشْتَاكَ مِنْ
تَحْجِيرِكَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ نَظُنُّ بِهِ مَا يُظَنُّ بِمَنْ كَانَ فِي سَنِّهِ ا »
فَفَعَلَ ذَلِكَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الَّتِي دَبَّرَهَا مِنْ سَعَادَتِنَا وَتَمَكُّنَتِنَا مِنْ
أَمَانِنَا فِي الَّذِي ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْاِسْتِبْدَادِ بِمُلْكِنَا ؛ فَإِنَّهُ شَبَّكَ عَلَيْنَا الْعَاقِلَ
بِبَنِي عَمِّهِ ، وَأَشَدَّهَا عَلَيْنَا مَدِينَةُ الْمُنْكَبِّ . فَجَلَّ يَطْلُقُ لَنَا الْعِنَانُ فِي كُلِّ
مَا نُرِيدُهُ ، وَاشْتَرَى الرِّقِيقَ ، وَجَعَلْنَا نَخْرُجُ إِلَى الزَّاهَةِ فِي الْبِلَادِ ، يُرَى
بِنَاكَ الْإِنْصَافَ وَالنَّائِيَّ ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ مَتَنِّبًا ، خَائِفًا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ،
مَعَ أَنَّهُ كَانَ خَائِفًا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ كُتُبِ اسْتَعْمَالِهَا عَلَى أَلْسِنَتِنَا
أَقْوَامٌ مِنْ أَعْدَائِهِ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِهْنَاهَا يَأْمُرُونَ فِيهِ بِقَتْلِهِ ، وَتَحْنُ بَرَاءً
مِنْهَا ؛ فَظَفَرُوا بِالْكُتُبِ ، وَأَنْزَلُوا بِنَا التَّهْمَةَ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ أَوْلَئِكَ الْمُسَمِّينَ فِي
الْكُتُبِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ اتَّهَمُوا مِنْ كِرَائِمِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ اللَّهُ .
وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي مَقَدِّمَاتُ مُغَازِلِهِ لِعَزَلَتِهِ . فَلَمَّا كَانَتْ وَجْهَتُنَا إِلَى
وَادِي آشَ عَنْ اخْتِيَارِهِ ، وَقَدْ كُنْتُ عِلْتُ مُعْتَقَدِهِ فِي ذَلِكَ كَالَهُ بِالْقِيَاسِ

(١) أصل : « ليس » .

والتيّز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمرَ * ٣٥ (ب) والنهي ، ورأى من يَقْطَعُنَا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإلّيه لا يؤمن خلافه ، والرجة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرّة ، أكنُ كمن نُتبه على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثمّ أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرّة وعاد إلى ما كان ، ثمّ تَرى منه خلافاً ، لم تقدر عليه بشيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإنّ هذا الأمرُ منا جاءه فجأةً لم يحسبه ولا ظنَّ به ؛ والفرصُ تمرُّ مرّة السحاب ! فادمنا^(١) نحن بالخيار عليه ، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ١٠

فأراد إشاعة عزّلت به بالحضرة عند إمكان السفر ؛ فلم ترَ لذلك وجهاً إلّا ونحن خارجون عنها ، ليكون أشنع في الناس وأقطع لياُس الرعايا ، مع أنّي ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلتُه الصنّاعة ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وصلنا وادى آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعيّة أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صنيعة سَمَاجَة للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها ١٥ ببقائه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وحددتُ لهم حداً يَقِفون عنده إلّا يجعلوا بيتي وبينهم واسطةً ؛ وأمرته هو بالتزام ما يخصّه لنفسه ، وأن لا وزير لدوّلي إلّا نفسي ؛ وحددت لكلِّ خادم ما تكون طريقته أن لا يتعدّى سواها . فسرّاً بذلك جميع الوزراء ، ٢٠ إذ تساوّت أقدامهم ، وانكشف حجابي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى

(١) أصل : « مادام » .

- دون مَنْ هو مِثْلُهُمْ أَوْ دُونَهُمْ . واغْتَبَطَ الرِّعَايَا بِعِزَّةِ الظَّلَمَةِ عَنْهُمْ . وَعِزَلْتُ
 كُلَّ مَنْ يُتَيَّمُ بِخِيَانَةٍ ، وَقَدَّمْتُ عُمَّالًا إِلَى الْجِهَاتِ ، أُرِيدُ تَجْدِيدَ الدَّوْلَةِ .
 وَعِزَلْتُ بَنِي عَمِّهِ مِنَ الْحَصُونِ ؛ وَلَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، لَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ،
 يَفِرُّونَ مِنْهَا وَيَتَرَكُونَهَا حَتَّى يَوْجَهَ إِلَى جُنْدِهَا عَنْ قَاتِدٍ . وَلَمْ نَلْقَ فِي
 ٥ ذَٰلِكَ * كُلَّهُ مَشَقَّةً . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ابْنُ عَمِّهِ لَهُ ، صَاحِبُ الْمُنْكَبِ ؛ ٣٦ (١)
- فَجَزَعُ ، إِنْ تَرَكَّهُ ، أَنْ يَوْجَدَ إِلَيْهِ السَّبِيلَ بِسَبَبِهِ ؛ فَأَخْبَرَنِي بِالْأَمْرِ ، وَسَأَلَنِي
 إِرْسَالَ قَاتِدِي إِلَيْهِ ، فَعُزِّلَ . وَسَأَلَ زَاوِيُ زَوَالَ أَخِيهِ بَلْبَارَ عَنْ وَادِي
 آش . فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى أَمْكَانٍ سَعَادَةٍ وَأَجُودٍ تَقْدِيرٍ ، لِلَّذِي شَاءَ اللَّهُ
 مِنْ تَمَامِ أَيَّامِ وَزَارَتِهِ .
- ١٠ ثُمَّ أَمَّنْتُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَأَبْقَيْتُ عَلَيْهِ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ إِلَّا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ،
 وَسَوَّغْتُهُ إِنْزَالًا يَنْعَاشُ فِيهِ ، وَأَمَرْتُهُ بِلُزُومِ تَجَلِّسِي وَأَنَّهُ مُكْرَمٌ طَوِيلُ حَيَاتِي .
 قَبْلَ الرَّجُلِ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَأَطَاعَنَا فِي كُلِّ أَمْرٍ أَرَدْنَاهُ دُونَ خِلَافٍ وَلَا إِظْهَارٍ
 لِمَعْصِيَةٍ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ جَزُوعًا ، قَلِيلَ الْجُرْأَةِ عَلَى الْمَظَالِمِ ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ قِتَّةً
 تُعِينُهُ . وَلِنَقْتِي بِذَلِكَ أَمَّنْتُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَمَضَى عَلَيْهِ دَهْرٌ طَوِيلٌ عَلَى لُزُومِ
 ١٥ الْمَجْلِسِ دُونَ خِدْمَةٍ ، فَلَمْ يَتْرُكْهُ .
- وَخَافَ مِنْهُ مَنْ سَعَى فِي أَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، وَتَوَقَّعُوا مِنْهُ الْعُودَةَ ؛ فَلَمْ
 يَزَالُوا يُعْرَوْنَ بِهِ ، وَيَنْقَلُونَ عَنْهُ مِنْ قَبِيحِ الْقَوْلِ ، وَيَخَافُونَ مِنْ مَغَبَّةِ أَمْرِهِ ،
 مَا لَمْ تَرَ مَعَهُ وَجْهًا لِإِمْسَاكِهِ فِي الْبَلَدَةِ ، احْتِيَاطًا عَلَى أَنْفُسِنَا ؛ وَرُبَّمَا
 كَدَحَتْ بَعْضُ تِلْكَ الْأَقَاوِيلِ ، فَهَلَكَ مِنْ أَجْلِهَا . وَلَا اسْتَطَاعْنَا حِينَئِذٍ
 ٢٠ عَلَى مُعَاقَبَتِهِ لِمَا ارْتَكَبَ فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ مِنْ قَتْلِ أَوْلِيَاءِ النِّسَاءِ وَمَنْ جَرَى
 مَجْرَاهُنَّ ، لِشُرَكَتِهِ فِي ذَلِكَ مَعَ سِوَاهُ مِنْ شَيْوِخِ تِلْكَ كَاتَةِ ؛ فَيَسُوهُ ظَنُّهُ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فساد المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحد . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استمالة لأنفس الناس ، وبسطاً لأموالهم . فخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشياً إلى المريّة . فكان المعتصم يكرمه من أجلنا ، ولا يئس أن نصرّفه إلى منزلته ، فيقدم ذلك الإكرام عنه . وخرّجت امرأته بحلي كثير من الجواهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ؛ * وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أول ٣٦ (ب) ولايتنا ، وقت فتح بيت المال ؛ ولم تتحقق ما اكتسب منها مدة خدمته لنا ، ولا بحثنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المريّة .
تعاقب أحداثه وحله

ثم قمنا من بعده في أمور البلاد والرايا بأحسن قيام وأتمّة ، وجعلنا الأمناء على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمر على ذلك دهنراً طويلاً .

١٥ وإنّه ، في إثر مضي سِمَاجَة للذكور إلى المريّة ، بلغنا أنّه حقر الدولة لابن صمّادح وطمعه فيها ، ليا كان يرى من طمع الرجل الذي قد شهر به — رحمه الله — ؛ فإنّه كان كثير الطمع ، قليل الجسر ، ضعيف المنة . فعمل قوله في نفسه ، ورجا أن ينال على يديه فرصة بمداخلة أو إدلال على موضع فائدة ، كالذي تهيأ له مع اليهودي .

٢٠ ووافق ذلك أن وقعت بين قائدَي النظر ما بين فنيانة والمنثورى

مُشَاجَرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَتَهَيَّأ حِيَاةَ ذَلِكَ النَّظَرِ إِلَّا بِبُنَيَّانِ الْمُنتَوَرِيِ
 الْمَذْكُورِ . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهِهِ إِلَى قِنْيَانَةَ ، أَرْسَلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يُعَلِّمُهُ
 بِرُودِي عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى لِلصَّاقِبَةِ لَهَا وَإِنَّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ الْمَعْقِلِ
 لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَكَارِمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرُّسُولِ :
 « هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ ^(١) تَمْلَأُ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنَيَّانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلِمْتُ مِنْهُمْ
 ذَلِكَ الْحِصْنَ عَلَى الْمَرِيَّةِ ، وَبَلَغَنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةِ ، وَتَذَكَّرْتُ
 مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبْنَا ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بِبُنَيَّانِ ذَلِكَ الْمَعْقِلِ .
 فَقَامَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْحِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ الْمَرِيَّةُ
 مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتِيجَ إِلَى بُنَيَّانِ مَعَاوِلَ غَيْرِهَا ، تَوَقُّعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ،
 ١٠ فَيَكُونَ عِوَضًا عَنِ الْمُنتَوَرِيِ . فَقَامَ بُنَيَّانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا
 لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرًا عَلَى جِهَاتِ الْمَرِيَّةِ . فَسِيلَ بِالْأَمْرِ ،
 وَضَاقَ بِهِ ذُرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِّهُ * عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هُزِمَ ؛ وَأَسْرَنَا ^(٢) ٣٧ (١)
 كِبَارَ رِجَالِهِ عَلَى طُرُقِ الْبَشِ .

وَكَانَ عِدَّةُ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةُ حَصُونٍ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ ^(٣) أَهْلَهَا
 ١٥ بِالرَّقِيقِ وَحَرْزِ جِهَاتِهَا إِلَّا يَطْرُقُ إِلَيْنَا طَالِبُ شَرٍّ . وَإِنِّي إِنَّمَا بَنَيْتُهَا صَوْلَةً
 وَتَهْيِيبًا ، حَتَّى نُصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَقَعُ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفَ أَقْدَارَنَا .
 وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي
 ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صُمَادِحٍ فِتْنَةً ، وَتَبَيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَاطَرَةِ ،
 صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُدْرِكٌ ! »
 ٢٠ لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْتَاهُ شَيْءٌ . وَحَسَبْنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَالْإِبْقَاءُ

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « نأمر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأمر مع الجار — وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه — خَيْرٌ من تَهْيِئَتِنَا لِقَوِيٍّ لا يُرامُ ! ولقد كان المظفرُ على بصيرةٍ من إتيائه لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوة ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحُصُونِ ؛ وَنُشِرَتِ لِلرَّيَّةِ مِنْ كَفْنٍ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَّرَا
فَلَمْ نَزَلْ مُتَعَاقِدِينَ مُتَشَارِكِينَ فِي الْحُلُوِّ وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ — تَوْجِيهِ عَسْكَرٍ ضِدَّ تَمِيمِ بْنِ بُلْقَيْنِ صَاحِبِ مَالِقَةَ
وَأَخِي الْمُؤَلَّفِ ، وَنَصَرَهُ إِيَّاهُ

١٠ ثُمَّ لَمْ نَلْبِثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى جَاءَنَا مِنْ أَخِينَا تَمِيمٍ خِمَةٌ لَمْ نَحْتَسِبْهَا
بَعْدَ أَنْ رَأَى ظَهْرَنَا ، وَصُلَحْنَا مَعَ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا صَنَعْنَاهُ بِجِهَاتِ
الرَّيَّةِ ، لَمْ يَفِرْقَ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْحَالَةِ الْأُولَى ، لَغَرَارَةِ الصَّبَا وَقَتِ اصْطِكَكَ
الْفِتَنِ وَالشَّغْلِ الشَّاعِلِ . فَحَسِبَ الزَّمَانَ كُلَّهُ وَاحِدًا . وَلَمَّا سَكِنَتْ عَنْهُ قَبْلُ ،
لِهَذِهِ الْعِلَّةِ عَلَى مَا قَدْ مَنَّا ذَكَرَهُ مِنْ بَدَأِ أَمْرِهِ ، تَمَادَى عَلَى تِلْكَ الْأَفْعَالِ . فَأَرْسَلَ
١٥ قَطَائِمَهُ إِلَى حَرْبِ الْمُتَكَبِّ وَشَاطِطِ ، وَخَوِيلَةٍ فِي إِثْرِهَا لِلضَّرْبِ عَلَى النَّظَرِ
لِلصَّاقِبِ لَهَا . وَأَتَانِي أَهْلُ تِلْكَ الْجِهَاتِ شَاكِينَ بِالْأَمْرِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

« هَذَا إِنْسَانٌ لَمْ يُبْصِرْهُ الدَّهْرُ ، وَلَا حَكَمَتْهُ التَّجَارِبُ : وَمَتَى تَرَكَنَاهُ * عَلَى ٣٧ (ب)

هَذَا ذَاتِبًا ، وَلَمْ نَوَدِّبْهُ عَلَيْهَا ، تَمَادَى شَرُّهُ ، وَحَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لِهَيْئَتِهِ ؛ فَازْدَادَ ،
وَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا قِيلٌ ! » فَلَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْدِيبِهِ وَزَجْرِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ تَحْقَرَهُ

٢٠ وَقَدْ بَنَى ! وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِغْضَاءَ لِمَعَانٍ تُوقِعَتْ ، وَانْتِظَارًا بِهِ لِحَسَنِ الْعُودَةِ

وروية البصيرة . فإذا قد يئسنا من هذا وأمتنا ما يُشغلنا عنه ، فتركه على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

ووافق ذلك الزمان اشتغال المعتد بأمر الفونش ؛ فإنه نازل إشبيلية لتباعات تسبب بها ؛ وضائق الحال من أجله . فاتفق الأمر وتهيأت الأسباب على حين غفلة وانتهاز فرصة . فنهضنا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فوالله ! ما سمع بنا أهل حصونه ، ولم تتدارك بالخروج صبيحة ذلك اليوم ، حتى ورد علينا عن حصن القصر بجهة صالحة أنه صار في ملكنا وطاعتنا رعيته ؛ وهو حصن أول من يطوع وآخر من يعصى لدوى الغلبة والظهور ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصيرنا إلى الحمّة ، نروم منها أمر ذلك النظّر . فأعلمت بصخرة دؤبس (ولا معنى لريه إلا بها ، وهي موسطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جل عاكر مألقة مع قواد صاحبها ؛ فلو انتزعت تلك الشوكة ، كان أمر غيرها يسيراً هيناً . فاستعددنا لقتالها ، وضاربناهم في أول النزوع عليها . فجزع من فيها من الجند ، وأرسلوا إلينا تلك الليلة يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سالفين في مهجهم . فأجبتهم إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرها بهذه الأيادي ؛ وأخلوا الصخرة ، وصار فيها جندنا .

وانتقلنا عنهم إلى حصن كان صاحب مألقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أول قيامه ، على ما رسمناه ؛ فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتخاذل من فيه ، ودخل قسراً ، وهو حصن أشقير . ثم نهضنا إلى مريّة بلش ؛ فألقت يدها . وأردت التمدد إلى بزيانة .

٢٠ وكان كئاب* بن تميم صاحب أربجدونة ، فائدنا ، قد استفلّك ٣٨ (١) في تلك الجهة ، وزعم أنه لا يتعزل إلينا . فلما رأى ظهورنا في هذه المعاقيل ،

خاف أن يَصْقَوْا الجَوْ وَيَصْرِفَ البَالُ إِلَيْهِ ، فرام أن لَا نَصِلَ إِلَى بَزِيلْيَانَةَ
وحذّر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنٌ مُنْتِ مَاسَ ، رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا تَتِمَّكُنْ
لَنَا مُنَازَلَةٌ مَالَقَةٌ إِلَّا بِالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ الْمِيرَةَ إِلَى الصَّحْلَاتِ . فانصَرَفْنَا
مِنْ بَزِيلْيَانَةَ نَرِيدُ مُنْتِ مَاسَ الْمَذْكُورَةَ ، وَأَظْهَرْنَا لَكَبَّابَ الْأَخْذِ بِرَأْيِهِ ؛
فسرّ بذلك . ٥

ولما نهضتُ إِلَى مُنْتِ مَاسَ ، رَأَيْتُ مُعْقِلًا عَظِيمًا ، قَدْ اجْتَمَعَتْ بِهِ جَمِيعُ
الرَّعَايَا ؛ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ ؛ فَأَبَوْا ، خِيفَةً مِنْهُمْ أَنْ نَكُونَ غَدًا نَصَالِحَ
أَخَانَا وَيُعَاقِبُهُمْ ؛ فَأَمَّنَّا مِنْ ذَلِكَ . واجتمع فيه كُلُّ فَاسِقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ ،
وَأَعْرَضْنَا عَلَيْهِمُ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِنَا ، وَتَرَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الرُّتَبَ
وَانصَرَفْنَا إِلَى غَرْنَاطَةَ . وَفِي انصَرَفْنَا ، طَاعَتْ لَنَا غَيْرُهَا مِنَ الْعَاقِلِ ، مِثْلُ
أَيْرُشَ وَصَخْرَةَ حَبِيبَ . وَكُنَّا فِي أَوَّلِ وَجْهَتِنَا قَدْ أَخَذْنَا رُيَيْنَةَ بِالسِّيفِ
قَسْرًا ؛ وَطَاعَتْ لَنَا جُطْرُونَ ؛ وَهُمَا قَصَبَتَا مَالَقَةً . وَطَارَتْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ عَنْ
يَدِهِ عَشْرُونَ مُعْقِلًا . وَانصَرَفْنَا إِلَى مُنْتِ مَاسَ ثَانِيَةً ؛ وَيُئْسُوا مِنْ تَرَكَهُمْ ،
وَطَاعَ أَهْلُهَا ؛ وَتَقَعَّتْهَا ؛ وَهَدَمْنَا مِنَ الْحِصُونِ مَا نَسْتَفْنِي عَنْ إِمْسَاكِهِ
بِغَيْرِهِ ؛ وَأَمْنَتُ الْجِيَهَةَ وَبَحَثْتُ عَنْ فَوَائِلِهَا ، وَصَارَ ذَلِكَ مُقَيَّدًا ؛ وَأَوْسَقْنَا
أَهْلَهَا خَيْرًا . ١٥

ولما رَأَى أَخُونَا مَا دَهَمَهُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَقِيَامَ رَعِيَّتِهِ عَلَيْهِ ، خَافَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ، مَعَ تَبَرِيزِنَا نَحْنُ عَنْ مَالَقَةٍ فِي حِينِ أَخْذِ مُنْتِ مَاسَ . وَاشْتَغَلَ
بَعْضُ النَّاسِ بِقِتَالِ انْحَاذُوا إِلَيْهِ دُونَ مَوْضِعِنَا ، وَتَبِعَهُمْ أَكْثَرُ عَسَاكِرِنَا ،
فَاتَهَزَّ أَهْلُ مَالَقَةِ الْفُرْصَةِ ، لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ قَلْبَةٍ مَنْ فِي الْمَوْكِبِ مَعَنَا ، وَخَرَجُوا
عَلَى بَابِ فُتْنَنَالَةَ ، وَحَلَوْا عَلَى * الْعَسْكَرِ حَمَلَةً اخْتَلَطَ فِيهَا الْفَرِيقَانِ . وَلَمَّا رَأَيْتُ ٣٨ (ب)

يفرار من معنا واختلاطهم بجند مالقة ، أمسكنا على العلامات ، وأمرنا بضرب
الطبل بعد توليه ، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لما رأوا ثبوت العلامات .
ثم كانت لنا عليهم الكرّة ، بعد أن أسير بعض رجالنا ؛ فأقذوهم ، وهزموا
عسكر مالقة ؛ وكان بها من جند البربر نحو ثلاثمائة فارس أنجاد ، إلا أن
الحزم داخلهم ، ونزع إلينا أكثرهم . ٥

ولما رأى بعض من معنا تلك الهزّة ، أشار علينا بالانصراف ، وخوفنا من
تقوية ابن عباد أن تدخلها ما لا يمكن ؛ فقلتُ : « إن الانصراف على
هذه الحالة عجز ! وسيشيع في الجهة كلها أن رجوعنا لم يكن إلا عن هزيمة !
فالأولى أن نكسر يومين نبرز فيها كل يوم في الموضع الذي التَحَمّت فيه
الخيل ، نريهم : إن كانت بكم قدرة ، فعادوا ما فعلتم ! » وثَقُتُ العسكر
لثلاث طليش منه أحد . فكان ذلك . وأقلعنا بعزة حتى وصلنا نظرنا على
أتم ما يمكن . ولو رَفَعْنَا أول تلك الوهلة ، خَلَتْ جميعُ المعاقِل التي طاعت
لنا ، وكأننا ما صنعنا شيئاً .

فَبَيَّتِ الحال ضيقة على مالقة . وأرسل إلينا أخونا ، يستعطف ويسأل
المغور وإقالة العثرة . فدبرنا أمره في أنفسنا ، وعملنا فيه رأياً سديداً ،
وعلمنا ما هو عليه من الحرص والشر والحدّة ، وأنَّ صَرْفَ المعاقِل إليه
تقوية لشره ، وأنه ، إن عاود بما كان عليه ، لم تقدر له على شيء ،
ولا تطوع بقدّها رعيته إن أردناهم بعد ، لِمَا يَرَوْنَ من إسلامنا لهم
إليه ، وخافوا أن يُعاقِبهم ، مع ما كانوا ينعمون عليه من سوء الطريقة
معه ، يُعلنون بذلك ؛ وأخذوا مِنّا ميثاقاً غليظاً ألا نُسَلِّمهم إليه ، وعاهدناهم
على ذلك بأيمان مغلظة . وظهر من أقاويلهم أنهم ، متى رُدُّوا إليه ، لم

يُجِيبُوا* ، وأدخلوا الداخلة ، وصيروها إلى رئيس غَيْرَنَا . فَنَحْنُ مِنْ هَذِهِ ٣٩ (١)
الوجه ما يجب أن يتوقع .

ثُمَّ لَمْ تَرَ وَجْهًا فِي الْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ ؛ فَرُبَّمَا أُخْرِقَ ، وَصِيرَهَا إِلَى سِوَانَا ،
كَالَّذِي صَنَعَ مَا كُنْ عَمَّنَا بِجِيَانٍ ؛ فَتَكُونُ مُصِيبَةً لِلْبَلَدِ ، وَعَارًا عَظِيمًا ،
٥ مِنْ تَوَلِيحِ أَخِينَا وَشَقِيقِنَا إِلَى غَيْرِنَا ، وَتَقْرِيهِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَأُثْمُهُ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ ؛
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ، فَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَدَّبْنَاهُ^(١) بِمَا كَفَى ، وَوَسَعْنَا عَلَيْهِ فِي
النَّظَرِ مِمَّا لَمْ تَبْقَ فِيهِ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَكَانَ مُهِمًّا عَلَيْهِ ؛ وَأَخْلَيْنَا لَهُ رِيْدِنَةً
وَجُطْرُونَ ؛ فَإِنَّ رَعِيَّتَهَا نَصَارَى ، وَهُمْ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نِفَاقٍ
مَعَ أَحَدٍ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قُرَى يَتَسَّعُ فِيهَا لِمُرَاقَبَتِهِ . وَبَقِيَتْ يَدُهُ حُصُونُ الْغَرْبِيَّةِ
١٠ مِثْلَ قَرْطَمَةَ ، وَمِيشَشَ ، وَحَارِشَ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قَامَرَةَ ، بَلَدَ الزَّرْعِ ، لِيَتَسَّعَ
فِيهَا لِلْعَرِثِ . وَحَرَّمْنَاهُ غَيْرَهَا ، الَّتِي يَتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْهُ : إِنْ اسْتَأْذَنَ
بِهَا ، لَمْ يُوْثَمِنْ شَرُّهُ .

وَبَقِيَتْ حَالُهُ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، مَارَضِيَتْ بِهِ الْوَالِدَةُ وَحَدَهُ جَمِيعُ
النَّاسِ ، صَلَوةً لِلرَّحْمِ ، وَعَفْوًا عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ ، وَتَأْدِيبًا لِمَا يَخْشَى عَاقِبَتَهُ . وَقَرَّ
١٥ حَالُهُ قَرَارَهُ ، وَنَفْسُهُ فِي هَذَا عَلَيْنَا حَاقِدَةٌ ، تَبْلُغُنَا عَنْهُ أَقَاوِيلَ سَيِّئَةٍ ؛
وَنَحْنُ لَا نَمُوجُ عَلَيْهَا وَنَقُولُ : « إِضْرَارُهُ بِالْقَوْلِ خَيْرٌ مِنْ إِضْرَارِهِ بِالْفِعْلِ ،
لَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ الْمَعَاقِلَ ! وَعَلِمْنَا أَنَّهُ فِي عَاقِبَةِ وَنِعْمَةِ طَائِلَةٍ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ
الَّتِي تَرَكَ جَدُّهُ بِمَالَقَةٍ ، لَمْ يَمُوجْ قَطُّ إِلَى نَفَقَةِ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، وَلَا نَالَتْهُ فِتْنَةٌ ،
وَلَا بَلَغَهُ مَكْرُوهٌ ؛ وَكُنَّا نَحْنُ أَمَامَهُ نُقَاتِلُ عَنْهُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَنُعْطِي عَنْهُ
٢٠ الْجِزْيَةَ ، وَهُوَ فِي دَعَاةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ يَدُهُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ لِقِلَّةِ تَمَوُّنِهِ وَاحْتِيَاجِهِ

(١) أصل : « دَجِّنَاهُ » .

إلى نفسه في التَّمَوْنُ^(١) والنِّفقات ؛ فَإِنَّ هذا كثيرٌ ، وهو تحت نِعْمَةٍ ! «
 فطابت أَنْفُسُنَا على ذلك . وَكَفَّ هو عن كثير مما كان يرتكب من القتل
 والظلم ، حتى أَنَّهُ لَا يَرِدُنِي من عنده رسولٌ من أَهل بَلَدِهِ أو جُنْدِهِ * ٣٩ (ب)
 إِلَّا ويوصي أَن نشدَّ يدي عليه ، ويقول لي : « بتأديبك له فَلَحْنَا وكفَّ
 عَنَّا ، وإِنَّهُ ، متى يَأْمَنُ منك أَمْرًا ، طغى علينا ، وشقينا به . وما في الدنيا
 أَشْعَرُ منك في إِمْساك تلك المحالِّل عنه ؛ فَإِنَّكَ كُنتَ بعد هذا لا تلجمه
 أَبَدًا ! » فخرجت الأمور خَيْرَ خَرَج ، وَأَمَّا جِهَتُهُ بِسُتْرِهِ في مكانه ، ولم
 نفجع فيه أُمَّهُ .

٤٥ — ذكر ثورة كَبَّاب بن تَمِيم وثورة بني تاقنوت

ونهايتهما

وإِنَّ كَبَّابَ بن تَمِيم ، قَائِدُنَا بِأَرْجُذُونَةَ وَأَنْتَقِيرَةَ ، لَمَّا رَأَى ظهورنا
 على مَالَقَةِ ، أَكْبَرَهُ ذلك وشقَّ عليه ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَمْرَ مُنْجِزٌ إِلَيْهِ ، إِذْ
 كَانَ قد أَضْمَرَ نِفَاقًا وِطَاعَةً في مَعْصِيَةٍ ، لَمَّا تَأَمَّسَ له هُنَاكَ في حين الفتنَةِ
 من ضَمِّ الأَطْعِمَةِ ، والاستحواذِ على أموال الناس بِقَطْعِهِ السُّبُلِ ، وانقطاعِ
 أَهْلِ الشَّرِّ إِلَيْهِ من كُلِّ قَطْرِ . وكان أَمْرُهُ من ذُنُوبٍ سِمَاجَةٍ عِنْدَنَا ،
 الَّتِي سَوَّغَهُ البلدُ ، وجَعَلَهُ مِلْكًا في يَدِهِ ويَدَى بَنِي عَمِّهِ ، حتى شَقِيَ بِهِ .
 وَلَمَّا تَمَّ صَلُحُنَا مع الْمُعْتَمِدِ بن عَبَّاد ، خَالَفْنَا فِيهِ ، وجعل يُفْسِدُ وبنقضِ
 مَا أَبْرَمْنَاهُ من ذلك ، وَلَا يَقِرُّ عن الضَرْبِ . فَجَعَلَتْ أَقْدَمُ إِلَيْهِ المَرَّةَ بعد
 المَرَّةِ ، وَأَنْذَرَهُ عَاقِبَةُ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَأَقُولُ له : « إِنَّ لِلْمُصَالِحَةِ وَقْعًا يَنْبَغِي

(١) أصل : « الفتون » .

للمرء حفظها ؛ فإذا أفسدتها ، فأنت من المطالبين لى ا « فلا يزدجر مع هذا كله ، ولا ينفع فيه وعظ ، لإعجابه وتحمقه . وكانت كُتُبُ الْمُعْتَمِدِ أَبَدًا تَرِدُ بالشكوى منه ؛ فَأَضْمَرَ لَنَا مِنْ كَفِّهِ غَائِلَةً . وكانت من سعادتنا أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلِ الْمُعَامَلَةَ مَعَ أَحَدِ الْقَرِيقَيْنِ .

- ٥ فلما طال الشكوى به ، قلتُ لرسول الْمُعْتَمِدِ : « لَا أُسْتَطِيعُ عَلَى عَزْلِ كِبَابٍ إِلَّا بِالْمُجَاهَدَةِ فِي مُفَاسَدَتِهِ ؛ فَإِنْ اسْتَوْتَقْنَا مِنْكُمْ أَنْ يَتَرَاى عَلَيْكُمْ وَلَا تَقْبَلُوهُ ، فَتَخْنُ ضَامِنُونَ لِعَزْلَتِهِ ا » فارتبط معى على أَنْ لَا تُقْبَلَ لَهُ رَجْعَةٌ وَلَا تُقَالَ لَهُ عَثْرَةٌ . فَأَلَحَّخْتُ عَلَى كِبَابٍ فِي أَنْ يَنْزِلَ عَنِ الْمُعْقِلَيْنِ ، نِقَّةً مَنَى بِمَا رَبَطْتُهُ مَعَ الْمُعْتَمِدِ ، فزاد طغيانه ، وخطبَ عَلَى الْقَامِ إِلَى ابْنِ عَبَّادٍ ، * يَرْغَبُ فِي تَصْيِيرِ الْحَصُونِ إِلَيْهِ . فَأَرْسَلَ إِلَى الْمُعْتَمِدِ بَكْتَابِهِ ،
- ١٠ وَحَضَّنَى عَلَى شِدِّ الْيَدِ عَلَيْهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ ففعلتُ ذَلِكَ . وَهَذَا بِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ إِنْصَافِ الْمُعْتَمِدِ لَنَا وَقَلَّةِ خِلَافِهِ عَلَيْنَا مُذْ فَارَقَ ابْنَ عَمَّارٍ ، كَالَّذِي أَجَلْنَا تَحْنُ مَعَهُ فِي أَمْرِ بِيَّاسَةٍ ، وَقَدْ نَفَاقَ أَهْلُهَا وَأَرْسَلْتُ كِتَابَهُمْ إِلَيْهِ . وَإِنْ كِبَابًا قَبْلَ ذَلِكَ ، لَمَّا رَأَى صَنِيعَنَا بِمَالَقَةٍ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ ، نَظَرَ
- ١٥ — فِي زَعْمِهِ — لِنَفْسِهِ وَقَالَ : « هَذَا مَا صَنَعَ بِأَخِيهِ ا وَطَاعَتْ لَهُ الرِّعَايَا ! فَكَيْفَ بَيْنَ هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِيْدِهِ ؟ » وَأَحْسَنَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ابْنُ تَأْفَنُوتَ ، صَاحِبُ مَدِينَتِنَا ؛ وَكَانَ امْرَأً سَوْءً ، كَثِيرَ الطَّغْيَانِ ، بَعِيداً مِنَ الْخَيْرِ ، مُؤَثِّراً لِلشَّرِّ ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ بِحَصْنِ بَجْرِيْشَةٍ ، قَدْ سَوَّغَهُ أَيْضاً سِمَاجَةً إِقْلِيمَ نِيْمَشَ كُلَّهُ ، وَطَالَ مَكْنُهُ فِي الْحَصْنِ سَبْعَةَ أَعْوَامٍ ؛ فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ ، مِثْلَ مَا أَضْمَرَ
- ٢٠ كِبَابٍ مِنَ النِّفَاقِ ؛ فَتَعَاقَدَا جَمِيعاً وَتَحَالَفَا أَنْ لَا يَنْعَزِلَ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِعِزَّةِ الْآخَرِ .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النَّظَرُ في أمر ابن تافنوت ، إذ كان أهمَّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المُعْتَمِدِ عليه آكدَ ، إذ علمتُ من حنقه على كَبَّاب أنه لا يقبل له معذرة . فمأملتُ على ذلك أيضاً بأحسن مُعاملة ، وتسرح بمسكركه قُوَّة إن احتيج إليه لحرب جريشة ، وشارك غايه المشاركة في التوسط بيننا وبينه ؛ وأرسل إليه رسوله ، يقول له : « إن كنتَ جَزَعْتَ من رئيسك ، فاترك حِصنه ! وأضمن لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنت لا تثق بهذا كله ، فانزل إلىَّ بعد أن أعطيك عهدَ الله وميثاقه ألا أسلمك إليه أبداً ! » فما كان جوابه إلا أن قال : « وما تصنعون بالحِصن ؟ » قال : « أُصيرُه إلى صاحبه ! » فأبى وقال : « إنَّما أريد أن أجعل الثَّقيل بيد من يُذيقه الشرَّ ويتولَّى فِتْنَتَه ! »

فأتاني ابنُ* الأصبَحيُّ رسولُ المُعْتَمِدِ ، التوسطَ لخبيره ؛ فقال لي : ٤٠ (ب) « اعزِّمْ على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهبٌ للشرِّ ، لا يقنعه إلا الإصرارُ بك ! » وكان في هذا كله يقطع السُّبُلُ ، ويُخيف الناسَ ، ويقتل أهل الرِّقَق ، ويُطْلِع أموالهم إلى الحِصن ، ما كان أشهرَ في الناس من الشمس ، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يجتاز بشيء من تلك الجهات .

فاستخرتُ اللهَ على منازلته ، ومكثتُ عليه سِتَّةَ أشهر ، لا يُبالي عما تنفق عليه من الأموال ، إلى أن رقتْ حاله ؛ وأنا في هذا كله أقدمُّ إليه وأبلى العذرَ عنده ، وأخوه في ثقافي . وأمرتُ أخاه بأن : « اكتبْ إليه أني متى أخذته على غيرِ عهدي ، برَّحتُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قبل

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مِثْنِي شيئاً ! » فوالله ! ما تَرِدُ عليه هذه الكتب إلا ويزداد طغياناً وشتاً وحقاً ، حتى يَسَرَ الله أخذه ، ودُخِلَ الحِصْنُ ، وكفى الله شرَّهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورتُ كبارَ البلدة وفقهاءها في خبرهم ؛ فخيَّروني في الذي حضَّ الله عليه من قوله تعالى ^(١) : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصَّلب ، وأنه أدهى وأمرُّ من أن يُنفوا من الأرض . فإن شرَّهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان للمسلمون مُرتَقِبِينَ لِمَا حلَّ بهم ! ووالله ! ما صرفتُ وجهي لأحدٍ خاصَّةً وعامةً من أهلِ بلادِي إلا ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع الناس . ولقد كان يومُ قَتْلِهِم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرِّهم .

وإنَّ كَبَّابَ بنَ تَمِيمَ المذكور ، لما رأى ما صُنِعَ بيني تأقنوت ، زاده ذلك حماقَةً واستيحاشاً ، وخاطَبَ المُعْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذكره . فأرسلنا إليه نُعرض عليه التخلِّي عن المَعْقِلَيْن ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ بألَّةِ الحرب ، وضمَّ الحُرَّاسَةَ وأخاف السُّبُلَ ، وقطع* الطُّرُقَ وأتى بما هو ١٥ مشهور من شرِّه . فاستخَرْتُ الله على مُنازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولما أحسنَ من نفسه بالضعف ، وأنه لا ملجأَ له ولا مَهْرَبَ إلى أحدٍ بقلةِ إقبال السلاطين عليه ، تَرَامَى علينا ، وسألَ العفوَ ، خوفاً أن يحملَ به ما حلَّ بيني تأقنوت ٢٠ إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سألَ ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا العَفْوَ بعدَ الإِسَاءَةِ ، فلا يَيْئُسُ منَ فعلها ، إنَ دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأولى عِظَةً وشُعْفَةً لمن نَفَرَ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وكنّا لا نُقدِّم شيئاً ولا نوؤخِّره من هذه الأمور إلّا بعد رويّة وفكرة في العاقبة ، ونَدْعُ مشورة الناس ؛ فإنّا بَلَوْنَا منهم قَلَّةَ التحقيق ، والنطق على الهوى : فإنما مَقْتُونٌ بِأَمْرِ يُزَيِّنُهُ ويحمل عليه ، وإِنَّمَا كَارِهٌ لَخَيْرٍ أو مطالبٌ لِأَحَدٍ ، فيجعلنا نحير عن ما لا يطابق هواه ، ﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(١) . فلَمَّا بَلَوْنَا من الناس هذه الشئال ، وأنَّ كلَّ أَحَدٍ يحبُّ أن تجرى الأحكام على اختياره ، رَجَعْنَا إلى إثارة اختيارنا ، إذ كان نظرنا لأنفسنا أُرْشِدَ من نظر غيرنا ؛ « وما حَكَ ظَهْرَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ » ^(٢) .

وكنّا مع هذا نَصَفِي إلى قول الناس بِالْأُذُنِ ، لا بِالْعَقْلِ ؛ فنقيس عليه ونختار مُرَادَهُ ، ولا نُزِيهِه الخلاف ، فنُوَحِّشُهُ ، غيرَ أَنِّي أوسّع لهم صدرى ويسعُ جَهْلَهُمْ حِلْمِي ، وأقضى بعد ذلك ما أريد ، إذ لم أكن على أمرٍ مجبوراً ولا مقهوراً ، إلّا ما قهرتني عليه السياسة ، وما تُحَمَّدُ له العاقبة ، كَمَنْ يتجرّع الدواء لِبُرءِ الداء ، ولم أكن أَغْتَنِي لِأَحَدٍ في الحقِّ من جهالة ولا غفلة ، إلّا أن تكون مسامحةً وتُغْفَلُ لِأَمْرٍ يُراد ، أو مُتَبَاعَةً لِقَوْلٍ في حينه تَلَطُّفًا وَقَلَّةَ خِلَافٍ على قائله ؛ ثمَّ أَصْرَفُهُ تارات . * فالجاهلُ عندنا مَنْ ^(ب) ٤١ إذا أشارَ بِرَأْيٍ ، ثمَّ رأى أَنَّهُ صُنِعَ ضِدُّهُ ، أن يعاودَ القول فيه : فإن كان

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » للبيداني (ط القاهرة ، ١٣١٠) ج ٢ ، ص ١٤٧ .

فَطِنًا ، من القِيَّ التَّكْرَار ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكير به غفلة .
استنقاصٌ لمُحدومه ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لم يسمع منه الأولى ، فتجربى عن الأخرى
خِلَافَ الرئيسِ عليه الأمرَ قد ظهر له ، وخفر عن القاتل ، ولم يُبرِد
عليه ؛ فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين ؛ وهو يلوم على ما لا
ويتبادى جهالةً ، وينطق هذرًا ، وتنحرف نيته على غير معنى ؛
ظالمًا لنفسه .

فَأَوَدَعْنَا كِتَابًا حِلْمًا ، وَأَمْنًا ، وبقي في جملة الجند تحت
وإحمال ، غَيْرَ أَنِّي لم أَسْتَعْمِلْهُ بعدها في مَعْقِلٍ ، ولا مَكْنَتُهُ من
إذ « لا يلدغ مُؤْمِنٌ من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » (١) .

(١) راجع « مجمع الأمثال » للميداني ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة

حصن لِيَّط

٤٦ — مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

٥ وَبَقِيَتْ أحوالنا على أَفْضَل ما يُمْكِن ، وَبَلَّغْنَا مِنْ آمالنا غايَتها ، إلى أَنْ حَدَثَ أَمْرُ المُرَاطِطِينَ — أَعَزَّهم اللهُ — . وَكُنَّا رَأِينا كَلَبَ النِصرانيِّ على الجِزيرة وأَخَذَهُ لَطْلِيظَةً ، وَقَلَّةَ رَفَقِهِ ، بَعْدَ ما كان يَقَعُ مَنَّا بِالْجِزْيَةِ وصار يروم أَخَذَ القِوَاعِدَ ، وَأَنَّ أَخَذَهُ لَطْلِيظَةً للضعف للتوالى عليها عامًا بعد عامٍ ؛ وكذلك كان مِنْ شأنِهِ في أَخْذِ البلاد ، إِذْ كان مَذْهَبُهُ أَلَّا يُنَازِلَ مَعْقِلًا ، وَلَا يُفْسِدَ أَجْنادَهُ على مَدِينَةٍ ، لِبُعْدِ مَرَامِها وَمَنْ فيها مِنْ مَخالِفِ مِلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا كان يَأْخُذُ مِنْها الجِزْيَةَ عامًا بعد عامٍ ، وَيَعْنِفُ عَلَيْها بِما شاء مِنْ أَصْنافِ التَّعَدَّى ، إلى أَنْ تَضَعِفَ وتَلْقَى بِيدها كما فَعَلَتْ .

فَوَقَعَ مِنْ ذَلِكَ في الأَنْدَلُسِ رَجَّةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَشْرَبَ أَهْمَا خَوْفًا وَقَطَعَ رِجاءَ مَنْ اسْتَطاعَها . وَجَرَتْ بَيْنَ الْمُعْتَمِدِ وَالْفُؤُوشِ مُخالَفاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَسأَلَهُ

أن يتخلى له معاقِلَ كان الموتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،
 ورام كسره بطوائف المرابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدر الذي شاء الله :
 إذا لم يكن عونٌ من الله لافتي فأكثرُ ما يجني عليه اجتِهادهُ
 * وقد كان أخونا صاحبُ مالقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٧ (١)
 ٥ داخلهم قبلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنّا بهم ، وأن يُدركوه
 ما فاتهُ من مملكة جدّه ؛ وظنّ أنّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني
 وبينته . وكان هذا الخلافُ كُلّه من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تشنّجتنا
 أنّه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجبههُ الأميرُ
 إلى شيء ، ولا كان وقته ، وهو يُلحُ عليه بقلة الدربة .

١٠ ٤٧ — إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال

المرابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رُسلُ المُعتمد قبل هذا قد وردت عليه ، نُقله أن يتأهبَ
 للجهاد ، وتعدّه بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سبتة إلا ويضعها
 في يديه . فلما وصل متأهباً لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسله إلى
 ١٥ المُعتمد ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأحسن ؛ فأمنسكهم بإشبيلية مُدّةً
 طويلةً ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتعلّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ
 إشبيلية من يقول له : « ترَبّصْ من سبتة مُدّةً من ثلاثين يوماً ، إلى أن
 نُحلي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسأله خطاً يده وبالتربّص .
 فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يجعلك ابنُ عبّاد في هذا الالتواء إلا
 ٢٠ لأنّه يريد أن يرسل إلى ألفونس يُعلمه بقدومك ؛ ولعله يتأبّى له منه ما يرغب ،

ويهدده بك ، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأَسْبَقَهُ إليها ! وإن كان النصراني لا يتأتى له ، أَرْسَلَ إليك في الجواز ! »

- ولما انفصل الرُّسُلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،
- ٥ جهَّز عسكراً مُقَدِّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تَصِلْ الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والعسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصَّنَاعَةِ . فالتفت القومُ إلى خَيْلٍ قد ضربتُ سَحْلَتَهَا ، لم يُدْرَ متى أَقْبَلَتْ ؛ ولم يُصْبَحْ لهم إلَّا وطائفةٌ أُخْرَى بعدها ، يزيدون ويترادفون ،* حتى انكَل (ب) العسكر كُلُّهُ على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأُحْدَقُوا حَوَالِيهَا يحرسونها .
- ١٠ ونَادَى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمُونَا بالجزيرة ! ونحن نَأْتِ لَأُخَذِ بِلَدِّ وَلَا ضَرَرٍ بِسُلْطَانٍ ! إِنَّمَا أَتَيْنَا لِلْجِهَادِ ! فَاثْمًا أَنْ تُخْلِيَهَا مِنْ هُنَا إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِلَّا ، فَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَاصْنَعِ ! »
- وخطبَ أميرُ المسلمين ابنُ^(١) عبيد ، يُعْلِمُهُ بِمَا صَنَعَ ، ويقول له : « كَفَيْنَاكَ مَوْثَنَ الْقَطَائِعِ وَإِرْسَالَ الْأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كَمَا وَعَدْتَ ! » فَأَرْسَلَ
- ١٥ الْمُعْتَمِدُ لابنه الراضى في إخلائها لهم ، وحصل فيها داوود . وأتى الأميرُ إليها ، ودخلها ناظراً إليها ؛ ثُمَّ انصرف إلى سَبْتَةِ إِلَى وَقْتِ إِقْبَالِهِ . وأمر داودَ بالتقدُّم إلى إِشْبِيلِيَّة ؛ فاستوفت العساكر على إِشْبِيلِيَّة .
- وقد كان رُسُلُنَا مَضُوا مع رُسُلِ الْمُعْتَمِدِ إلى أمير المسلمين ، على اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنَا فِيهِ بَعْضًا إِلَى حَقِيقَةٍ ، وعَاقَدْنَا أمير المسلمين على أَنْ تَتَّصِلَ الْأَيْدَى عَلَى غَزْوِ الرُّومِ بِمَعُونَتِهِ ، وَأَلَّا يَرْضَى لِأَحَدِنَا فِي بَلَدِهِ ، وَلَا يَقْبَلَ عَلَيْهِ رَعِيَّتُهُ مِنْ يَوْمِ الْقِسَادِ عَلَيْهِ .
- ٢٠

(١) أصل : « لابن » .

٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حُلُولِهِ بِإِشْبِيلِيَّةِ ، عن جميع الرؤساء ؛ قائماً ابنُ صُمَادِحَ ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصاً ليرى كَيْفِيَّةَ الْأَمْرِ وَتَخَرُّجَهُ مَعَ الرُّومِ ؛ واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف ، وأرسل ابنه مُعْتَذِراً . وبأدْرَنَّا نَحْنُ إِلَى الْخُرُوجِ ، وسَرَرْنَا بِذَلِكَ ، وأَعَدَدْنَا مَا اسْتَطَعْنَا عَلَيْهِ لِلْجِهَادِ بِأَمْوَالِنَا وَرَجَالِنَا ؛ وَقَدَّمْنَا الْهَدِيَّةَ إِلَى أمير المسلمين ، وَأَمَرْنَا بِضَرْبِ الطَّبَلِ وَمَا يُسْتَعَدُّ بِهِ لِلْفَرَحِ ، عند مُحَاطَبَتِهِ لَنَا بِدُخُولِ الْجَزِيرَةِ . وَظَنَّنَا أَنَّ إِقْبَالَهُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لَا سِيَّما خَاصَّةً مِنْ أَجْلِ الْقَرَابَةِ ، وَلِذِي شَاعَ مِنْ خَيْرِهِمْ ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَحُكْمِهِمْ بِالْحَقِّ ؛ فَنَعْمَلُ أَنْفُسُنَا وَأَمْوَالُنَا فِي الْجِهَادِ مَعَهُ كُلِّ عَامٍ : فَمِنْ عَاشَ مِنَّا كَانَ عَزِيزًا ، تَحْتَ سِتْرِ وَحَايَةٍ ، وَمِنْ مَاتَ ١٠ كَانَ شَهِيدًا . وَالْعَجَبُ فِي تِلْكَ السَّفَرَةِ مِنْ حُسْنِ النِّيَّاتِ ، * وَإِخْلَاصِ ٤٣ (١) الضَّامِرِ ، كَأَنَّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا جُمِعَتْ عَلَى ذَلِكَ .

ولَقِينَا أمير المسلمين فِي طَرِيقِهِ إِلَى بَطْلَيْوَسَ بِمَجْرِيَّةٍ ، وَرَأَيْنَا مِنْ إِكْرَامِهِ لَنَا وَتَحْفِيهِ بِنَا مَا زَادَنَا ذَلِكَ فِيهِ رَغْبَةً ، لَوْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَمْنَحَهُ لِحُومِنَا ، فَضْلاً عَلَى أَمْوَالِنَا . وَلَقِينَا الْمُتَوَكِّلَ ابْنَ الْأَفْطَسِ مُحْتَفِلاً بِعَسْكَرِهِ : كُلُّ ١٥ يَرْغَبُ فِي الْجِهَادِ ، قَدْ أَعْمَلَ جَهْدَهُ ، وَوُطِّنَ عَلَى الْمَوْتِ نَفْسَهُ .

٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس

وَتَلَوَّنَا بِبَطْلَيْوَسَ أَيَّامًا ، حَتَّى صَحَّ عِنْدَنَا إِقْبَالُ أَلْفُونَشَ فِي حَفْلَةٍ ، يَرُومُ الْمَلَاقَةَ ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ يَهْزِمُ الْجَيْشَ لِقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ قَبْلَ . وَسَاقَهُ الْقَدَرُ

إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن يازاء المدينة ،
 متربصون : إن كانت لنا ، فيها ونعمت ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا
 حرزاً ومقلاً نأوى إليها . وأمير المسلمين يُدبّر هذا الأمر بحسن رأيه ،
 ويلتوى ، عسى [أن] تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغل في
 بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون من لهم أو عليهم ؛ ورجا
 ٥ بأن يكون الرومي لا يخرج إليه أحد ، فينصرف طريقه ، ويكفي الله
 المؤمنين القتال ، إلى أن تُريه الأور وجوهها . فلا يسمع إلا الأمير
 متربصاً لآليات طاف به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مدوِّخاً
 لها . والنصراني في هذا كله يقرب متعاطياً ، لا يعمل حساب من يُغلب ،
 ١٠ إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيف ؛ ولو لم يكن
 إلا يأكله الطريق ويبعد المسافة .

ثم أرسل ، على يدى ابن الأفضس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له :
 « ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك ، وأنت تتربص وتختبئ لأصل المدينة ! »
 فلم يكن بُدَّ أن يُنقل إليه ، ليكون الجيش على مقربة منه . وتوآعدا
 ١٥ اللقاء في يوم سميّاه . ولم يكن بين المحلتين إلا نحو ثلاثة أميال ،
 فاستأخ المسلمون إلى ذلك الوعد ، * وحلّ الناس عن أنفسهم ؛ وكانت ٤٣ (ب)
 خيرة أن لو ركبَت الفِئتان ، لم تنفصل إلا عن قَدِّ الأكثر من عسكر
 للمسلمين ، حسبما تُوجِبُه الموافقة للقتال .

فجأهم عسكر الرومي ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنما له
 ٢٠ ما ألقى في تلك الساعة ، وألقى سُمّه في الرّحل ؛ ومات منهم خلائق ممن
 لم يكن يقدر على نفسه . فلم تقع الصيحة على الجيش [إلا] وركبوا في

طلبهم ؛ وهم قد كلوا وثقلهم السلاح مع بُعد المسافة . فافتنى المسلمون آثارهم ، وركبهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلأق ، وتبددوا في الطريق فن بين قليل وميت متقل ضريع . ولو أن تلك الواقعة تكون على إعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهما في اللقاء ، لقُتد من العسكرين الأكثر ، كالذى توجه الرتبة ؛ لكن الله لطيف بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر .

٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس

بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقضت غزوته تلك، جعنا في مجلسه ، أعنى رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تقتصرنا إلا للذى كان من تشئتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة .

وانتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مالقة ، وقال من غير روية : « إن أحوالى قد ضاقت بتمدنى أخى على بلادى وميراث جدى ١ » يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقه منا . فلما قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك فى هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لى ؟ » فلما قال له : « لا ا » رد عليه : « ما ينبغى لنا ذلك إلا برضاه ! » ولم يمكننا فى ذلك الحين السكوت لئلا يلزم من شكر الأمير ، و [كانت] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عذرنا ألا يفتسب إلينا بعد نسبه .

- * قُلْتُ لَهُ : « إِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلَّا مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجِهَادِ ؛ ٤٤ (١)
- وهو لا يرضى أن ينقض ما أَخْكَمَهُ آبَاؤُنَا مِنْ قِسْمَةٍ مَا قَسَمُوهُ مِنْ بِلَادِهِمْ بَيْنَ أَبْنَائِهِمْ . وَلَيْسَ مِنْنَا أَحَدٌ حَصَلَ عَلَى شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ ، إِلَّا بِمَا تَهَيَّأَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْأَبَاءِ مِنْ بَعْدِهِ ، مَعَ إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الرِّضَى بِمَنْ تَخَيَّرُوهُ . وَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — رَتَّبَ ذَلِكَ ، وَرَأَى أَنَّ مَا لَقِيَ لَا غِنَى بِهَا مِنْ غَرْ نَاطَةٍ ؛ فَجَعَلَ أَمْرَهَا مَصْرُوفًا إِلَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ ، كَالَّذِي كَانَتْ فِي حَيَاتِهِ . فَأَنْقَضَتْ مِنَ الْأَمْرِ مَا أَبْرَمَ ، وَقَطَعْتَنَا ، وَأَرَدَتْ الْإِسْتِبْدَادَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ وَلَا أَصْلٍ . وَلَوْ رَأَى جَدُّكَ فِي ذَلِكَ صِلَاحًا ، لَأَعَدَّ لَكَ لِنَاكَ عُدَّةً تَغْنِيكَ عَنَّا ؛ وَلَمَّا تَعَدَّيْتَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، سَمَّيْنَا فِي صَرْفِ بَعْضِ الْحَالِ إِلَى مَا رَتَّبَهَا عَلَيْهِ الْجَدُّ ؛ وَلَمْ نَبْلُغْ فِي ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي تَجِبُ بِأَنْحِيَاشِكَ وَفَارِكَ . وَهَذَا مَا وَقَعَ ! فَإِنْ شَاءَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْتَغِي مِنْ جَدِيدٍ ، وَيَنْقُضَ مَا رَتَّبَ الشَّيْخُ ، فَهُوَ لَنَا بِمَنْزِلَتِهِ : أَمْرُهُ نَافِذٌ ! وَإِنْ رَأَى مَا فُعِلَ مِنْ ذَلِكَ سِدَادًا وَصِلَاحًا ، فَلَأَيَّ وَجْهِ نَكَلْفُهُ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ ؟ » فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ بِهَذَا ، وَقَعَتْ مُسَاكَنَتُهُ . وَأَمَرَ الْأَمِيرُ بِأَنْصِرَافِنَا ، وَلَمْ يُعِدْ فِي ذَلِكَ بَعْدَهَا مَجْلِسًا إِلَّا فِي سَفَرَةٍ رَئِيسُ الْمَمُونَةِ . ١٥

وَأَخَذَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْصِرَافِ إِلَى بِلَادِهِ ، وَهُوَ قَدْ أَطْلَعَ عِيَانًا وَسَمَاعًا مِنْ اخْتِلَافِ كَلِمَتِنَا مَا لَمْ يَرَ وَجْهًا لِبَقَائِنَا فِي الْجَزِيرَةِ . وَأَنْسَ الْجَمِيعَ ؛ وَلَمْ يَتَرَبَّصْ فِي الْبِلَادِ إِلَّا يُوحِشَ سَلَاطِينَهَا مِمَّا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ أَنْحِيَاشِ رَعِيَّتِهِمْ إِلَيْهِ ؛ فَكُلُّ مَنْ شَكَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْوَقْتَ مِنْ رَعِيَّةٍ ، يَقُولُ لَهُ : « لَمْ نَأْتِ لِهَذَا ! وَالسَّلَاطِينُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُونَ فِي بِلَادِهِمْ ! » حَتَّى أَزْدَادَ بِذَلِكَ مَحَبَّةً إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي قُلُوبِنَا ، وَإِلَيْهِ اسْتِنَامَةٌ وَمَيْلًا . وَرَجَعَ الْكُلُّ إِلَى وَطَنِهِ . ٢٠

٥١ — عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

حصار حصن لبيط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الرُّومُ من تلك الواقعة خوفاً وانكاشاً . ولم تزل الحالُ صالحةً إلى سَفَرَةِ لبيط .

٥ وإنَّ الْمُعْتَمِدَ بنَ عَبَّادٍ ، لَمَّا رَأَى من خِلَافِ ابنِ رَشِيقٍ عليه ، وأَنَّهُ أراد أن يَضَعَ ابنَه الرَّاغِيَّ بِمُرْسِيَّةٍ عِوَضاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريه الطمانينة ، ويحكم معه* ما شاء من ٤٤ (ب) عملٍ في مُرْسِيَّةٍ وغيرها . وعَظَّمَ له شَأْنَ لبيط ، وأَنَّهُ في قَلْبِ البَلَدِ ، وأن لا راحة للمسلمين إلا بفَقْدِهِ ؛ وعاقَدَهُ على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله ، لِكَيْ يَتَهَيَّأَ سَلَاطِينُ الأَنْدَلُسِ حَرْبَهُ بَعْدَهُمْ وأَجْماعِهِمْ ؛ فَيَأْمَنُوا مَن يُقْلِعُهُمْ عنه .

وَأَتَقْنَا كُتُبُ الأَمِيرِ ، يَأْمُرُنَا عِنْدَ جِوَاذِهِ ، بِالامْتِعَادِ لِلْقِتَالِ وما شَاكَلَ ذلك . ففَعَلْنَا ، وبَادَرْنَا ، رَغْبَةً في الجهاد ، وَحُبَّةً فيه ، وإِثَاراً له ؛ وَخَرَجْنَا إليه ، وَلَقِينَاهُ في حَيِّزٍ من بَلَدِنَا ، بما يُطَابِقُ مِثْلَهُ من الهدايا والتُّخَفِ . وَأَجْمَعْنَا على السَّيْرِ إلى لبيط . ١٥

فَنَازَلْنَاهُ على أَمَمٍ ما يُمْكِنُ من الرِّجَالِ والعُدَدِ ، كُلُّ رَئِيسٍ يقاتِلُهُ على حسب مجهوده ، وما تبلغ استطاعته وحيلته ؛ وهو قد امتلأ برعية الجبهة ، كُلُّهَا من النصارى ، وأَعَدُّوا فيه ما يَحْتَاجُ من كُلِّ شَيْءٍ ، قَلَّ مَن نَظَرَ على سَعَةٍ ؛ وَهُمْ في ذلك يَهْدُدُونَ بِمَجِيءِ الْفُؤُوشِ ، ويريمون الحيلة بالتَّغْيِيرِ كُلِّ لَيْلَةٍ ؛ والقِتَالُ عليهم كُلِّ يومٍ لا يَفْتَرُ ، مع البُنيانِ في المواضع ٢٠

المهمة عليهم ، ونصب المجانيق والعرادات ، حتى لم يبق عمل يوم به اقتراس المعاقل إلا وصنع . وأتى ابن صمادح بفيل أقامه ، وخرق به العادة : أصابه من الحصن قبس نار ، فأحرقه . وفي كل ذلك لا ينجح عمل ، ولا تظهر فيه للمسلمين فرصة ، لما شاء الله من اختلاف الكلمة . ٥

٥٢ — مُحاصَرة لَيْيَيطَ تصوّر فوزى ملوك الطوائف

في ذلك الحين

وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس . ورعيهم في ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه : فالراضي منهم يلتبس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ؛ وجعلوا في شكوايهم قهواءهم ١٠ وسائط ، يقصدون نحوم : منهم الفقيه ابن القليبي ، قد صار خباؤه بتلك المحلة منطيطا لكل صادر ووارد ، يجد بهم السيل إلى الطلب ، للقدّر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الإنفاق ، ما قلق به ١٥ وساء الظن من أجله : * جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم (١) ٤٥ المرابطين كثيرة ، وتصف متوالية ، لو فرط منها في شيء ، لانخرمت عليهم الأحوال ؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة ؛ فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى ٢٠ استئصال ، كالذي جرى .

ونسع في هذا كله من أهل جهاتنا تهديداً وعصيانياً أنكرناه ، لا تم به تملكه ، ولا يتهياً معه قضاء حاجة . ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً ، ويعدهم بما كان ؛ فلما كان يأتيهم الحفر منّا ، يقعدون بنا ، ونحن أخوج ما كنّا إليه للإفناق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدتّنا فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم . فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة الملعونة ؛ فكأنما مئلق أبان الطيب من الخيث ، وكشف العورات ؛ فلم يزد الرؤساء إلا توحّشاً ، ولا الرعية إلا تسلطاً ، ولا الداخلون على مثل هذه النصبه إلا طمعاً ؛ وحقّ لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم في أسباب الفرق : فن اغترّ منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب ، وشغله ذلك ممّا هو في سبيله ؛ ومن ميّز ، انفراد ، لم يجد معيناً حتى تَوَغَّل في اللجة وأخذته المحلة . وكانت مقدّمات سوء ، وزماناً على السلاطين عسيراً ، وسعداً للرُباطين مُقْتَبِلاً .

٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رَشِيق

١٥ وأتى ابن رَشِيق عند ذلك مُفسِداً برّعه لِمَا عقده ابن عباد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للرُباطين ، وسارع إلى قضاء الحاجات . واصطنع إلى الأمير سير - أعزّه الله - وعول عليه ؛ فأكرمه الإكرام الشنيع . وألقى ابن عباد يده في قرور ، مُعوّلاً عليه في القضية ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمكثير على كل حال يغلب المُقل ، وإن شَفَّ عليه باليسير . ٢٠ وأعطى ابن رَشِيق الأمان ، وبُولِغَ له في التأنيس ، حتى غره ذلك

- وانبسط له ؛ وتاة على ابن عباد ، وأظهر مَتَصِيَّتَهُ والانخياشَ منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بِمُرْمِيَةٍ على اسم أمير المسلمين دون ابن عباد .
- والمُتَعَمِّدُ ، * في هذا كله ، يَرَى من الأمر ما يفيظه ويكرهه ويتقطع ٤٥ (ب) منه حسرات ؛ وحقَّ له ؛ فلم يَتمَّ عن القضية ؛ وأَحْكَمَهَا مع القُتَّاء ، واحتجَّ عليه بأحكام السُّنة ؛ وكان مَنَّ اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْعِي ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرَى ابن رَشِيق ما يَحِلُّ به ! فقد شُورَرْنَا في أمره . وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره ، فَعَلْنَا به مِثْل ذلك ! » وكانت هذه الكلمة مِمَّا أَوْحَشَتْنَا وَغَيَّرَتْ أَنْفُسَنَا عليه ، مع تهديده تلك
- ١٠ السفارة ، وَضَرَبَهُ الأمثال ، وَحِدَّةَ مَعَانِيهِ ، واستطالَّتْ بِلْسَانِهِ ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا نقدر نَحْنُ نَشْكُو به بلا بَيِّنَةٍ ولا إقامة بُرْهَانٍ : فتكون له الحُجَّةُ ، وَتَقَعْ نَحْنُ في الخِزْي ، لاسيَّما بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العِلْمِ .
- وإن أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عباد مع ابن رَشِيق ، واختلافَ ١٥ ما بينهما ، أَعْمَلَ في ذلك عَقْلَهُ ، ودبره برأيه ، وقال : « ما تَبَغَى لنا مُفَاسِدَةُ ابن عباد من أَجْلِ ابن رَشِيق ، لاحتِاجِنَا إليه فيما نَحْنُ بِسَبِيلِهِ ، وَنَحْنُ لم نَأْمَنْ أَمْرَ الرُّومِيِّ . والأوْكَدُ عَلَيْنَا في هذا الوقت مُدَارَاةُ ابن عباد ، حَتَّى تُرِينَا الأُمُورَ وَجُوهَهَا ! » فتعسَّفَ على ابن رَشِيق في الذي أظهر من الخِلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يَجِبُ لك أن تُقَدِّمَ بدَعْوَتِي للقيام على رَئِيسِكَ ، فتَوَقَّعَ بَيْتِي وَبَيِّنِهِ الشُّعْنَاء ! » وقال في نفسه :
- ٢٠ لم يفعل ذلك ابنُ رَشِيق إِيثاراً لي ولا مَحَبَّةً لِحَبَّتِي ! أكثر من اضطرام

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيما أن معونته للرؤوم بليّيط لم تخف على أحد ؛ يستعد أن يبقاها يثبت في مُرسية ! « فكان أبداً يميزهم ويقوّمهم بما يسجرون عنه ، إبقاءً لمرّهم ، وخوفاً من الداخلة عليه بقدّم . وصحّ ذلك عند الأمير ، والمُعتمد في هذا كله لا ينأى عنه ، ويستقّي فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أوّل أخذه لمُرسية . فانفقت عليه الأسباب ، وصنع له مجلسٌ أفتوا فيه بإزاحته عن المسلمين ، وإسلامه لسلطانهِ . فاستغاث عند ذلك * بالأمير ؛ فأجابه : « إنه لو كان لك عندى حقٌ ، لو هبته لك ، غير أنها أحكام السنّة ، لا أستطيع على إزاحتها عن مراتبها ! » وأمر بتنقيفه وإسلامه إلى المُعتمد . وقيد في الحديد ، ورأى هوأنا عظيماً . وأمرَ للمُعتمد الراضى ابنه أن ينزل في تحكته على المقام ؛ وكأنّه لم يكن بالأمس . وأرسل الأمير إلى أهل مُرسية يأمرهم بالرجوع إلى صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كلٌّ من فيها من ابنه وقرابته ، وثقّقوا مدينتهم وجفّوا كلٌّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائط كثيرة تكرّرت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شىء .

٥٤ — رفع الحصار عن ليّيط .

١٥

تفرّق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخت الحلة ، وطال مكثها ، وملّ الناس إلى أن ورد الخبرُ بقدوم ألفونس إليها ؛ فسأت الظنون من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين أن الرجوع عنها والانصراف أولى ، لطول مكث الناس وفشلهم ، مع جام القادّمين من الرّوم ومع خلاف مُرسية ، لئلا يسندوا إلى ميرها ومرافقها

٢٠

- إذ أنهم أرسلوا عن الفونش وقت خلافهم . فأخذ في الانصراف .
- ووقعت بين المعتد والمعتصم ، صاحب المريّة ، مشاجرات وتباعات باردة في معقل من نظر الجبل وفي أمر شربة ، ما وقع فيه الشكوى إلى الأمير . وانفصلا على غير موافقة : كل ذلك من النحسة المقضية عليهما .
- ومثل ذلك جرى لنا مع أخينا صاحب مالقة ؛ وجعل يكرّر في ذلك النظر الذي تكلم فيه سفرة بطليوس ؛ وحفز في ذلك برّعه ، وقال لي بقلة درّيته : « إنما منع من ذلك السفرة الأولى ذكرى له عند انفصال الأمير ، فلم يدرك ولا أدركنا ، والآن ، فلا بدّ من ذكره على سعة ؛ وإلا ، فالحق بيني وبينك ! » فلم تخف لقوله ، ولا كابرته ، لعل أن الأمير لا يحفل بشيء من هذا كله . ولما رأى أمير المسلمين كثرة طلبه لنا ، أرسل إلينا قروراً ، يقول لنا : « لا يربك شكوى أخيك ؛ فإن السلطان لا يسعه أن يقول له : « اسكت عن طلبك ! » ، ولا يعطيه عليك يدًا ، غير أننا نلوى القصة مرحلة * بعد مرحلة ، حتى يقع (ب) الانفصال . » فشكرته على ذلك . وقال : « إن غرناطة عليه آكد من مالقة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزواته ، وما أشبه ذلك من المرافق ؛ فتقدم أنت الآن ، وأعد جهذك ما يجب من ضيافة السلطان إذا [كان] خطوره عليك ؛ وهو ما ربك على غرناطة في انصرافه ! » فسرّني ذلك ، وتقدّمت إلى وادي آش ، وأعددت له ما كان جديراً به .

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن مُبَلِّغ بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لبيط : إجراءات

دفاعية وسياسية

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط . مسلك قرور .

٥ ولما وصلت وادي آش ، وقد ظهر إلى قبل في لبيط من جفاء قرور
وتخويفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافل ، غير أنني
حسبت ذلك من قبله لما رأيته من مكاتته عنده . فأذكر كني من ذلك رغب
شديد . وعانيت مع هذا ما حلّ بابن رشيقي ، وسمعت وعيد القليعي لي ،
وجفاءه علي ، وإزالة رقبتي عنه ، ما زادني ذلك جرعا ، لاسيما أن الجزع
والسوداء متمكنة من نفسي ، وأجدها في طباعي ؛ كدت أن أموت غما .
١٠ ولم أر قط قبل ذلك ذلا ولا كدرا ؛ فأنكرت الأمور كلها مع السلطان ،
على حسب ما كان يُكرمني سفرة بطليوس ، ورأيت ضد ذلك كله ؛
وقرور يُناصبني المداوة ، ويرسل المشاورين إلى هواني ، ويأمرني في حال
تلك الحرب بأوامر باردة ، يريد بها إذلالا ، ويظهر إلى فيها التعنيف
١٥ والتعسف .

فلما دخل نظري ، أراد إصلاح ما أفسد معي . فعلمت أن ذلك ليس

لنية صلحت ، بل لحاجة عرّضت ودفعت إليها ضرورة من قبل الاجتياز على .
ولأجل ذلك ، قال لي على لسان الأمير في خبر أخى ما قال ؛ وتبين لي أنه ،
لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلب قرور منى عليها رشوة . فإنه مع
ذلك لم يخلنى من مؤنتها ، وعمل لي حجة في دفع ضرر أخى عني ،
وأخذ منى عليها ألف دينار مرابطية ، لم أنجزاً قط على ذكرها مدة حياته ،
لثلاث طلبني عند الأمير ؛ ثم لم تنفصل ساعة أن انصرف ، وطلب لرئيسه
خمسة دينار ؛ فأعطيتها له ، وكذلك كل ما يطلب بأمره وتهديده ، مع قلة
رحمته ورفقه ، * وخشونة لفظه . ثم أعطيته في غرناطة ألف دينار أخرى ٤٧ (١)
باسم كسوة خيله . وأما الذي صار إليه في سفرة بطلينوس ومدة كونه على
لييط مع الرسل ، فأكثر من أن يحصى ؛ وهو في ذلك كله لا يزداد إلا
نفاراً واستكباراً . ومثل هذه الوسطة تفسد على الرئيس كثيراً ، وتبفض
إليه جماعته .

[أرسل في] أمير المسلمين ، وأنا يميننا ؛ فسألني عما صار إلى قرور
من قبلي ، فرويت الأمر بأخزم ما يمكن ، وقلت في نفسي : « إن أعلنته
بذلك ، وهو على حال التمكين عنده ، فربما أخرجه كتابي عليه . وقرّعه به ؛
ثم استقره على مرتبته ؛ فيكون حتى على يديه ؛ ولو أنني تأمن مكره ،
لأعلنته بالحل ، أو ربما يقع الكتاب إلى يد قرور من غير تعمد ، والغرر
لا يدخله إلا أهوج ؛ وكثير من الحق يجب تركه ، [وفيه فائدة] بصاحبه ؛
فلم يسعني أن أقول في جوابي للسلطان إنه لم يصر إلى [بغير رشوة] ؛
فيكذبني ؛ إذ كان يعلم بلا شك أننا لم نخله من ذلك الدفع التي ٢٠

أعلمني رُسُلِي . وصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا حَيْثُ يَصْدُقُنِي ، وَلَا يَقَعُ
قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي (١) »

٥٦ — بعض المؤامرات وتحاذل ابن القليعي

- ٥ [أَمَّا أَخُونَا تَعِيمٌ ، صَاحِبُ مَالَقَةٍ ، * فَإِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ (٤٧) رِبًا]
مُتَقَالًا ، يَسْتَغْفِرُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ
الْمَذْكُورِ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ .
- وقال لي ابنُ القليعي : « هذا وقتُ اقتراضك لهذا الرجل ، بأن
تَكْتُبَ إِلَيْهِ ، وَتَعِدَهُ بِالْقَضَاءِ عِنْدَ انْصِرَافِكَ ، وَهُوَ يَسْمَحُ فِي قِصَّةِ أَخِيكَ ،
عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مَعَهُ فِي أَحْكَامِهِ . فَإِذَا أَلْصَقْتَنِي بِهِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مِنْ
١٠ تَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى مَرْغُوبِكَ عِنْدَ الرُّبَاطَيْنِ وَفِي بِلَادِكَ ؛ فَإِنَّكَ ، لَوْ شِئْتَ أَنْ
تَأْخُذَ مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا بغيرِ الناموس ، لَسَمِجَ عِنْدَ النَّاسِ ؛ وَإِذَا أَخَذْتَ
أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ ، حَلَّ لَكَ أَخْذُهُ ، وَلَمْ يَسْتَبْشِرْهُ أَحَدٌ . وَلَا أُجِدُّ
أَحَدًا [يَنْفَعُ لَكَ] مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ ! » وَلَمْ يُبَارِحْنِي حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِ
بِخَطِّ يَدِي رُقْعَةً تَتَضَمَّنُ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسَانَهَةٍ وَمُشَاهَرَةٍ .
- ١٥ وَرَأَيْتُ إِبْجَابَتَهُ إِلَى ذَلِكَ صَلاَحًا بِي وَخَطَأً بِأَخِي ، وَلِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ
مَسَايِرَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . [وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ] قَدْ حَرَصَ عَلَى
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا أَرَاهُ يَبْتَدِئُ إِلَّا بِي ، مَا لَمْ وَفِي هَذَا
فَسَادُ مُلْكِي وَخَلْيَ ، وَيَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ (٢) .

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

(٢) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

« . . . * وبك واثق غير أنك قد جعلت لي بقولك هذا من الحرص (١) ٤٨
 على هذا المال ما أريد أن تعلمي ممن يقبض ! » فإني لا أكاد أن أصدقك ،
 لاحتياجي إلى ما تحن بسيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كل عام .
 فجعل يسئ لي أقواماً لا يعشرهم في الخير والفضل ، وقدم ذكر
 صاحب الأحباس ابن سلمون ، وتسبب إليه برسم الأحباس ، وغيرهم ممن
 لم يبل منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلت في نفسي : « الله أكبر ! ما قصد
 هذا إلا إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا ، ألا وهو يريد إفرادنا دونهم ، لئتمكن
 بما شاء ، ولا نجد صديقاً نستريح إليه ، مع ماتيين من إنفاسه ، وحدة
 مقاطعه ، وأغراضه القاتلة ! »

١٠ والذين تبصرون في غيبتي محدثيها إن كان من حزبيها أو من أعاديها
 وجعل يطلب بني السنيدي والكتبة وغيرهم ممن قد اصطنعناه [وأنتم]
 أماتته ؛ ثم قال لي : « كل ما رأيت من السلطان في لييط
 كان مثلي أن يجعل لك مجلساً ولغيرك تسه وأنت على
 سعة ، وأفعل شيئاً تبطل به حجته [عليك] (١)

١٥ « . . . * كنتم عليها من الترقب والإنذار بالعيال نفثة حاقدة . » ٤٨ (ب)
 وكان هذا القليعي مخملاً في أيام الشيخ جدنا — رحمه الله — ؛ وكان
 لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكني ضيعته ، لما كان يرى من شره
 وقدرته على الدواخل . فلما ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مؤمل وغيره ،
 ووسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام ، وأنه لا أحد يقدر على استمالته
 ٢٠ المرابطين على ما هو عليه . فوجهته رسولاً ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ،

(١) نحر نحو نصف صفحة في الأصل .

ويسعى في هلاكى في الباطن ، وينتف بذلك ، على ما صحَّ عندى ، ويقول :
« والله ! لأبلغنَّ حفيدَ باديس الطينة السوداء ، ولأشوقه إلى درهم ينفعه ،
[وذلك] على صنيع جدِّه بى وبغرى ! »

وأخبرنى أبو بكر بن مُسكَّن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين في
أول سفره معه ، ولقى في الطريق خبر دخوله [الأندلس] ، وقال :
« هذا على رَغَم أنوف القسَّة سلاطين الأندلس ! » فقال أبو بكر بن مُسكَّن :
« وتُخلطُ معهم سُلطانك ؟ » فقال : « نَسَم ! وهو المُقدَّم إن شاء الله !
..... مات لتنفذ الأقدار ! » فلما أذن الله بانصرافه تكلم
ابن سهل إلى الأمير وقال له : « أنت على » (١)

١٠ « . . . * نحن بحال لا يرضى عنا فيه لا رعية ولا جند ؛ وفي هذا
الفساد والقطع . فقال لى القلئعى : « إن تُعين عليك الجند ، استنجدت
من العدو من يغنيك عنهم . ودعنى ورأى بعد إشراكى مع ابن سهل ،
ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

فرايتُ أمراً مُعَمًى ومستأثراً به دونى ، مع ما كان ينطق به لسانه أبداً
١٥ من الوعيد ، والتهديد عند أصدقائه ومن ينقل ذلك إلى عنه أنه يقول :
« والله لا أبلغنَّ من حفيد باديس ما كان يبلغ جدُّه منى ومن غبرى ! »
يسرح بذلك لقلَّة تحفظه وإرساله لسانه ، ولاحتقاره لنا واحتياجنا إليه . فزاد
ذلك الجند قلقاً ، وهُموا بالانتقال مُجتمعين على ذلك .

فلما بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ فى نفسى : « أنا بسبيل ، إن استفسدتُ
٢٠ إلى الجند ، وهم جناحى ، أن بقيتُ وحدى مع يروم حلى . فالأولى على

(١) غرم نحو نصف صفحة فى الأصل .

كلّ حال أطباؤهم ، واستصلاح ما فسد من أنفسهم ؛ وإسقاط القليعيّ وحده واجبٌ في رضى عامّة عبيدى وأجنادى . « فجمعتهم بمحضره ، وأعلمتهم أنّي راجعٌ عن ذلك المذهب ، وراثةٌ عليهم إنزالاتهم . فقام الكلُّ على القليعيّ ، وهُموا باختطافه من بين يديّ لولا إمساكي لهم ؛ وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه ، فتكون شهرةٌ وعقوباً ، وينجرّ الأمر إلى غير المحمود .

فقلتُ لهم : « أنا أكفيكم أمره ! » وأمرتُ بثقافه على أجهل الوجوه في بيتٍ بقرب من القصر ؛ وكان تحت برٍّ وإكرام ، وأنا في ذلك أعتذرُ إليه من قيام العامة ، وأعدُّه بالانطلاق عند إطفاء النائرة ، كالذى صنعتُ .

فلما توطدت الأحوال وقررت قرارها ، أمرتُ بإخراجه ، وأنهيتُ إليه أن يكفّ لسانه ، ويدعَ فضولَ القول والعمل إلّا فيما يعنيه ويشاكل طريقته . فقال لي : « نعم ! أنا ألتزم الرّوابط ، وأملكُ سبيلَ العافية إن شاء الله ! » فلم يكن إلّا أن انطلق ، وطار* إلى أمير المسلمين بالشكوى ، ٤٩ (ب) وزاد في الطين بلةً . فقال لي الجند : « لو أنك أمسكتَه ، لم يُهَيِّج عليك النار ! وستندمُ عاقبةَ انطلاقه ! »

١٥ — ٥٧ — سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون

وأراني جميعُ الجند من التائي والاقبياد والمناصحة ما حسبتُ أنهم يُقاتلون غيًّا الدجال . فسرتُ بهذه الحالة ، واطمأننتُ إليها ، وقلتُ : « هؤلاء أمّةٌ لا يروّون بي بديلاً لإنصافي لهم ورغد عيشهم معي ؛ وهم قد رأوا جندَ العدو ، وأنّ أقلَّ عبيدٍ لهم أغنى من غيرهم ، وأصلحُ حالةً .

٢٠ فلا يمكن استبدال الأذنى بالأفضل ! » ثمّ علّيتُ قياسَ للغاربة أهل

المحسون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَظُنْ قَطُّ أَنْ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ
أَيَّامِي . وَإِنَّمَا وَجَسْتُ نَفْسِي مِنَ الرِّعْيَةِ لَطَمَهُمْ فِي حِطِّ الْمَغَارِمِ ، وَالَّذِي
شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْمُسْرِ عِنْدَ الْمُرَابِطِينَ . فَقُلْتُ : « إِنَّ بِهِذِهِ الْعِقْبَانِ الَّتِي عَلَى
رُؤُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِئُ عَلَى شَيْءٍ ! وَإِذَا تَقَفَّتِ الْمَاعِلُ ، كَانَ أَمْرُ الرِّعْيَةِ يَسِيرًا .
وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يَغْمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَمُحَاوَلَةٌ مَقْعَلٍ
وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَخْذُثُ فِي خِلَافِهِ أُخْوَالٌ . »

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَالِي إِلَى تَشْيِيدِ الْحُصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُصْلِحُهَا
لِإِخْصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدَعْ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ الْحَزْمِ إِلَّا وَفَعَلْتُهُ : مِنْ إِقَامَةِ
الْأَجْيَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطْلَحِينَ ، وَأَنْوَاعِ الْمُدَدِ مِنَ التُّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ،
وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ
مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ حَضَرَتِي ، مَا أَسْتَفْنِي عَنْ
تَحْدِيدِهِ لِاشْتِهَارِهِ .

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ
سُلَاطِينَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرُّومِيِّ ! وَلَا بُدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ
فَرَجٍ : إِنْ غَلَبَ الْمُرَابِطُ ، لَمْ يَقْتُنَا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ
مَا تَذَمُّ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا
الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُ انْتَحَرَقَ ! » نَحْنُ مُذْرِكُونَ : لَا يَنْبَغِي تَقْدِيمَ
يَدٍ سَيِّئَةٍ إِلَيْهِمْ . * وَإِنْ غَلَبَ الرُّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ نَفَعْنَا ٥٠)
مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَاتَّخَذَ الْمُدَدَ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ
لِلْمُسْلِمِينَ حِمَاةٌ وَانْجِرَارٌ إِلَى غَدٍ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الْمُرَابِطِ لَا يَنْفَعُ ! »
وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمُنَكَّبَ : إِنْ تَغَلَّبَ الرُّومِيُّ ، فَأَكُونَ عَلَى الْبَحْرِ مَتَصِلًا

- بالمسلمين ، نُدافعُ منها جُهْدَنَا ، إلى أن نُضْطَرَّ إلى الجواز وطلَب السلامة
بمُحَاشَاةِ أَنْفُسِنَا وَنُتَفِّ من أَمْوَالِنَا . فشيَّدْتُهَا لِنَاكَ ، كَالَّذِي شَرَّ عَنَّا .
- وَالْجَاهِلُ لَا يَدْرِي مَا أَوَّلُ هَذَا وَلَا آخِرُهُ ، إِلَّا وَيَخْبُطُ [خَبَطَ] عَشَوَاءَ :
فَكُلُّهُ يَتَكَلَّمُ عَلَى شَهْوَتِهِ . وَلَمْ تَعْتَقِدْ فِي أَمْرِ الْمُرَابِطِينَ — يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ —
٥ صَدَّعَهُمْ عَنْ جِهَادٍ ، وَلَا تَفَاقَرُوا مَعَ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ ، وَلَا أَرَدْتُ بِهِمْ شَيْئًا مِنْ
مَسَاءَةِ نُسَيْتِ إِلَيْنَا ، أَكْثَرَ مِنْ أَتَى جَزَعْتُ الْجَزْعَ الشَّدِيدَ مِمَّا تَقَدَّمَ
ذِكْرُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي أَبْصَرْتُهَا ، وَمَا جَرَى عَلَى ابْنِ رَشِيقٍ ، مَعَ
هَلْبِي لِنَاكَ ، وَتَمَكُّنِ السُّودَاءِ مِنِّي ، وَسَوْءِ الظَّنِّ مَعَ مَعَايِنَةِ الْيَقِينِ .
- فَقُلْتُ : « مَا دَامَ تَتَلَقَّى الْفِتْنَتَانِ ، نَخْشَى حَمَلَةَ السَّيْلِ عَلَى هَذِهِ لِلدِّينَةِ :
١٠ فَتَحْصِينُهَا أَوَّلَى ، وَلَنْ يُضِرَّ ذَلِكَ » فَتَى دَعَانِي أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى إِعْطَاءِ
عَسْكَرٍ أَوْ مَالٍ ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ مِنْ مُشَارَكَتِهِ وَإِنْجَادِهِ ، لَمْ
تَتَأَخَّرْ عَنْهُ ، فَتَقِيمَ عَلَى نَفْسِي الْحُجَّةَ ؛ وَتَجَلِبَ إِلَى الْمَضَرَّةِ إِنْ فَعَلْتُ غَيْرَهُ ؛
غَيْرَ أَنِّي ، مَتَى دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ بِنَفْسِي ، تَعْتَذِرُ وَتُدَافِعُ ذَلِكَ
جَهْدِي . فَهِيَ [أَنْ] يَتَرَكْنِي وَيَقْبَلُ عَذْرِي ؛ وَمَتَى لَمْ يَقْبَلْ لِي عَذْرًا ، نَعْلَمُ
١٥ أَنَّهُ يُرِيدُ إِخْرَاجَ أَمْرِي إِلَى حُدُودِ الْفَعْلِ ؛ فَهُوَ إِذَا عَلِيَ مَتَعَسَّفٌ لِكَلَامِ الْأَعْدَاءِ
وَالْكَذِبِ ؛ فَلَا بُدَّ لِي عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ عَلَى مُهَجَّتِي وَالتَّحْصِينِ عَلَى
نَفْسِي ، وَنَجْعَلُهُ إِذَا ذَاكَ كَسَائِرَ مَنْ يُرِيدُ إِخْرَاجِي مِنَ السُّلَاطِينِ ؛ وَلِي مَعَهُ
اللَّهُ ، إِذَا لَمْ أَنْوِ بِهِ سُوءًا ، وَلَا وَاسَيْتُ عَلَيْهِ أَحَدًا ، وَلَا صَدَدْتُهِ عَنْ
جِهَادِهِ . فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَتَسَبَّبُ إِلَيَّ إِلَّا إِنْ شَاءَ التَّنْذِيبُ مَعَ الْقُدْرَةِ ؟ فَلَا
٢٠ طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ ، * كَالَّذِي صَنَعَ إِنْسَانٌ دَخَلَ عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ ، وَقَدْ أَعَدَّ ٥٠ (ب)
لِكَلَامِهِ جَوَابًا ؛ فَلَمَّا خَرَجَ إِلَى الثَّقَافِ ، سُئِلَ عَنْ إِعْدَادِهِ الْجَوَابِ وَزَعَمِهِ

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلْفَةٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :
 « خُذُوهُ ! » فَلَمْ أَذَرِ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »
 وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرِّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاثِقٌ بِكُلِّ
 مَنْ مَعِيَ مِنْ رِجَالِي وَخِدْمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَنْدَرُونِي . فَقَوَّيْتُ نَفْسِي لِذَلِكَ بَعْضَ
 ٥ الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أُعَدِّدُهُ .

٥٨ - معاقدة عبد الله مع البرهانش وكيل الفونش السادس

ولما حان انصرافنا من ليبيط ، كلمنا أمير المسلمين في عسكر يتركة
 عندنا بالأندلس ، خوفاً من الرومي أن يكلب عليها ، ويطلبنا بثأر تلك
 ١٠ السفرة وغيرها ؛ فلا يكون عندنا بمن ندافع ؛ فقال : « أصليحوا نياتكم ،
 تكفوا عدوكم ! » ولم يعطينا عسكراً . فأيقنا أن الرومي لا يدعنا على
 هذه الفرصة دون طلب . كالذي كان . فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً
 للمال ، متجئاً على من خالفه أن يفسد بلاده . وعاقده صاحب مرقسطة
 ومن يليه من الشرق ؛ فدافعوا شره ودفعوا إليه ما سلف له عندهم .
 ١٥ وبلغني الخبر ، وزاد ذلك في غمي ، وعلمت أنني فيه كراكي الأسد :
 إن أسلت البلد ، ولا عسكر عندي ، هتك ، ولم ينجبر لي فيه درهم ،
 ولم أغذر مع هذا ، ولا يقر المطالب بأن يقول عني إنني ضيعته أو
 سقت إليه العدو ، كالذي رأيت وسمعت قبل عن ابن رشيقي — وخسارة
 بلدي زائدة — ولا نقيم أوداً بذلك لكل ما نحاوله من الفوز كل عام
 ٢٠ وضيافات المرابطين ؛ فتجتمع على الخسارة من وجهين . وإن واسيت القوم

- وأصلحتُ على نفسي ، قِيلَ : « قد عاقَدَ الرُّومِيُّ ! » وَيُسْنَعُ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدَرِ الْمُنْفِى .
- وكان أَلْبَرْهَانُش زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَةَ وَالْمَرْيَّةِ ؛ وكان أَلْفُونُش قد وَكَّلَهُ أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ،* من إِتْقَادِ أَمْرِهِ فِيهَا لِفَسَادٍ عَلَى مَنْ تَعَذَّرَ لَهُ عِنْدَهُ ٥١ (١)
- شَيْءٌ ، وَلَقَبْضِ مَالٍ وَتَوَسُّطٍ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوَّلًا عَنْ نَفْسِهِ ، يُنْذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آش ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءُ لَهَا . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَى رَأْيُهُ ؟ أَيْ مُقَدَّرُهُ بِنَا عَلَى مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَشْكْرُ تَرْكَ لَنَا مُدَافِعُ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصْبَةِ مِنْ أَمْرِى الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَعْشُرُ قِيَمَةَ مَا يُعْطَى كَالَّذِي عَهَدْنَاهُ مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ ! لَوْ كَانَ ، وَفَعَدَّ ذَلِكَ ، وَبَيَّلْنَا عَنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ^(١) بِمَا عَزَّ ؟ فَتَحْنُ جُدْرَانَهُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فُسَادٍ فِي الْبِلَادِ ! وَتَحْتَسِبُ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنَ مُدَافِعٍ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَيْنَا ! »
- ١٥ فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى إِرْضَائِهِ بِالْيَسِيرِ ، مَعَ مُعَاقَدَتِهِ إِلَّا يَقْرُبَ لَنَا بِلْدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّفْعَةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا قَدْ صَلَّحْتُ جَانِبِي ! وَالْأَوْكَدُ عَلَيْكُمْ أَمْرُ أَلْفُونُش ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَمَنْ أَنْصَقَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَّ عَنْهُ ، فَسَلَّطَنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ . وَلَيْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يُخَصُّنِي دُونَ رَبِّيسِي ٢٠

(١) أصل : « أَقْدَامُ » .

- ٥ إن حدث لي ضده ! » فعلينا أن نقوله حق يقبله العقل . فقلنا : « لا يمكن أن نوجه نحرنا إليه ونبدأه ؛ فنوقفه لأكلنا ! ولكن ، متى أرسل يأذن بذلك ، سنعتذر إليه ؛ فسي [أن] يقبل رغبتنا ، ولم نفتح له بابا في إعطاء شيء إلا يزيد طمعه ! أكثر من تلوى القول ، عسى من هنا إلى ذلك الوقت ، [أن] يأتي عسكر يكسر به ؛ فلا يعبأ بقوله . وإن لم يأت أحد ، لم نكن نقدم إليه قبيحا ، فنشقى عند ذلك . »
- ودافعنا الأمر عند البرهانس ، وأنه لا سبيل إلى أن نعطيه ^(١) شيئا ، * واعتذرنا بالمرايطين وغير ذلك مما لزمنا من النفقات عليهم . فسكت عنا ٥١ (ب)
- ١٠ يوجه لي رسولا يطلب جزيته ؛ فإن انصرف دون شيء ، كان هو المنتقم من جيرانها .

٥٩ — التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونس السادس

وعقد اتفاق جديد معه

- ١٥ وتأهب ألفونس إلى الحركة ، وقدم رسوله بين يدي حركته . فلما صحت عندنا ، أتانا منها المقيم المقعد ، ولم ندر أين الخيرة : إن كان في رفض البلد وتركه ليعبث فيه ، أو مداراته بما تيسر . ووقعت من ذلك هيئة في الناس ورجة ، حتى بلغ من الجزع أننا لم نصدق أن يقبل منا المال دون الملازمة لنا ، طالبا لإخنة لييط ومعاودة المرايطين . وطمعنا أن يقنع رسوله باليسير ؛ فقال لي : « لم آت عن ذلك كله ،

(١) الأصل ، « نعطوه » .

إِلَّا أَنْ تَعْطِيَهُ مَا فَاتَهُ عَنْكَ مِنْ حِزْبِيَّةٍ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ! لَا يُنْقَصُ
 مِنْهَا شَيْءٌ ؛ وَإِلَّا ، فَهَا هُوَ مُقْبِلٌ ! وَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأَصْنَعْ ! »
 فَرَوَّيْتُ الْأَمْرَ فِي نَفْسِي ، وَرَأَيْتُ أَنْ التَّعَاطِيَّ حَاقَةً لَا تَقِيدُ ، وَقُلْتُ :
 « إِنْ أَخَذْتُ هَذِهِ مِنَ الرِّعْيَةِ ، ضَجَّتْ وَشَكَتْ ، وَيَكُونُ مُقَدِّمَتُهَا
 ٥ بِمَرُوكَشٍ ^(١) شَاكِينَ ، يَقُولُونَ : « أَخَذَ أَمْوَالَنَا وَأَعْطَاهَا لِلنَّصَارَى ! »
 وَلَكِنْ لِهَذَا الْوَقْتُ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ مَا ادَّخَرَ لِيَصُونَ بِهِ بَلَدَهُ وَعِرْضَهُ .
 وَأَنَا جَدِيرٌ أَنْ أُعْطَى ذَلِكَ مِنْ بَيْتِ مَالِي ، بِحَيْثُ يَسْلُمُ الْبَلَدُ ، وَبِحَيْثُ
 تَشْكُرُ الرِّعْيَةَ بِمَدَافَعَةِ عَدُوِّهَا دُونَ تَكْلِيفِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَقَعُ الشُّنْعَةُ ! »
 فَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الثَّلَاثِينَ أَلْفًا ، لَمْ أَرْزَأْ أَحَدًا فِيهَا دِرْهَمًا .
 ١٠ وَرَأَيْتُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ أَجِدَّدَ مَعَهُ عَقْدًا أَلَّا يَعْتَرِضَ لِي بَلَدًا ، وَلَا يَغْدِرَنِي
 بَعْدَهَا ، خَوْفًا أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيَّ ؛ فَأَجَابَ إِلَى الْعَقْدِ . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
 « إِذَا لَا بُدَّ مِنْ دَفْعِهَا ، فَبِالْعَقْدِ أَوْلَى . فَإِنْ حُوجِّجْنَا إِلَيْهِ ، وَجَدْنَاهُ ،
 وَلَمْ يَضُرَّ ؛ وَإِنْ أَسْتُغْنِيَ عَنْهُ ، كَانَ مَكَانَهُ مُتَمَرُّ الْقَنَى وَالْبَيْضِ الرَّقَاقِ ، إِنْ
 تَدَارَكْنَا * اللَّهُ بِعَسْكَرٍ يَدْفَعُهُ ؛ وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ ! » وَإِذَا لَمْ تَغْلِبْ ، ٥٢ (ب)
 ١٥ فَأَخْلِبْ ! »

فَأَجَابَ إِلَى تِلْكَ الْمُعَاقَدَةِ ، حِرْصًا عَلَى اخْتِذِ الْمَالِ ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ أَنَّهُ
 يَقْدِرُ ، كَالْخَاطِرِ لِنَفْسِهِ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى سِوَاهَا . وَقَالَ لِي عِنْدَ
 ذَلِكَ رَسُولُهُ : « يَقُولُ لَكَ أَلْفُونُشُ : « إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ تَحَلُّطَ مَعَ هَذِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَرَضَ « مَرَاكَشُ » ؛ وَلَيْسَ بِتَصْحِيفٍ ، إِذْ عِبَارَةٌ « مَرُوكَشُ » كَانَتْ

تَسْتَعْمَلُ دُونَ غَيْرِهَا أَيَّامَ الْمُرَابِطِينَ مُؤَمَّسَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؛ وَهِيَ الَّتِي انْتَقَلَتْ إِلَى الْفَتْحِ الْإِسْبَانِيَّةِ دُونَ عِبَارَةِ

« مَرَاكَشُ » ؛ وَاسْمُهَا بِالْأَسْبَانِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ Marruccos .

- لِلْمُعَادَةِ اسْتِعَانَةً بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بِلَادِكَ الَّتِي عِنْدَ ابْنِ عَبَّادٍ ، فَهُوَ يَجِدُ
لَكَ فِيهَا فِي وَجْهِهِ هَذِهِ . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أُعِينُ عَلَى مُسَلِّمٍ أَحَدًا !
وَإِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْمُعَادَةِ الْمُدَافَعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِي مِلَّتِي . فَإِنْ
وَقَّيْتُمْ بِذَلِكَ ، فَهُوَ الْمُرَادُ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا . « وَكَانَ مِنْ نَيْتِهِ أَنْ يَخْلُطَ
الْفِتْنَةُ بَيْنَنَا وَيَبْنِي ابْنَ عَبَّادٍ ، لِيَجِدَ بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَقْوَى
عَلَيْهَا بِأَمْوَالِنَا ، وَيَتَسَبَّبَ إِلَى طَلَبِ كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَالِنَا ، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ
الثَّلَاثُونَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الدِّينِ لِلْمُسَالَمَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلٍ .
وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَثِيقُ بِقَوْلِنَا ^(١) ، وَيَحْسِبُ ذَلِكَ مِنَّا خُدْعَةً . وَقُلْنَا
لَهُ : « إِنَّا مُعَرَّرُونَ فِي هَذِهِ الْفَعْلَةِ مَعَكَ ، وَنَسْتَدْرِكُنَا تَبَاعُثُهَا عِنْدَ
الرُّبَاطِيِّينَ ، وَنُطَالِبُ بِذَلِكَ ! » فَقَالَ ، تَسْهِيلاً لِأَخْذِ مَالِهِ : « مَتَى
أَذْرَكُكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ طَلَبٌ ، فَعَلَى الذَّبِّ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . « فَأَجَبْنَاهُ :
« بَلْ ، هُوَ يَرَى عِزَّنَا ؛ وَقَبُولُهُ وَعِطْفُهُ أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَعُونَتِكُمْ . »
فَانْقَصَلَتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ [لِي رَسُولُهُ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
تَدْوِيخِ سَائِرِ الْبِلَادِ مِنْ نَظَرِ ابْنِ عَبَّادٍ وَغَيْرِهِ ، إِنْ لَمْ يَعْطِهِ ! » فَقُلْتُ :
« هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ !
نَحْنُ قَدْ اخْتَلَنَّا عَلَى مَنْ قَلَدْنَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَقَدَيْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ
حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السَّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بَيْدَاءُ
أَوْ قِتَالٍ . لَا تَتَكَلَّمُ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ
وَاقِعُونَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَفَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)
٢٠ التَّحْصِينَ عَلَى مَا يَخْصُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ ؛ وَمَا كَدُّنَا ، فَشَأْنُكُمْ ! وَأَنَا

(١) أصل : « يثيق قولنا » .

بِرِيءٍ ، لا أَغْسِسُ فِي ذَلِكَ يَدًا وَلَا لِسَانًا . »

ولم أجد وَجْهًا نرجو به بعضَ الدفاع عن إخواننا المسلمين أَكْثَرَ من مُخَاطَبَةِ الْمُعْتَمِدِ ، نُعْمَلُهُ بِمُجَلَّةٍ حَالِنَا مَعَهُمْ ، وما ذَكَرُوهُ من إِطْلَاءِ بِلَادِهِ ، وَتُنْذِرِهِ بِذَلِكَ ، لِكَيْ يَقْلَعَ ، وَيُدَّرِعَ الْحَزْمَ ، وَيُقَدِّمَ لِلأَمْرِ أَهْبَتَهُ .

٦٠ — تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

عبد الله يبرّر مسلكه

ثُمَّ خَاطَبَنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، نَنصُّ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا وَقَعَ وَمَا دَفَعْتَ الضَّرُورَةَ إِلَيْهِ ، وَأَنَّ الْحَاضِرَ أَبْصَرَ مِنَ الْغَائِبِ ، وَلَوْ الْحَالُ يَقْتَضِي بِمَطْلِبِهَا ، وَلَوْ بِمِقْدَارِ وَصُولِ الْخُطَابِ بِمَشُورَتِهِ سَلَامَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، لَمْ أَقْدِمُ شَيْئًا فِي ذَلِكَ وَلَا أَخَّرْتُهُ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، كَالَّذِي يُلْزَمُ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْخَفَرَ كَانَ أَشَدَّ ، لَمْ أَرَ التَّغْيِيرَ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّ الْإِتِّتِقَامَ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ بِحَوْلِ اللَّهِ عَلَى يَدَيْهِ . وَلَمْ نَشْكُ فِي أَنَّ الْجَوَابَ يَرِدُنَا بِالشُّكْرِ عَلَى مَا نَظَرْنَاهُ وَسَدَدْنَاهُ ، لَا سِيَّمَا إِذْ كَانَ الْفِدَاءُ مِنْ عِنْدِي وَلَا أَكَلَّفُ فِيهَا مُسْلِمًا دِرْهَمًا . فَوَرَدَنِي جَوَابُهُ مَعَ مَا أُمْلِيتُ نَفْسُهُ مِنَ الطَّلَبِ لِي ، وَصَوَّرْتُ عَنْده الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا ، بِمَا زَادَ فِي جِزْعِي ، يَقُولُ : « أَمَّا مُدَاهَنَتُكَ وَقَوْلُكَ الْبَاطِلَ ، قَدْ عَلِمْنَاهُ ! وَسَنَعْلَمُ عَنْ قَرِيبٍ كَيْفَ تَرْضَى الرَّعِيَّةُ ، وَمَا تَصْنَعُ إِذْ زَعَمْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ لَهَا . وَلَا تُسَوِّفُ : فَإِنَّ هَذَا قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ ! »

فَلَمْ أَقْنَطْ مَعَ هَذَا ، وَقُلْتُ ، عِنْدَ الْحَقَائِقِ وَتَثْبِيَانِ مَا وَقَعَ ، عَلَى لِسَانِ رَسُولٍ : « يُزِيلُ عَنْ بَالِهِ كَلَامَ الْأَعَادِي ! وَهَذَا مِنْ بَغْيِ الْقُلُوبِ » وَأَبِي بَكْرُ بْنُ مُسَكِّنٍ ! فَإِنَّهُمْ لَا يَنْقَلِبُونَ إِلَّا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ ! » وَكَانَ

- أبو بكر بن مُسَكَّن قد بلغ من طغيانه على ، وسبَّو لي ، ورجائه^(١) في أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرني أو أكثر ؛ فإنه انتمى إلى بني زيري ، وجعل يهذى بذلك ويفتخر به ، لا يرى لأحد عليه فضلاً ، ويسعى في نقض ما نهرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه ملك ولا أمر . فجعلت الذنب فيه سوءاً كما في * القليعي ، إذ مقالته لا تطفى ٥٣ (١) ما أشعل القليعي لو أراد الخير ، كما أن تركه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلت الهم فيهما همًا واحدًا .
- ولما تشددت عليه ، وأمرته بالكف ، أحرق ، وهرب دون نفي ، ومضى قاصداً إلى المرباط ، يري في ، ويسعى على ، ويكذب ، ويصور الأمور على غير وجوها . فتكررت مخاطبتي على أمير المسلمين ، نبين له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلا بالشدّة ، وقبول قولهم على . فبقيت تلك الأيام على أسوأ حال . لا ندرى أين الخيرة ، ولا كيف التخلص .
- وساء ظنّ المُقْتَمِد بي في دخول النصراني إلى بلاده ، وكفه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتفاق ؛ ولو كان عن اتفاق ، لأدّيت عليه ما لا فوق الجزية ؛ فليس لهم إلا بني الكرى غير منطاعين لقول أحد . ولم ياتِ عسكر المرباطين إلى إشبيلية إلا والبلد قد أفسد .
- والله تعالى يعلم أنّي ما واسيت في تلك النّصبه ، ولا يسألني الله عن كلمة طمنت فيها على مسلم . فاتّقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أنّي أريد ذلك ، والانحياش إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم

يَصِلُ الْمُرَابِطُونَ إِلَى سَبْتَةِ إِلَّا وَمَدِينَةُ غَرْنَاطَةَ مَمْلُوءَةٌ مِنْهُمْ ؛ وَكَانَتْ
 أَسْتَطِيعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنْ
 الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضِيَّتِي
 تُسْتَوْضَحُ ، كَوُجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ يُنْتَهَى ، وَلَا إِسْرَارُ فِي
 ٥ مَثِيلٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، وَلَا إِدْخَالُ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا قَبْلَنَا ، وَأَوَّلُ
 سَيْفٍ سُلِّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّبِيلِ ،
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينَ تَطَرَّقَ النَّصَارَى إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؛ وَوَافَقَ ذَلِكَ
 أَوَّلَ ظَهْرِ الْمُرَابِطِينَ وَوُصُولَهُمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ * رَسُولُ الْفُونْسِ ٥٣ (ب)
 مُعْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْعًا لَهُ ، وَإِثَارًا لِأَمِيرِ السَّامِينِ .
 ١٠ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولما كُنْتُ في تلك الفترة ، بدتْ أمورٌ وأسبابٌ دَلَّتْ على ما كان من
الانتفال ومُقدِّماتُ آذَنْتْ بالزوال . فأوَّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لِعلَّةٍ
تذكرُها ، وأرقَّ سببٍ لم يُؤبَهِ له . وذلك أنَّي ، لما أمرتُ بُنيان الشَّور
المتَّصل بالجرء ، ودبرتهُ على تلك النِّصبة التي أضربتُ عن شرحها لاشتهارها
هياتُ السعادةُ أن وَجَدَ البَنَّاؤون في الأساسُ قُمُومًا مملوءًا ذهبًا أعلموني به .
فلما وقفت عليه ، لقيتُ فيه ثلاثة آلافٍ مِنقال جعفرية . فاستبشرتُ بها
وتفاءلتُ بنجاح الطلبة ، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرتُ بمن كان قبلنا . فقلتُ :
« من أساسه يكونُ بُنيانه ! »

وكانت دارُ أبي الربيع اليهودي الخازن للأموال في دولة جدِّي
— رحمه الله — مبنيةً على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله للدفون .
فأتى ابن المرأة متنصِّحًا بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم
سائر دقائمه » فخطبنا عنه ليردَّ علينا في بعض الأمر . وكان صهره ابن
ميمون ، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة ، وأسدينا إليه جيلًا

من التنويه به ؛ فاستمال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنّه ، وخشى أن يُعذّب على مال أبيه .

- ووافقَ قَبْلَ ذلك ، عند انصرافنا من لَيْيَط ، أن فرَضنا على أهل اليُسَانة ذهباً كثيراً باسم التَّقْوِيَةِ ، لم تَجْزِ عادتُهم به ، وحملناهم في ذلك على الصَّحَّة والانطباع ؛ فَفَرَّتْ لذلك أنفُسُهم . ووجد ابنُ مَيْمون المذكور السَّيْلَ إلى إغرائهم وتحليلهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جدُّوا ، مَعَشَرَ بنى إِسْرَائِيلَ ، في حماية أموالكم ! »
- وافترض بذلك ابن مَيْمون . وسَبَقَتْ له جنايةٌ في قتل * عامِلنا ابن أبي لَوْلا ٥٤ (١) على المُسْتَخْلَص رياسةً وعدواناً . وامتنعت اليُسَانة بالجملة .

- فلما رأيتُ ذلك ، لم أجدُ بُدّاً من مُداراةِ الأمر . واشترطَ مُؤَمِّلٌ بإصلاحه ، ونهص . مُمِّمٌ إِنِّي عملت رأيي بَعْدَه ، وعَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَلْتَقِي إلَّا أَحَدَ جِهَيْنِ : إمَّا طاعةً على غِشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قَدْرَ ما جَنَوْه . وَخَرَجْتُ
- ١٥ بنفسي في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بِمُؤَمِّلٍ قد أَقْبَلَ مُنْصَرَفًا ، وردَّنا عن ذلك المذهب ، وقال لى : « قد أَضَلَّحْتُ الأمر مع ابن مَيْمون . ونُهوْضُكُ إليه لا يزيد القوم إلَّا نفاراً ، وربَّما استعانوا بعسكر ابن عَبَّاد ، لا سيَّما أَنَّهُ الآن بِقُرْطُبَةٍ ، وليست تُؤْخَذُ بإحْصار ولا قتال ! »
- على أَنِّي قد عَلِمْتُ أَنَّ ابنَ عَبَّاد لا يَجِيههم في ذلك الوقت كُلُّه ، ولا اشتهر
- ٢٠ بذلك إلَّا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن مَيْمون يفتخر به وَيُطَمِّع به أهل اليُسَانة .

فقبلت قول ابن مؤمل ، وانصرفت على مقربة من الحضرة ؛ وقلت :
 « خروجى إلى هنا أو وصولى إليهم سواء ! إذا أردنا التَّهْيِيبَ ، فقد
 وصلناه ! » ثم قلت لمؤمل : « صِفْ على ما انفصلت ! » فقال :
 « إن ابن مَيمون زعيمهما عدَدَ أشياء أنكرها من الإرسالِ في صهره ،
 وهذه الفرضة العظيمة ، وسائر ذلك من الألقاب اللازمة . فضمنت لهم
 الصكوك برفع ذلك عنهم ، ولابن ميمون في خاصته . » وأمرت بعقدها
 والإرسال بها . وقرت الجبال قرارها .

ووجست نفسى من ابن مَيمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك ،
 وعلمت أن هذه هُدَّةٌ على دَخَنِ ، وأن لاطاعة تصحُّ لى معه ، وسيؤثر
 أمثال هذه . قدبت إلى المداخلة من اليهود المخمولين في زمانه ، ووعدهم
 بالإحسان ؛ وتكرَّر في الوساطة ابن سبيى ، حتى أبرمت من ذلك
 ما أمَلته . وكان أخذُ ابن مَيمون يسيراً ، لا عُصبةَ له ، وهو غافل . وكان
 الوساطة أيضاً ابنُ التَّوَّة مع أبى العباس الحكيم . وكان ذلك بما نفعه ٥٤ (ب)
 مؤملٌ لانهياشه عن ذلك ، إلى أن وردوا الحضرة على عاداتهم ، وأمرت
 بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ ، وأمرت أن لا زعيم فيهم بعد اليوم
 إلَّا الكلُّ منهم أمانةً منَّوه بهم ؛ فشكروا ورضوا . وخاطبتُ عاقبتهم
 نُفْلِهِم بما لهم في ذلك من الصلاح . وتهدنت الأحوال وقرت ، إلى أن
 تلف الكلُّ .

٦٢ - قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعملتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفن^(١) العارضة ، رأيت أن الاحتبال بالتحاقل من آكد ما يجبُ النظرُ فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عدديها وما يصلحها ، وأن الأولى استصلاح ما قصد من نفوس قوادها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا معقلاً قط غيرُ صنهاجة والوصقان والعييد ، ما خلا زناة : فإنهم كانوا أجناد الحضرة .

وكان الصنفُ المذكور قد ضعف ؛ واستولى عليه النقصانُ لطلباتِ جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره ؛ فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تنهياً لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفسهم من تولية مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصنف البراني كله ، ولما جرى على اليهودي ما جرى منهم ، اعتقدوا الناية في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيء ، تسبب إليه وأزيل عن يده . فأدركهم النقصانُ والقلّة ، وزاد في زناة ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنجدة . وكان الصنفُ كثيراً ، لا يعدم ضمهم من له مال . فقلتُ في نفسي : « هؤلاء القواد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدة ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعامل ، أو بأيّ قلبٍ يجدّون معي ؟ وإنه لا عِوضَ منهم في الثقة

(١) أصل : « الفتون » .

للحصون * وإن زناة هؤلاء المتأصلين لا ثقة فيهم للمدينة فوق ولا ٥٥ (١)
 للحصون ، أكثر من خدمة الجندي ، لا يعدم منهم أحد . فأنا جدير
 أن أشرك من ضعف من صنهاجة هؤلاء الأقوياء الذين أدركتهم العناية
 ويمسك واحد منهم إنزال خمسة فرسان وستة . ثم من قنع بما بيده بقي ؛
 ومن لم يرد ، لم نعدم منه عوض ! « ففعلت ذلك ، وأشركتهم . وكان في
 هذا كله تحريك للشر والقال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما ينجى عليه اجتهاده^(١)
 فلما رأى كبار زناة ذلك ، قلقوا ، وساءت ظنونهم ؛ فكنت ،
 متى دعوتهم إلى خدمة ، نجدهم عنها عاجزين : من أشرك ومن لم يشرك ؛
 فامتحنيت على ذلك ؛ فقبل لي : « إن كبارهم يفسدون صغارهم ! ولو أنك
 تخرج غوغاتهم^(٢) من البلدة ، لصلح لك سائرهم ! »

فأمرت بإخراج ثلاثة أنفس ممن يتهم منهم . وكان الأمور بذلك كئيب
 الخصى ، صاحب المدينة ذلك الوقت ، وثقناه لترينتنا له . وكان في المجلس
 أقوام يحسدوهم ويتهمهم على نفسه أن ينقلوا طريقته السيئة ؛ فأصاب الفرصة
 للخراب ، وأرسل من قبله إلى أولئك المخرجين ، وإلى من سواهم من بني
 عمهم ، يقول لهم : « إن الطلب قد وقع فيكم من مجلس السلطان ؛ وأمرت
 بإخراجكم . فلا توهنوا ، واجتهدوا في التعصب عليه وترويعه ! وأنا معكم !
 فإنه ، إذا رأى جماعتكم ، رجع إلى قولكم ! » فلم يكن إلا بعد الأمر
 بساعة ، وإذا بجماعة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة ، يقولون : « إما أن
 يرد شركتنا ، وإما فالكل راحلون عنه ، منتقلون إلى غيره ! » وأتى

(١) ورد هذا البيت أعلاه . (٢) كذا في الأصل ، عوضاً عن « غوغاتهم » .

الفاسقُ لَيِّبٌ وأصحابُه المَتَّفِقون معه ، يقيمُ حُجَّتَهُمْ ، ويُعضدُ قولَهُمْ ، ويُخَوِّفُ
منهم . فَفَيزَتْ الأَمْرُ ، وَعَلِمْتُ أن هذه جَمْعَةٌ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَّا إلى رَأْيٍ ؛
فأَظْهَرْتُ الشَّدَّةَ ، وَقُلْتُ : « لستُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ
أَشْرَكَتُ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً * إلى مثل نفوسهم ! فَمَنْ شَاءَ ، فَأَيُّمِرْ ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب)
فَلْيَتَّقِ ١ » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الكَلُّ .

وَمُؤَمِّلٌ ، فِي هَذَا كَلِّهِ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لَيِّبٍ ، يَدْخُلُ فِي رِوَايَةِ الْجُنْدِ
وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَنَحْنُ أَهْلُ بَرَاءَةٍ » وَيُرَوِّدُهُمُ الشَّفَقَةُ
مِنَ الأَمْرِ وَالطَّمَعِ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شِيُوخِ الْعَبِيدِ
أَصْحَابِ مُؤَمِّلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالكَلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ
تَرْهِيْبٌ ، وَأَنَّ الرُّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضُرُّهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخِلُّ بِالرَّأْيِ ١٠
وَيَكُونُ لَهُمُ الضُّلُوعُ وَالْحَاقِقَةُ فِي الْحَصِيَّةِ ، وَأَنَّ انْقِيَادَهُمُ لِلأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بَعْدَهُ
أَشْبَهُ ، وَلِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَعَزُّ وَأَبْهَى .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ آخِرٍ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبَيِّطَنَّ عَلَيَّ مِنْ قَدَمٍ
ذَكَرَهُ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَإِحْضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مِنْ صَحِّ مُضِيئِهِ وَقَعُودِهِ .
فَوَجَدْتُ الكَلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَغِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ١٥
فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ :
« اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُ وَالْيَقُ بِالْمَلِكَةِ ! » وَرَأَيْتُ مُؤَمِّلًا وَلَيِّبًا وَغَيْرَهُمَا
قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مُؤَمِّلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثَهَا إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة

- ولما قرَّ أمرهم قراره ، جاء مؤملٌ في إثر ذلك يقول : « إنَّ هذا الانطباعَ منهم ليس لرغبةٍ في البقاء معك ! غير أنهم يُدَارونك حتى يحصلوا على قائدٍ إنزالهم ، ويتزوّدوا به ! فلا قائدٌ تُنزل عليه غيرهم ، ولا رجالٌ بقوا معك ؟ » وكنْتُ إذ ذاك ناظرًا منه بعينَ الثقة ؟ فعمل قوله في نفسي ، وقلتُ : « لا يخلو هذا القولُ عن وجهين : » إمّا قد اطلَّع على ذلك منهم ، فهي نصيحةٌ ، أو لم يطلَّعْ ، فهو بغائلتِه لا يدَعُهُمْ ، ويدخلُ هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجَّبتُ إلى العوض ، لم يكن لي على ما نُنزله ولا في بيت المال الكفاية لما نحن بسبيله* من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- يأتيني من هذه الكلمة نعاس . وأمرتُ بإخراج كلِّ من في رأسه حاقةٌ . فبلغ عدَّتُهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصدَّتْ ، ولم يبقَ فيها إلا مَنْ ينطاع لكلِّ أمرٍ .
- وعملَ في نفسي قتلُ لييب وشيوخ العبيد ، وصحَّ عندي منهم وفيهم أنهم عوّجُوا زَنَانَةً ؛ وكانوا أشدَّ على من كلِّ أحدٍ . وجعل زَنَانَةٌ ١٥ يذكرون ذلك ، ويقولون وقتَ اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إنما نحنُ جُنْدٌ ، ولولا ثِقَاتُهُ وعبيدُهُ الذين حلونا على ذلك ، لم نجتزِم^(١) عليه ! » وجعلوهم في وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأمرون الناسَ بالقيام ، ويقولون لهم : « لم ندفعْ نحنُ ، إلّا وهو يُريد إدخالَ النصارى ! » فلم يلتفتِ الناسُ إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثقات الدولة وصنهاجة .

(١) أصل : « نجتزوا » .

ولما أخرج زَنَاتَةَ ، أَمَرْتُ بعد ذلك بإخراج اثنين من شيوخ العبيد الذين صحَّ عندي إشغالهم لهذه القضية ، وَتَقَعْتُ لَبِيًّا . فَوَاقَى إِخْرَاجَهُمْ وَمُوَءَلُّ خَارِجَ الْمَدِينَةِ ؛ فَلَاحَقُوا بِهِ ، وَقَالُوا لَهُ : « قَدْ أَخْرَجْنَا ! وَغَدَا بِكَ هَكَذَا ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ! » فَخَرَجَ مَعَهُمْ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ ، قَاصِدًا إِلَى لَوْشَةٍ ، مَعَ مَنْ اتَّفَقَ مَعَهُ مِثْلُ ابْنِ الْبَرَاءِ الْكَاتِبِ وَغَيْرِهِ .

وكانت هذه رَفَقَةً قَدِيمَةً بَيْنَهُمْ مَعَ بَنِي مَالِكٍ عُحَالٍ لَوْشَةٍ ، أَنَّهُ ، مَتَى دَهَمَهُمْ أَمْرٌ ، لَجَئُوا إِلَيْهَا . فَهَضَمُوا مِنْ قَوْرِهِمْ ذَلِكَ قَاصِدِينَ إِلَى لَوْشَةٍ ، وَلَحَقُوا بِهَا لَيْلًا . وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَلَمْ يَمْنَعْ أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِثًّا ؛ وَحَسِبَ الْقَائِدُ وَمَنْ فِيهَا أَنَّهُ رَسُولٌ . فَصَارَ فِي قَصَبَتِهَا ، وَجَعَ الْجُنْدِ وَالرَّعِيَّةِ ، وَصَرَخَ فِيهِمْ بِالْبُكَاءِ ، وَافْتَعَلَ الْكَذِبَ ، وَقَالَ لَهُمْ : « لَمْ أَخْرُجْ مِنْ غِرْنَاطَةِ إِلَّا كَمَا تَرَوْنَ : « بَطَوَيْ عَلَى عُنُقِي » ! وَتَرَكْتُ فِيهَا النَّصَارَى قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا ؛ وَكُشِفَ عَنِّي ! فَاتَّبَعُوا مَعِيَ وَنُوجَّهُ إِلَى كُلِّ سُلْطَانٍ : فَمَنْ أَجَابَنَا ، اعْتَصَدْنَا بِهِ ! » وَخَاطَبَ بِذَلِكَ حُصُونَ الْقَرْبِ ، بِأَمْرِهِمْ بِالْخِلَافِ ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى زَنَاتَةَ الْمُخْرَجِينَ ، لِيَكُونُوا مَعَهُ مُضَيِّقِينَ عَلَى * غِرْنَاطَةِ . ٥٦ (ب)

١٥ وَإِنَّ أَهْلَ الْجِهَةِ مَعَ أَهْلِ الْخَصُونِ ، لَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ ، دَبَّرُوا رَأْيَهُمْ . وَأَرْسَلَ كُلُّ حِصْنٍ مِنْ كِبَارِهِمْ إِلَى الْحَضْرَةِ مَنْ يَطْلُعُ صُورَةَ الْأَمْرِ ؛ فَإِنْ وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لَمْ يُخْرِبُوا وَجُوهَهُمْ مَعًا ؛ وَإِنْ أَلْفَوْهُ سَحَقًا ، نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ . فَأَتَوْنِي أَفْوَاجًا مُعَزِّينَ وَمُهَيِّئِينَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّصَارَى ، وَمُسْتَفْهِمِينَ جَلِيَّةَ الْحَالِ . فَأَخْبَرْتُهُمْ بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ٢٠ مِمَّا ذَكَرَ مُوَءَلُّ . فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالَفٌ مُنَافِقٌ . فَبَادَرَ الْكُلُّ إِلَى مُنَازَلَتِهِ ، وَسَأَلُونِي عَسْكَرَ الْحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لَمَّا صَحَّ شَفَاقُهُمْ بِلَوْشَةٍ ، قَدْ أَبْلَيْتُ لَهُمْ عُذْرًا ، وَأَرْسَلْتُ
إِلَيْهِمْ كُتُبًا وَرُسُلًا تَأْمَنُهُمْ مِمَّا خَافُوا ، وَتَحَذِّرُهُمْ قَبِيحِ الْعَاقِبَةِ فِي إِثَارِ
الْفِتْنَةِ ، وَأَنِّي مُطْلِقٌ إِلَيْهِمْ أَهَالِيَهُمْ ، وَبِحُرُوجِهِمْ عَنِ الْحَصُونِ حَيْثُ شَاؤُوا
بِأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَهْدِيدًا ، بَارِئِينَ
عَنِ الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلَا ثَارٍ . فَلَمَّا يَثْنَتْ مِنْهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحَصُونِ
عَلَيْهِمْ ، أَرْسَلْتُ بِالْعَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدَكُرُ
وَجْهَ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بَعْدَ هَذَا ؛ فَهَضَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصُولِهِ ، وَجَزَعَ
مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْعَسْكَرُ ، وَأَسِرَ فِيهَا هُوَ
وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتْحٌ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِتَتَقَاتِهَا وَسَوْقَانِ الْأَمْرَى ، وَتَقَفْنَاهُمْ مُسْتَفْتِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛
فَأَقْنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ قَتْلَهُمْ غَيْرُ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزَعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ
كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرِ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛
وآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلَيْقُ وَالْأَبْعَدُ مِنَ الْإِثَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ
لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ التَّأَنُّ وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ . فَأَوْجَبَتِ
١٥ السِّيَاسَةُ تَثْقِيْفَهُمْ وَالشَّدَّةَ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرِيقَةً لغيرِهِمْ ؛ وَهُوَ بَابُ فَتْحِهِ
عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانَ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةَ كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، حَتَّى صَاحِبِ
مَالَقَةِ . فَلَمْ يَجِبْهُمْ * أَحَدٌ . فَلَمَّا يَتَسَّسَ مُؤَمِّلٌ مِنْهُمْ ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ ٥٧ (١)
الْمُسْلِمِينَ ، بِزَوْرٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَبِكُذْبٍ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ نُؤْتِ
٢٠ إِلَّا مِنْ لِنَكَارِي أَمَرَ النَّصَارَى ، وَالْقِيَامَ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةً لَا تَقُومُ عَلَى
سَاقٍ . وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نَعْمَانٍ ؛ فَانصَرَفَ لَمَّا عَلِمَ بِأَخْذِهَا .

٦٤ - وَصَفَ الثَّائِرُ نُثْمَانَ وَسِيرَتَهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان نُثْمَانُ المذكورُ ممن فَهَلْنَا معه جَيْلاً ، وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ مُحَرِّمَةَ الْقَرَابَةِ
والانقطاع إلينا من المُرابطين ؛ وزال عَنَّا بعد إعماله الدواخِلِ علينا في حصوننا
الغربيَّةِ ، وَعَقْدِهِ مع أهلها أن يصيروا في طاعة المُرابطين متى دُعُوا . وكان
له بتلك الجهة إنزالٌ ؛ فتمكَّن من القُربِ والعملِ بذلك ، وخرج عَنَّا
بَسْرَاحٍ ادَّعى من أَجْلِهِ أَنَّ له بِالْعِدْوَةِ ميراثاً ومالاً يُريدُ اقتضاءه ؛ فَأَجَبْنَا
له النهوضَ ؛ وإذا به يَسْتَعِي علينا . وقال للأمير : « نُفَيْتُ من البِلَادِ من
أجل نصيحتي لك وَتَحَبُّبِي في دولتك ! » أمرٌ لم يكن منه حَرْفٌ ، حتَّى
إنَّ أَطْلُوقِي ، إنْ تَكَلَّمْتُ ، لَسَعَتْ عليَّ ، للقَدَرِ الذي شاءَهُ اللهُ ، عسى
لعاقبةٍ مَحْمُودَةٍ إن شاء اللهُ . ١٠

فَعَمِلْتُ هذه المعاني كُلَّهَا في نفس أمير المسلمين ، مع ما صُوِّرَتْ عنده
بكثرة الأموالِ المكذوبِ عليها والمنتَفَقَةِ في طاعته والجهادِ معه لو بَقِيَتْ الحالُ .

٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وإنَّا في تلك الفترة ، رأينا من الصلاحِ النظرَ لمن مَعَنَا من البناتِ
وَتَزْوِيجَهُنَّ قَبْلَ أن يفجأَ أمرٌ ، فَيَكُنَّ على غيرِ عِصْمَةٍ ولا كَفِيلٍ . ١٥
فتخيَّرْنَا لهُمَا من بنى عَمَّهَما شَاكِلةً ، منهم مَعْدُ بْنُ يَعْلَى ، للذي كان عليه
من النجابة والعقلِ والمَحَبَّةِ ؛ فَصَدَدْنَا عن ذلك أَهْلُ دولتنا ، وقالوا نصيحةً
وَحَسَداً : « إنْ أنتِ تصاهرتِ إلى بنى عَمِّكَ ، حَمَلَتْهُم دَالَّةُ الْقَرَابَةِ مع
المُصَاهَرَةِ على الظهورِ عليك وفسادِ حالِكِ بصلاحهم . فَإِيَّاكَ ! وعليك بِمَنْ

هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِيرَاعَى إِحْسَانَكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيرًا ، وَيَرَى عِيَالَهُ بَعِيْنَ مَوَلَاةٍ ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَعَدَتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا أَتْبَاعَ يُهَادِدُونَهُ . « قَبَلْنَا ذَلِكَ حَذَرًا * عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَقُلْنَا : « مِنْ صَلَاحٍ مِنْ قَرَابَتِنَا ، نُذَرِكَ فَعَلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئُهَا ! »

وَكَانَ مِنْ بَعْضِ خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يَوْسُفَ بْنِ حَجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صِحَّتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا يَشْبَهُ الْمَشَاكِلَةَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِبَاضٌ وَاسْتِيْحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأْمَنُ مِنْ إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ شُحٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيْرَةٌ شَدِيدَةٌ تُوَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَتَزَقُّ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وَلَايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ نَقْصَانِ الْبَيَانِ وَعِيٍّ الْلِسَانِ مَا لَا يَطْبِئُ بِذَلِكَ النَّاسَ لَتَأْلُبُ ، إِنْ شَاءَ عَلَيْكَ ، وَلَا تَقْضُ لِقَعَالِكَ أَوْ مَقَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمِمَّنْ لَا يَنْتَمِي إِلَى مَلِكٍ ، وَلَا تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَمَاةِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ قَلَعْتَهَا ، لَمْ تَتَعَذَّرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَّقْتَهَا ، ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمَنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخَرُ هُوَ تَرَبُّبُكَ وَنَشَأَتُكَ ، وَابْنُ وَزِيرٍ جَدُّكَ ، وَلَهُ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى حَالِ الْحِدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَلَيْسَ بِمُنْقَدِرٍ قَدْرُهُ . وَإِنْ أَنْهَضْتَهُ إِلَى أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنْهَضَ ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةِ نُقُرٍ عَيْنِهِ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوَلَايَ » ، مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَتَشْقَى أَنْتَ وَتَحْنُ ، إِذَا الْعَمْدُ لَا يَحْتَمِلُ سَيِّئَيْنِ ، وَلَا تَنْدَرِي مِنَ السُّلْطَانِ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . »

فَقَدْتُ لَهَا النِّكَاحَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أَمْرِي

بِالْأُخْزَمِ ، وَوَكَلْتُ ذَلِكَ إِلَى الْأَقْدَارِ ، وَقُلْتُ : « هَذَا جُهْدُ الْإِسْطَاعَةِ ؛
 وَدُونَ جُهْدِكَ لَا تُتْلَامُ . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضِيَ بِمَا شَاءَ ! »
 وَلَمَّا صَارَ وَلَدٌ حَاجَّاجٌ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ ، شَرِهَتْ نَفْسُهُ إِلَى وَزَارَةِ الدَّوْلَةِ ،
 مَقْطَعٌ مِنْ لَمْ يُمَيِّزِ الْمَذْهَبَ . وَلَمْ نَكُنْ بَعْدَ وَزَارَةِ سِمَاخَةِ نَسْتَعْمَلُ لَذَلِكَ أَحَدًا .
 ٥ فَكَانَتْهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جِهَالَةً مِنَ الْإِنْسَانِ * بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، (١) ٥٨
 وَتَرْكُهُ صِيَانَةَ قَدْرِهِ لَهُ قَاضِحَةٌ .

٦٦ — حَدِيثٌ مُعْتَرِضٌ عَنْ نَصَحَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ

وَكَانَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا عَلَى مَذْهَبِ جِهَالَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ : إِنْ كُلُّ أَحَدٍ
 مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الْأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّقِ
 ١٠ ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا اتَّفَقَ لِرَأْسِ
 عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَبْلَ آيَاتِنَا قَدْ شَغَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ
 رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ فِي آيَاتِنَا الْأَمْنُ ،
 وَأَنْسِيَتْهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمُ الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، إِلَى أَنْ تَطْمَحَ أَنْفُسُهُمْ لِفِرْ
 ذَلِكَ . وَكُنَّا نَحْنُ نَنْظُرُ أَنْ بِالْأَمْنِ نَسْلَمَ مِنَ اللَّائِمَةِ وَالْعِدَاوَةِ . وَخَانَنَا
 ١٥ الْقِيَاسُ ؛ وَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ الْمُتَمَرِّنُ لَا يَجِبُ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ،
 وَلَا يَعْمَلَ حَسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ
 لِهَوَاكَ ! وَلَا مَحَالَةٌ أَنْ بِاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ تَقَعَ الْعِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونَ
 الْمُصَاحَبَةُ وَحُسْنُ الْمَعَاشَرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ
 مِثْلُ الذِّى دِهَاكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرِيحُ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ
 ٢٠ هَمَّكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَغْنِهِ مَا عِنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرْتَ

عليه ، وإِنَّمَا مُخَالَفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفتُ إلى عَدَوَاتِهِ ، وأُحْدِثْتُ في نفسه ما كنتُ غنياً عنه .

- هذا طبع البَشَرِيَّةِ : فلا تسمع مَن يُرِيكَ التحقيق بكلامه ؛ فَإِنَّ الحقَّ قَهِيلٌ على النفوس ، والباطلُ إليها أسرع ، وعليها أَخَفٌ . وَلَمَّا علم الشيطانُ حِيلَ الإنسان ، لَمَجْرَاهُ منه بمنزلة الدَّمِ ، أَتَاهُ من قِبَلِ هَوَاهُ .
ولا سبيلَ أن تَلْقَى أَحَدًا عَدِيمَ العَقْلِ : كُلٌّ قد أَخَذَ من التَّجَرِبَةِ حِصَّتَهُ ، وحاز اختياره ؛ وَعَرَضُكَ عليه ما يَبْدُو إِلَيْكَ عَجْزٌ وكُفَّةٌ : فَإِنْ كَانَ رِيضًا ، فهو بِشَأْنِهِ أَبْصَرٌ ؛ وَلَعَلَّ لَهُ عِذْرًا ، وَأَنْتَ تَلُومُ ؛ فَتَوَلَّى عَلَيْهِ انقباضاً منك وَتَحَفُّظًا لِنَفْسِكَ الْخِلَافَ حَتَّى يَأْتِيَ بِمَا اعْتَزَمَ عَلَيْهِ . وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ جَاهِلًا ، فَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الهَرَمِ ، لَمْ تَزِدْهُ أَكْثَرَ مِنْ نَقْلِهِ* عَنِ ٥٨ (ب) وَدَّهِ ، وَلَا يَنْتَقِلُ عَنْ طَبْعِهِ .

- كَيْفَ مَا رَوَيْتُ فِي الْأَمْرِ ، أَجِدُهُ جَهْلًا مِنْ فَاعِلِهِ وَكُفَّةً ، إِذْ لَا تَأْدِيبَ يَجْمَلُ بِالْمُعَلِّمِ وَلَا الْمُتَعَلِّمِ . اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ شُورٍ فِي أَمْرٍ ، فَعَلِيهِ أَنْ يَعْطَى مَا عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ الْخَاطِئِ ، وَلَا يَتِمَّرَنَّ فِي انْتِظَارِ طَاعَةٍ ؛ فَيَكُونُ النَّاصِحُ ، إِنْ سَمِعَ مِنْهُ ، تَمَادَى عَلَى صِدَاقَتِهِ وَخُوْلَفَ فِي غِيْشٍ . فَمَا قَامَ خَيْرُكَ ، يَا زَمَانَ ، بِشَرِّكَ !

- لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ بَخْلَافٍ يَسِيرُ عَلَى الْقَائِلِ يُنْتَقَلُ إِلَى حِزِّ الْعَدَاوَةِ ، لَمْ أَشَاوِرْهُ فِي أَمْرٍ أَبَدًا : وَأَكُونُ قَبْلَ مُشَاوَرَتِهِ مَخَاطِرًا حَذِرًا الَّذِي تَخْشَى مِنْهُ ، أَشَدَّ عَلَى مَنْ عَاقَبَتِ الْأُمُورُ الْمَعْرُوضُ عَلَيْهِ . فَالْعَاقِلُ يَقِيسُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي وَيَحْزِزُ بِهَا صَدِيقَهُ . فَرُبَّ عَدَاوَةٍ تَتَوَلَّى بِأَرْقٍ سَبَبٍ ، أَوْ عَدَاوَةٍ تَعُودُ إِلَى مُوَدَّةٍ ، عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ أَوْ الْإِنْخِرَاطِ فِي سَلَكٍ وَاحِدٍ .

من عارضٍ يعمُّ أو مرغوبٍ يُرامُ ؟ تكون الحاجة فيه سواءً .
ولا خيرَ في عقلٍ لا يتصرف تارات ؛ وللذهب السرمدي ركبٌ
طريقة الجهل ، واقعٌ في الورطات . ومن الحق ما يسمج ، فلا تقوم
حلاوته وفرضه بما يقب من المشقة ؛ والعاقِلُ يتخير الأمور ؛ فيتجنب معسورها ،
ويتوخى ميسورها . ٥

٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف

وللقائل ، إن محتج على هذا النكاح : ما الذي أريد به ؟ إن كنا
غالبين ، فقد استغنينا عنه ؛ وإن كنا مغلوبين ، لم يفد ذلك ! يعترض
هذا بعد تبیان ما وقع !

١٠ وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع السر ؛ وإنه ، متى عرض عارض ،
كان البعل مُكتفياً بامرأته ، يُقلعها إذا أخوج ما تكون فيه عند ذلك ،
وتكون لنا منهم عُدَّة ، ويُقل طمع كل من بشره إلى خطبتهما . فقد
كان كثير من سلاطين الأندلس رام ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا :
تنشبتنا فيما لا مرد فيه ، ولا يُنفك عنه إلا بالأموال الجسيمة التي هي
١٥ أوَّلُ البذل في إقامة أود الملكة وما كنا بسبيله من الجهاد ؛ وإن أبينا ،
وقع الخلاف والحد من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب

حساب ما جرى * . ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير . وكان ٥٩ (١)
زمانا لم نحسب فيه حساب خير خرج منه مثقال ذرة ، ولا قسنا على
شيء من الشر إلا ولم نبلغ مشار ما يكون منه ، بل يدهى منه أمره وأفظعه .
٢٠ ولقد قال المطالبون إن أمير المسلمين كان أحق بها ، وإنما فعلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المُحَال أن يكون أحدٌ يتبعَد الشَّرَفَ ، ويُدْعَى إلى ما فيه حَيَاتُهُ ، فَيَأْبَاهُ ! ولو أَتْنِي أشعر بشيء من ذلك ، ونَرَى أن المَذْهَبَ في هذا ، لَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ اغْتِبَاطًا بِالْأَمْرِ ، وإِلَيْهِ مُسَارَعَةً ، وعليه حرصاً .

٥ ولم يكن مَنْ أَلَحَّ في ذلك أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَصِمِ — رحمه الله — ؛ فَبَادَرْتُ إلى ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، خَوْفًا مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وإِنَّهُ ، لَمَّا تَوَاتَرَتْ عَلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ ، وَصُورَتْ عِنْدَهُ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ ، تَحَلَّتْ فِي نَفْسِهِ .

١٠ وانقطع رَجَاءُ مَوْئِلٍ بِلَوْشَةٍ مِنْ أَنْ يُجِيبَهُ سُلْطَانُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ ، خَاطَبَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَمْ يَصِلِ الْخُطَابُ ، وَهَيَّأَ الْعَسْكَرَ إِلَيْهَا مَعَ نَعْمَانٍ ، حَتَّى انْقَضَى خَبَرُهَا ، عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ .

٦٨ — تدخلُ عبد الله في مسألة مُرْسِيَّةٍ وَغَضِبَ الْمُعْتَمِدُ

واعتقدَ الْمُعْتَمِدُ دُخُولَ الْبَصَارِيِّ بِلَدِهِ وَمُحَاشَاتِهِمْ لِلْجَهَانِيِّ ، مَعَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَمْرِ مُرْسِيَّةٍ . فَإِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ قَالَ لِي مُشَافَهَةً ، وَنَحْنُ عَلَى لَيْيَطٍ : « أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ صَنِيعَكَ وَأَدْخُلَ فِي مُجَلَّتِكَ . » وَقَالَ لِي رَسُولُهُ بَعْدَ تَقَافِهِ : « لَوْ أَنَّكَ تَقْبِلُ مَنْ تَخَلَّفَ فِيهَا ، لِأَقَامَ الْخُطْبَةَ بِأَسْمِكَ ، وَكَانَتْ فِي طَاعَتِكَ ! تَجِدُهُ وَيَجِدُكَ ! فَأَيُّتُ هَذَا الْقَوْلَ جُمْلَةً ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَذِهِ نَصْبَةٌ لَمْ يَكَدْ أَصْحَابُنَا يَتَخَطَّوْنَ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَرَامِ الشَّدِيدِ وَالْكَدِّ الْعَظِيمِ ! رُدَّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَشَقَّاتُ ! فَلَا يَقْتَرِضُهَا هَذَا الْوَقْتُ إِلَّا جَاهِلٌ بِالزَّمَانِ ! وَلَيْتَ لَوْ سَلِمْنَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَإِنَّهُ مَنْ أَمَلَ

أَنْ يُبْقَى بِلَدِهِ يَدُهُ ، فَقَدْ شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ ، فَكَيْفَ لِقُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَرَى وَأُمَيِّزُ ؟

وَلَمَّا طَامَت عَلَيْنَا الْيُسَانَةُ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ يُدَاخِلُهَا ، وَيَعِدُّهُمْ وَيَأْمُرُهُم بِالتَّثَبُّتِ ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ وَيَبْلُغُنِي * ٥٩ (ب) مِنْ ذَلِكَ مَا يُقْلِقُ . فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ نُوَجِّهَ إِلَى مُرْسِيَةِ مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأْنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُونُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ : إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا لِمِلَّةٍ مَتَى كَانَتْ ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرَجَالِنَا ؛ وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَثَمَرَتُهُ فِيمَا نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ ؟

١٠ وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ ثِقَاتِنَا لِذَلِكَ مَنْ أَنْقَذَنَاهُ ، اعْتَقَدَهَا الْمُعْتَمِدُ فِي نَفْسِهِ ؛ عَلَى أَنَّنَا لَمْ نَكُنْ نَعْرَمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلَبِ التَّعَلَّاتِ عَلَيْهِ آخَرَ ذَلِكَ بَأَنْ نَسْمَعَ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ ؛ فَيَنْقُضُ الْعَمَلَ بِسَبَبِهِ ، أَوْ تَوَقَّفَ الْحَالُ إِلَى أَمَدٍ مَا ؛ كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخَلَاتِ وَالْأَعْمَالِ : فَهِيَ مَا لَا يَتِمُّ ، أَوْ يَتِمَّ إِلَى حِينٍ .

٦٩ — إِرسَالُ سَفَارَةِ إِلَى يَوْسُفَ بْنِ تَاشُفِينِ

١٥

بِسَبَبَةِ مَنْ قَبَلَ عَبْدَ اللَّهِ وَلِإِقَاعِ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا أَتَى سَبَبَةَ ، وَهُوَ قَدْ أَحْشَدَ وَأَعَدَّ ، قَاصِدًا إِلَى جِهَتِنَا ، لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا ، أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا مُقَدِّمَةً ، بَعْدَ عِتَابِ (١٠)

كبير جرى بيننا وبين المعتمد على خبر مرسية ، لم يرد به مفسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبته ، وقدم رسلنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضي المتقدم ذكره ، المستعمل للعملة الموصوفة ، وباديس بن واروي من تلكاتة ، يهتونه على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومُسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يعلماني أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرض عليهما من الجليل ولطيف القول ما لا شك في تحبته . فسرنا ذلك . وكان فيما قال لهم : « يصنع ما شاء ! لست ممن يكلف أحداً إلا طاقته ! » فكان ذلك منه دهاء وحذقا ، مع ما نُبّه عليه قبل ، من قبل ابن سهل بالمخاطبة وغيره ، أن نفارنا عنه إنما كان من خشونة الكتابة الواردة من عنده ، وأن الداراة بالقول أولى ، حتى يظهر ما شاء ويمهد لعمله بذلك .

وإن ابن سهل* . لما رأى من خلاف الجند ، واطلع عليه من أنفس (١) ٦٠
 ١٥ أهل البلد ما اطلع ، قدّم لنفسه ، ورأى ألا يُخلى من عمل يقرّبه فيمن تقرب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مُختلف ، ونفث بذلك باديس المذكور . وصحّ عندي وقت انصرافهما أن ابن واروي قال : « أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أيّ كتفتّه ، والقاضي ضرب عنقه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة .

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٦) استسلامه للسلطان المرابطي . مسجنه .

إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠ — عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياه

[وعند وصوله قُرطُبة ،] اجتمع [أميرُ المسلمين] بالْمُتَمِّد ، وسأله عما لِهَجَّ الناسُ به من مُدَاخَلَةِ الروميِّ ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أميرُ المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبلْ إلينا ، ولا تتأخَّر ساعةً واحدةً ! »

١٠ فرأبى ذلك ، وهو موضعُ الانْقِيَاض ، لِمَا تَقَدَّمَ من الطَّلَب ، وأنَّ بِمَحْضَرِهِ جميعُ أعدائنا ، وإلْحَاحُهُ علينا في الوصول . واعتذرتُ إليه بِتَوَجُّيهِ رُؤْسِي : أَحَدُهُمَا وَلَدٌ حَجَّاجٌ ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعةً وصولهما ، قرَّعَهُمَا بِكُلِّ ما نُقِلَ إليه ، وأمر بِتَقَافِئِهِمَا في الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إِنِّي غَزَوْتُهُ كَمَا نَفَزُوا الْفُونَشَ ! والذى يقدر عليه ، فَلْيَصْنَعْ ! »

١٥ وأتاني بعضُ الفُرْسَانِ النَاهِضِينَ مع الرُّسُلِ على أسوأِ حالَةٍ ، مضروبين

ملهوفين ، أَطْلَقَهُمْ قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أَنْ أَطْلَقَهُمَا
الْأَمِيرُ حَتَّى يَنْطَلِقَ مَوْءَلٌ وَأَصْحَابُهُ ! » فدهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع
فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أَنْ يَجْرَى عَلَى هَذِهِ الرِّبَّةِ .

وَأَرْسَلَ عَلَى الْمَقَامِ كُتُبًا إِلَى الْيَسَّانَةِ — فَأَوَّلَ مَا طَاعَتْ لَهُ — وَإِلَى
٥ جَمِيعِ حِصُونِ الْغَرْبِ ، عَلَى يَدَيِ ثُبَّانِ الْمَذْكُورِ ، السَّامِعِي فِي مُدَاخَلَتِهَا قَدِيمًا .
وَكَانَ مِنْ كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ^(١) » . إِنْ لَمْ تُطَوِّعُونَا ، فَادْنُوا بِمَحْرَبٍ مِنْ
أَلَلِهِ وَرَسُولِهِ ^(٢) . وَإِنْ خِطَابَهُ لَمْ يَرِدْ عَلَى مَعْقِلٍ مِنْهَا إِلَّا وَالْتَمَى بِيَدِهِ ،
وَقَامَ أَهْلُهُ عَلَى إِخْرَاجِ قَائِدِهِمْ ، حَتَّى تَنَاقَرَتِ الْمَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِثَارِ الْعِقْدِ ؛
١٠ إِلَى أَنْ وَصَلَ الْأَمِيرُ إِلَى بَيْلُشْ ؛ وَمِنْ أَمْتَنَعَ مِنْهَا ، قَاتَلَتْهُ الرِّعْيَةُ مَعَهُمْ ،
حَتَّى يَلْقَى يَدَهُ .

فَلَمْ تَذَرِ مَا * نَصْنَعُ ، « وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ » ؛ وَقُلْتُ : ٦٠
« لَا طَاقَةَ لِي بِجَمِيعِ أَهْلِ الْبِلَادِ ، إِذَا غَدَرُوا وَخَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ ! فَبِمَنْ
نُمَسِّكُ الْحُضْرَةَ ؟ لَيْسَ فِيهَا خَلْقٌ مِنْ غَيْرِ جِنْسٍ مِمَّنْ كَانَ فِي الْمَعَاقِلِ .
١٥ « وَلَا يَتِمَكَّنُ لِلْخِيَاءِ أَنْ يَقِفَ دُونَ أَوْتَادِ ! » وَلَا فِي الْأَمْرِ مِنْ مُدَارَاةٍ
وَلَا حِيلَةٍ مَعَ الرَّجُلِ أَكْثَرَ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي خَلْعِنَا ! وَلَا نَحْنُ غَيْرُهُ يُسْنَدُ
إِلَيْهِ ، فَتُسْتَرِجَحُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدَّاهِيَةِ الْعُظْمَى وَالطَّامَّةِ الْكُبْرَى ! وَلَا فِي
الْثُمِّكِ أَنْ نَوَجِّهَ إِلَى الرُّومِيِّ ، فَيَكُونَ ذَلِكَ فُسَادًا فِي الدِّينِ ، وَاسْتِعْجَالًا
لِلْمَكْرُوهِ ؟ وَإِنْ شَعَرَ بِذَلِكَ أَهْلُ حَضْرَتِنَا ، كَانُوا أَوَّلَ مَنْ يِقَاتِلُنَا قَبْلَ

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرَابِطِينَ ! ما دام السِتْرُ يَنْتَنَّا وَبَيْنَهُمْ ، فَيَكْشِفُونَ لَنَا الْقِنَاعَ عَلَى بَصِيرَةٍ !
فَا عَهْدُنَا أَيَّامًا وَلِيَالِي كَانَتْ أَفْجَعَ لِقُلُوبِنَا ، وَأَذْهَى لِنَفُوسِنَا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ .

٧١ - وصول الجيش المُرابطى قبالة غرناطة

وقدَّم أمير المسلمين عَسْكَرًا إلى غرناطة ، ما دامَ مُحَاوَلَتُهُ لِلْحَصُونِ ،
يُحْرَسُونَهَا مِنْ دُخُولِ عَسْكَرِ بَرَّانِيٍّ ، إِلَى أَنْ يَرِدَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ . وَأَرْسَلَ
الْقَوَادُ إِلَيْنَا أَنْ تُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوتَ وَالْمَلْفَ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَأَجَبْنَاهُمْ ، لثَلَا يَقَعَ
مِنَّا شَيْءٌ مِنْ اِخْتِلَافٍ ، يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ .

وَأَرْسَلْتُ آخَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِمَالٍ ، وَيُعْلِمُونَهُ أَنَّ
ابْنَهُ ، وَغَيْرُ مُخَالِفٍ عَلَيْهِ ، وَالطَّاعَةُ مِنَّا لَهُ عَلَى مَرْغُوبِهِ ، دُونَ أَنْ يَخْرُجَ
إِلَى هَذَا التَّعَبِ كُلِّهِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا الْفَقِيهَ ابْنَ سَعْدُونَ ، يَقُولُ لَنَا : « لَا طَاعَةَ
وَلَا صُلْحَ إِلَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ ! وَهَذَا أَمَانُهُ : كِتَابٌ بِخَطِّ يَدِهِ ، يَتَضَمَّنُ
الْأَمَانَ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ دُونَ الْمَالِ . » فَأَيَّقَنْتُ بِالْفَرَضِ . وَكَانَ فِي آخِرِ
كِتَابِهِ لَنَا : « إِنْ كُنْتَ اسْتَوْحِشْتَ مِنَ الزُّوْلِ إِلَيْنَا ، فَتَخَيَّرْ مِنْ بِلَادِكَ
مَوْضِعًا تَصِيرُ فِيهِ ؛ وَلَتَكُنْ غَيْرَ غَرْنَاطَةَ ، لِنَرَى فِيهَا رَأْيَنَا ! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ
لَا تَمُوتُ ! »

فَرَوَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ بِمَالٍ وَمَكَانٍ لَا اخْتِيَارَ لِي فِيهِ ،
وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِيَّ إِلَّا أَلِيَّ مَعْقِلًا ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ . فَقُلْتُ :
« مِنَ السَّخْفِ يَكُونُ أَنْ أَقُولَ : « قَدْ اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كَذَا ! » فَإِنْ
كَانَ لَهَا كَارِهًا ، لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أُرَدَّ مِنْهُ بِتَعَلُّلٍ وَحُجَّةٍ لِقَوِيٍّ عَلَى الضَّعِيفِ !
وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ الْعِوَضُ ، فَيَخْرُجُنِي إِلَيْهِ يُرَبِّي مَا يُنْتَقَدُهُ * مِنْ إِحْسَانٍ . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والتَّراعى عليه ؛ فإن كان قد أَجَلَ وقيل ، فَلهُ الْفَضْلُ ،
وعلى الشُّكْرِ آخِرَ الدَّهْرِ . وإن كان قد غدر ، كُنَّا وَاثِقِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأُبْلَيْنَا
عند الله وعند الناس العَذَرَ ! »

٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهيهم وحرّكاتهم ، اطلعنا على أمورٍ
دليّةٍ على الانتقال ، مؤذنةٍ بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ،
مع المعاينة لما عَمِيَ قَبْلُ ، وإظهارٍ ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَجَ ولا هِيئةَ ولا
صَوْلَةَ تَتَقَى . أمّا الْجُنْدُ من البربر ، فكانوا مُقْتَبِطِينَ بِهِمْ ، طامعين في
الزيادة على أيديهم للجنسية . واتفق رأيهم على ألا يلقوه بِحَجَرٍ ، وقدّموا
١٠ كُتُبَهُمْ بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يَعِدُّهُمْ بأن يُبْقِيَهُمْ في أُمَاكِهِمْ على
أَفْضَلِ ما كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوق ، تقلّع إلى السفلى
بأهله وماله ، وبقي هو بنسبته مُنفَرِداً متأهباً للشرِّ ، إمّا بالخروج إليه من
الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ^(١) منا .

١٥ ومن كان من التجار وأهل البلد ، فكانوا على نية أنهم مع مَنْ سَبَقَ ،
ولا طاقة لهم بالحرب ، ولا هُمْ أَهْلُهُ ؛ وأكثرهم خرج من البلدة يقول :
« لَأَيِّ وَجْهِ نَحْتَمِلُ الْحِصَارَ ؟ تَاجِرٌ هُنَا وَصَانِعٌ كَمَا فِي غَيْرِهَا ! » وأمّا
الرعيّة ، فبَنَحَ بَنَحَ ذَلِكَ ما كانت تبغى ، طمعاً منها في الحرّية ، وأنها
لا يُلْزِمُهَا غير الزكاة والعُشُر .

وأمّا الرّقاصة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كُنَّا

أصل : « التبرؤ » .

نُسِكَ الحِصُون ، فَهَمُّ أَوَّلُ مَنْ طَاعَ ، وَأَعْيُنُ مَنْ بِالْحَضْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَّا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمَّنَا ؟ » قَلَمَ نَجِدُ فِي صِنْفٍ مِنْهَا
رَاحَةً يُرْجَى مَعُونَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَمِيدُ وَالصَّقَالِبَةُ ، فَالْعَمِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ مَنْ عَصَا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،
بَلَوُشَةُ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي طَاقِيَةِ
أَنْ يَخْطِئُوا عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَاهُمْ رَبَّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ
اللَّهُ — لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ !

حَتَّى الْخَدَمُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخِصْيَانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،
وَالْخُرُوجِ عَنْ ثِقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةِ* التَّسْرِيحِ ، وَالِاسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا ٦١ (ب)
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَعَفَرُ الْخَصِيِّ مِنْهُمْ وَلَيْبِيبُ كَانَا زَعِيمَي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسِ
الْفَتْكِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدَ ! فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ نَصْبِرُ عَلَى
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَطْمَعُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَحْمِلُ بَنَّا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً
أَوْ قِضَاءً أَوْ فِقْهًا ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مِنْ مَسْبِقِ اسْتِمْتَاعِ بَنَّا ، وَكُنَّا
عِنْدَهُ مِنْ جِلَّةِ الْفَقِيرِ ، نَرْزُقُ كَسَائِرَ الْكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ ! تَعَالَوْا بَنَّا !
نُقَدِّمُ لَأَنْفُسِنَا ! » فَوُرِدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِزَالَةِ الْقَوِيَّةِ ،
وَالْمُنَاقِيلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَعِدُّهُمْ بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،
حَتَّى اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ

٢٠ وَلَا اتَّسَقَ لَهُ مَا أُثْمِلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبَلَدَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيمَةِ عَشْكِرِهِ ،

كما ذكّرنا ، إلى فَحْصِ غَرْناطة ، وكان أهلُ البلدِ يتقلّمون من المدينة إلى البادية ، ويخرجون منها^(١) أفواجا ، رأينا إمارة الشرّ وعلامة السوء . فإذا بأمر المسلمين في أثر ذلك العسكر مُقْبِلًا إلى الحضرة . فهاج الناسُ وجزعوا . واتفق رأيي ، مع مَنْ نصحنى ، أنْ الخروجَ إليه أوّلَى ، والتزامي عليه أنجأ من هذه النار الموقدة . فلملّه ، إذا رأى براءتنا مما نقله العدو ، ولم يجد في المدينة نصارى كما قيل ، فلا بُدَّ له من وَجْهَيْنِ : إمّا صَرْفُنا إلى أوطاننا ، وإمّا إخراجنا . فلنْ نعلم معه جيلاً ، إذ لم نُهْجِ عليه حرباً ، ولا اتَّعَبْنَاهُ في أمرٍ .

- وكم عَسَا العَيْشُ في هذه الدُّنْيَا ! والنجاة بالنفس في دار الدُّنْيَا وتخليصها من الأوزار في الآخرة ، لا يُبَالِغُ ذلك شيءٌ ولا يعدله ! فاستعْمَلْنَا العقل الذي جعله الله أميراً على كلِّ شيءٍ ؛ وكلُّ قُوَّةٍ لا يتأتَّىها العقلُ ضُفِفَتْ وَسُكِّرَتْ ، مع سوءِ العاقبة . ولا سيما أننا بحال لا بُدَّ من إسقاط الرُّومِ بإرضاء المسلمين بإرضاء الرُّومِ ! فالآن يبرئها المسلمون أوّلَى وأَجَلُّ للعاقبة ، إذ هي نُشْبَةٌ لا ملجأ منها إلّا بما ذكرنا .
- اللَّهُمَّ إِنْه لو امتسكنا فيها بنفقة الأموال ، ولا يمكن استبدادُ دون انتظار قُوَّةٍ من النصارى ، مُنَّمْ آتَى الرومُ ، فينحاش عسكراً المسلمين إلى الجزيرة أو إلى قُرْطُبَةٍ ، *مُرْتَقِبًا لما يكون منه ، فيقول لى الرومُ : « قد ٦٢ (١) أَقْلَمْتُ عَنْكَ مِنْ أَرَادَكَ ! هَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا نَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَكَافَأَةِ ! » فلو قلتُ له : « اتركْ عَسْكَرًا مَعِيَ ، وَابْقَ أَنْتَ لَنَا يُمَادِنَا ! »
- ٣٠ ما كان يفعل ، ويخشى على عسكره البوارَ بين أهلِ البلدة والعسكر الخارج .

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترك قُوَّةً ، فساعة انصرفه وإقبال المرابطين ، لم ترتقد لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة .

- ولو أن عند إقبال الرؤى ، يقول لنا : « إن كنت تتقى من المرابطين ، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم ؛ فتخل لنا عنها ، وتصير إلى كل ما تحبُّه مع النجاة بنفسك وحشمتك وذخايرك ، كالذي صنعت بجفيد ابن ذى النون ، إذ علّوضته بلفسية ؛ وإلا ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تفيدنا بالبلدة ، وما بقى بخروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبة للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أطعناه ، لارتكبتنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعبنا الله عليه والناس أجمعون ، وكنتا نترك غرناطة حبساً للرؤم ، يضرّون منها المسلمين ؛ فلا دماء تسقك منها ، ولا داخله تدخل إلا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثر الدنيا على الآخرة !
- ولو أن يتربّص المرابط عند إقبال الرؤى ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبقى على لقائه^(١) ، فلو التقت الفئتان ، فلا بُدّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أتها على الرؤى ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم على قتلنا شيئاً بالحجة أننا أجلبنا ؛ ولو أن الرؤى يقلب ، فبقى بعد ذلك في الملك ما شاء الله ، لم يطب لنا ملك ، ولا استحيينا من الله والناس أن يكون ذلك ببوار المسلمين وهلاكهم ! ثم إنه لا يصح لنا ثبوت معه ، وأى شيء كان يحجره عنا ، ولا شيء ترجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بمن نتصر لو هم بأخذ الكل .

(١) أصل : « لقاء » .

كَيْفَ مَارَوْيْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا لِمَنْ تَعَقَّبَ الْأَمْرَ
وَتَدَبَّرَهُ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حَكْمِهِ* الْأَقْدَارُ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهَالٍ ! فَخَرَجْنَا ٦٢ (ب)
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، لَا نَدْرِي مَا نَلْقَى ، إِلَّا كَالْخَاطِرِ
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِنَدَاكَ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَا
مِنَهُ التَّرَاعَاةَ وَالْكَرَامَةَ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالتَّرْقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ
يُثَبِّتَ خَبَرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

فَاتَدَبَّ [قَبْلَ ذَلِكَ] أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ نُودِعَ
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ نَفْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هُوَ لَا يَطْلُبُونَ مَا يَزِيدُونِ
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ، وَلَيْسَ نُخْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ
وَجْهِينَ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا نَقِيتُ
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ يَبْغِضُهُ ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمْرِ لِيَتَهَيَّ بِمَا يَبِيقُ
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ نَفْتَضِحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا
يَحْنُقُ عَلَيَّ ؛ فَيُوَدِّعُنِي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي الْمَالِ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ نَرْجُو
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أَمَكْنِي أَنْ أَزِيدَ فِيهَا ، فَضْلًا
أَعْيُنُهُمْ ! وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعَيْشَ لِنَاصَةِ نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ
عَنِّي بَقِيَّةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي الْفَرَارِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ يَبْقَى مَعِي ، مَعَ
اخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ : وَكَثْرَةُ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلَكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالآن
٢٠ قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِحُشَاشَةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

- فخرَجْتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف القصر ؛ ولاخَوْفَ عليه ذلك الوقت ،
 إذ كان الناسُ بينَ يأسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأة من أحد في
 اعتراض شيء من ساقيتنا . ولَمَّا أُتِرِلْتُ بتولي قُرُور للأمر ، جعل الحرص
 ٥ على الخبياء ، وأمر بطرد الداخل والخارج ؛ وحيلَ بيننا وبين عبيدنا
 وصنائعنا : كلُّ يَفْتَش عليه ويُنَحِّث على ماله من مالٍ كسبه في ولايتنا .
 ثمَّ أَنَا الفقيه ابنُ سَعْدُون من عند أمير المسلمين ، يقول : « أَحْضِر
 الأموال والأزِمَّة بها ! فإنَّ مؤملاً قد أخبره أَنَّهُ ليس عندك دِرْهَمٌ إِلَّا بِزَمَامٍ
 وَذِكْرٍ . » فقلتُ له : « نَعَمْ ! كانَ * ذلك ، قد تَرَكْتُهُ في داري ؛ ٦٣ (١)
 ١٠ فإنَّ أبا ح لي السَّيْرَ بنفسِي لاستخراج الكلِّ ؛ وإلا ، فهذه أُمِّي ، تتولى
 ذلك مع ثِقَاتِهِ حتَّى لَا يُفَادِرَكُم منه خيطٌ ! »

- وكان ، عند خروجي ، قد وقع في نفسي من خوف الثقاف ما خَشِيتُ
 الفرقةَ منها إن تَرَكْتُهَا في القصر ؛ فخرَجْتُ معها ، ولم أَلْتَفِتْ إلى ماسِوَاهَا .
 وأنا مع ذلك في حيرةٍ لا أَدْرِي لِمَا يصير أُمْرِي ؛ قد أَشْرَبَ قلبي من الخوف
 ١٥ والجزع ما لم أعْهَدْهُ قَطُّ ، ولا كان فيه عزاء . فإنَّ الأمور التي ينبغي لها
 الاستثباتُ والصبرُ ما كان من أَمْرٍ دون أَمْرٍ ؛ وإنَّ جُلَّ خَطْبٍ ، يُرْجَى
 في غيره الراحة ؛ وبعضُ الشرِّ أَهْوَنُ من بعضٍ ؛ وإنَّما هذه النصبَةُ لم
 يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أَمَلٍ ورجاءٍ يُشِيرُ ، إِلَّا بِحِثِّ يُحْتَسَبُ .
 فَأَذْهَلَنِي ذلك عن كلِّ مَالٍ فيه صلاحٌ من تَقْدِمةِ النَّظَرِ في مالٍ أو غيره ؛
 ٢٠ بل ، كانت نفسي آكَدَ عَلَيَّ ، لم تعمل حسابَ مَنْ يعيش ، لا سِوَا من
 لم تَجَرَّ عليه قبل ذلك مِحْنَةٌ ، ولا أَكْرَبَهُ الدهرُ بِرِزْيَةٍ . فجاءتْ بُحْلَةٌ ،

أَبْهَتَتْ وَخَانَتْ الْقِيَّاسَ ، وَحَادَتْ عَنْ سَبِيلِ الْمَهُودِ .
 وَقَدْ كَانَ أُرْسِلَ إِلَى قَرُورٍ يَطْلُبُ خَطًّا يَدَى بِإِسْلَامِ الْمَدِينَةِ وَإِخْرَاجِ
 مَنْ لِي فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ . فَبَادَرْتُ عَلَى الْمَقَامِ ، إِذِ الْاِئْتِوَاعِ عَنْ ذَلِكَ مِمَّا
 لَا يَنْفَعُ ؛ وَلَوْ فَعَلْتُ ، لَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْهَوَانِ ، وَلَمْ يَفِدْ شَيْئًا ، وَأَنَا
 ٥ قَدْ حَصَلْتُ فِي الْقَبْضَةِ .

وَكُنْتُ أُخْرِجْتُ مَعَ نَفْسِي أَسْبَابًا مِنْهَا سَقَطَ ذَهَبٌ فِيهِ عَشْرَةُ عُقُودٍ
 مِنْ أَنْفَسِ الْجَوْهَرِ ، وَذَهَبًا مَبْلُغُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَخَوَاتِمَ ؛
 وَتَأَوَّلْتُ فِي إِخْرَاجِهَا مَعِيَ أَنْ قُلْتُ : « إِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَسْدُو مِنَ الْأَمِيرِ
 بِتَقَافِي ، فَهَذِهِ حَاصِلُهُ لَا تَنْفَعُ ، مُجْمَلٌ كَسَوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَ
 ١٠ فِي الْأَمْرِ بَعْدَ قِضَاءِ غَزْوَتِهِ ، دَارَيْتُ مِنْهَا وَأَعَدَدْتُهَا لِمَا يَنْبَغُ عَلَى الْعَسْكَرِ
 وَمُتَاحِفَةِ الثَّرَايِطِينَ . »

وَلَمْ يُتْرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَفُتِّشَ عَلَيْهِمْ أَلَّا تَكُنْ
 فِي أَوْسَاطِهِمْ خَبِيثَةٌ . وَجَعَلَ قَرُورٌ يَقُولُ لِي وَلِأُمِّي : « اكشِفَا لِي عَنْ
 ثِيَابِكَا . * فَقَدْ أَخْبَرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الْجَوْهَرِ عَلَى أَوْسَاطِكُمَا . » فَتَبَرَّأْنَا ٦٣ (ب)
 ١٥ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ . ثُمَّ جَعَلَ يَنْفِضُ الْمَخْدَاتِ عَنْ
 الصُّوفِ ، وَيَفْتَشُ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّوَايِيتِ عَلَى وَجُوهِهَا ، وَيَحُلُّ طَيَّ
 الثِّيَابِ ، فَتَشًّا لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ قَطُّ . ثُمَّ أَمَرَ بِحُفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْإِلْجَاءُ ،
 خَوْفًا مِنْ أَنْ نُدْفَنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُولُ لِي : « إِنْ سَلَسَ
 بِرُوحِكَ ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ! »

٢٠ وَصَارَ الْكُلُّ فَيِّنًا مِنْ خَادِمٍ وَغُلَامٍ ، مَا خَلَانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَقْتُ
 خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مَعَ أُمِّي صَلِيَّةً طَمَعْتُ أَنْ أُنْجُو بِهَا ، فَلَا يُؤَيِّبُهُ لَهَا ،

أَلَّا أَنْفَرِدَ دُونَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي ، لِتَكُونَ لِي عُدَّةٌ لَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَأَتَى قُرُورَ ، وَأَلْقَى يَدَهُ فِيهَا ، وَأَخْرَجَهَا ، وَقَشَّ ثِيَابَهَا عَلَى الْمَقَامِ ، وَتَحَمَّلَهَا . ثُمَّ أَتَى إِلَى أُنَاثِ الْخِجَابِ كُلِّهِ وَقَشَّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَكَلَّ ثَوْبًا أَوْ حَاجَةً اسْتَحْسَنَهَا ، أَخَذَهَا لِنَفْسِهِ . وَكَادَ أَنْ يُعْرِئَنِي مِنَ الْكُلِّ . وَأَصَابَ الدَّنَانِيرَ الْمَذْكُورَةَ ؛

٥ قَالَ لِي : « مَا أَرَدْتَ بِإِخْرَاجِهَا ؟ » قُلْتُ : « لِأَتَأَخِّفَ بِهَا الْأَمِيرَ ! » فَهَدَدَنِي وَأَدْخَلَنِي تَحْتَ وَعِيدٍ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِاتِّقَالِهَا عَلَى الْمَقَامِ ، وَأَخَذَ السِّفْطَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ وَالْخَوَانِمِ : هُوَ مِنْ جِهَةٍ ، وَرَبِيبُهُ مِنْ أُخْرَى ؛ وَأَنَا فِي هَذَا كُلِّهِ لَا أَرْجُو شَيْئًا إِلَّا السَّلَامَةَ فِي الرُّوحِ ، وَلَمْ نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَعْدَ هَذَا إِلَّا الْقَتْلُ .

١٠ ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ وَالِدَتِي بِالطَّلُوعِ إِلَى الْقَصْرِ لِاسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ . فَتَكَدَّرْتُ لِذَلِكَ أَيَّامًا ، مَا مِنْهَا يَوْمٌ إِلَّا وَنَظَنُّ أَنَّهُ لَا تَرْجِعُ إِلَيَّ ، حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِمُ الْكُلَّ بِالْأَزِمَةِ ، لَمْ يُغَادِرْهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، حَتَّى أَنَّ الْحَاجَةَ الْيَسِيرَةَ رُبَّمَا كَانَتْ عِنْدِي فِي الْخِجَابِ ، فَيُسَدَّدُ فِيهَا عَلَى الْوَالِدَةِ ، فَتَأْتِي عَنْهَا وَتَحْمِلُهَا إِلَيْهِمْ . وَلَمْ يَتَّبِعْنِي لِي خِلَافُ أَهْلِ بَلَدِي ، إِلَّا وَالْأَمْرُ قَدْ قَاتَ ، مِنْ النَّظَرِ

١٥ فِي الزَّمَامِ أَوْ غَيْرِهِ . وَلَمْ يَتَقَدَّمْنِي أَحَدٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَنَأْخُذَ حِذْرِي وَنَتَأَهَّبَ لَهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِذَا أُعْطِيَ ، فَلَا مَانِعَ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَتَهَيَّأُ ، مَعَ مَا سُلِبَ وَضَاعَ ، كُتُبُوتٌ وَلَا بَقْلًا ، وَلَوْ رُفِعَ إِلَى أَعْنَانِ السَّمَاءِ .

فَلَمَّا تَقَصَّوْا* الْجَمِيعَ ، وَتَبَيَّنَ الْحَقُّ ، جَاءَنِي قُرُورُ بِوَصِيَّةِ السُّلْطَانِ ، مَعَ ٦٤ (١)

أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُسْكَنَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَلَى مُنْتَقِمٍ شَانِيٍّ ، وَهُوَ يَقُولُ لِي :

٢٠ « الْأَمِيرُ يُنْهِي إِلَيْكَ أَنْ لَا يَبْقَى لَكَ عِنْدَ أَحَدٍ وَدِيعَةٌ ؛ وَإِنَّ مَا فِي قَصْرِكَ

قَدْ نَزَلَتْ عَنْهُ بِالْأَزِمَةِ ؛ وَمَا فِي خِيَانَتِكَ قَدْ صَارَ إِلَيْنَا وَقَشَّاهُ ؛ وَبَقِيَ لَنَا

أَنْ تَذَرِي مَالَكَ مَوْدُوعًا ؛ وَإِذَا ، لَا عَهْدَ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ ، إِنْ خُرِجَ قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَا تَكُونِ عُقْبَاكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي الصَّخْرَاءِ بِحَيْثُ لَا تَرْجَحُ ذَلِكَ لِلْمَالِ ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعْتَهُ . « فَرَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعَةً ؛ فَلَمْ أَجِدْ . وَأَقْسَمْتُ لَهُ عَلَى حَقِّ .

- وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ ، أُعْظِمُهَا ، وَأَقُولُ لَهَا : « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ! إِلَّا مَا أَشَقَقْتُ عَلَى ؟ قُرْبَانًا قَدْ أَخْرَجْتَنِي شَيْئًا لَا أَعْلَمُهُ ؛ فَيُظْهِرُ بَعْدِي ، وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاكِي ، وَهَلَاكُكَ ! وَالْدُّنْيَا أَقْلٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَالْقَوْمُ ، كَمَا تَرَيْنَ ، مُتَمَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ ، يَطْلُقُونَ مَعْنَى أَرْقَ سَبَبٍ إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَقِي بِي ! وَإِذَا تَبَرَّأْنَا لَهُ ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا . وَلَيْسَ يُدْخَرُ الْمَالُ إِلَّا لثَلَاثٍ : ١٠
- سُلْطَانٌ يَجُورُ ، أَوْ فِتْنَةٌ تَدُومُ ، أَوْ عُمرٌ يَطُولُ . وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ ! « فَلَمَّا تِمِمْتُ ذَلِكَ ، بَكَتْ وَقَالَتْ : « نَخْشَى أَنْ نَبْقَى فُقَرَاءًا ! وَلِلْوَتِّ أَهْوَنُ مِنَ الْفَقْرِ ! » فَسَهَّلْتُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ ؛ وَقَالَتْ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ مَنْ خَلَقَ ! » فَكَتَبْتُ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعْتُ مِنْ مَتَاعِهَا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا : ذَكَرْتُ أَنَّ لَهَا عِنْدَ لَدَّةِ خَادِمِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ١٥
- كَاتِبِينَ سُبَيْبَاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا ، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرَوِيُّ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِثْقَالٍ ، وَحَلِيًّا أَرْسَلْتُ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ : نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا ؛ فَأَمَّا الْحُلِيُّ ، فَأَتَاهَا وَأَعْطَتْهُ لِقَرُورٍ ، وَلَمْ تَوْخَرْ بِهِ سَاعَةً ؛ وَأَمَّا الزَّهَبُ ، فَأَنَاهَا ، لَمَّا جَلَبَتْهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ ، بِأَدْرَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَحَمَّلَهُ لِنَفْسِهِ .
- وَكُنْتُ قَعَلْتُ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَتَتْ إِلَى قَرُورٍ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ * ؛ ٦٤ (ب) فَوَقَعَ إِلَيْنَا الْخَبِيرُ ، وَزَادَنَا ذَلِكَ هَمًّا أَنْ بَدَرُوا بِهِ لِلشَّرْطِ الَّذِي اشْتَرَطَ عَلَيْنَا ؛

فَأَخَذْتُ عَلَى الْقَامِ تِلْكَ التَّسْمِيَةَ ، وَأَرْسَلْتُهَا إِلَى قَرُورَ ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِنَا ؛
 فَقَالَ : « قَدْ أَخْرَجُوهُ لَنَا . فَإِيَّاكُمْ أَنْ يَبْقَى لَكُمْ شَيْءٌ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ! »
 فَاسْتَفْهَمْتُ وَالِدَتِي ثَانِيَةً ، وَبَكَيتُ لَهَا ؛ فَقَالَتْ : « مَا لِي شَيْءٌ عِنْدَ أَحَدٍ
 أَكْثَرَ ! » فَأَخَذْنَا الْمَصَاحِفَ ، وَخَلَقْنَا فِيهَا لِقَرُورَ أَنَّهُ مَا لَنَا شَيْءٌ أَكْثَرَ ،
 لَا مُوَدَّعٌ وَلَا مَرْفُوعٌ . « فَأَعْلَمَ السُّلْطَانُ بِمَا أَقْسَمْنَا بِهِ ، وَجَعَلَ مَعَ هَذَا
 يَبْحَثُ وَيَسْتَقْصِي . فَمَا وَجَدَ لَنَا أَكْثَرَ كَمَا قَالَتِ الْوَالِدَةُ .

وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا ، أَتَانَا قَرُورَ ثَانِيَةً ، وَقَالَ : « أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ أَنَّهُ
 لَا وَدِيعَةَ لَكُمْ أَكْثَرَ . وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مَالٌ مَدْفُونٌ ! »
 فَقُلْتُ : « مَا عَلِمْنَا قَطُّ بِدَفْنٍ ، وَلَا حَسَبْنَا هَذَا الْحَسَابَ ؛ وَلَا كَانَ الدَّفْنُ
 شَأْنَنَا ! وَغَيْرُ مُتَعَذِّرٍ عَلَى الْأَمِيرِ أَنْ يَحْفَرَ الْقَصْرَ كُلَّهُ ، حَتَّى يَرَى ! »
 فَقَالَ لِي : « إِيَّاكَ بِالْمَنْكَبِ ! » فَقُلْتُ : « مَا لِي بِالْمَنْكَبِ إِلَّا شَيْءٌ مِنْ
 الْأَثَاثِ عَدَدَتْهُ لِنَزُولِي فِيهَا : جَمِيعُ ذَلِكَ بِزِمَامٍ بِخَطِّ يَدِي . يُرْسِلُ فِيهِ
 الْأَمِيرُ وَيَأْخُذُ بِهِ ! » فَقَالَ لِي : « هَاتِ خَطَّ يَدِكَ بِإِخْلَاءِ الْمَنْكَبِ ! »
 فَبَادَرْتُ عَلَى الْقَامِ . وَأَصَابَ الزُّمَامُ بِالْمَنْكَبِ عَلَى الصِّقَّةِ الَّتِي وَصَفْتُ .
 وَكَانَ الْجُنْدُ بِهَا قَدْ تَرَبَّصُوا ، وَقَامَتِ الرِّعْيَةُ ؛ فَطَلَبَ خَطَّ يَدِي بِالْإِخْلَاءِ .

وَلَمَّا صَحَّ عِنْدَهُ بَرَاءَتُنَا مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، أَتَانَا قَرُورَ لِتَحْصِيلِ مَا بَقِيَ . وَالْعَجَبُ
 مِنْهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ أَنَّهُ أَتَانِي بِسِفَرٍ كَبِيرٍ ، وَقَالَ لِي : « أَقْرَأْهُ ! فَإِنَّ فِيهِ جَمِيعَ
 الْأَعْلَامِ الَّتِي رَأَى النَّاسُ لَنَا بِمُلْكِ الْأَنْدَلُسِ ، وَفِيهِ عِبَارَاتُهَا ! » وَلَا أَدْرِي مَا أَقْرَأُ ،
 [وَلَا أَسْمَعُ] ، أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِهِ لِي بِهَذَا اللَّفْظِ : « لَيْسَ كَذَا هُوَ ؟ فَجِيتَ الْأَمْوَالُ ،
 لَا [بَقِيَ لَكَ] مِنْهَا شَيْءٌ ! » وَلَمَّا وَقَفَ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْخِلَاءِ مِنْ وَطَاءٍ وَثِيَابٍ ،
 رَفَعَ بِذَلِكَ كِتَابًا إِلَى الْأَمِيرِ ، وَأَعَادَ الْفَتَشَ ؛ يَجِدُ غَيْرَ مَا رَأَاهُ * أَوَّلًا . (١) ٦٥

٧٥ - نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خبر بما فى التسمية أنه لا غنى للإنسان عنه ، سوَّغَهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خَدَمٍ ، أمرَ لنا بها ، وأَعَارَنا دَوَابَّ^(١) خمسةً لنقلانِ الأثاثَ كُلَّهُ ، وأمرَنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء ، وقال :
 ٥ « تَنْتَظَرُوا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم . » وأعطانا من المُرَابِطِينَ مُشَيِّعِينَ مَنْ يُؤَيِّسُنَا ويتكفلُ أُمُورَنا . فشكرنا له ذلك ، وتحرَّكنا على المقام ، إذ كان الحفرُ منه فى ذلك شديداً .

وَكُنَّا طَوَلَ طريقنا جازعين ، لا ندرى ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الإشارةُ فينا . ولقد كنتُ أرى المُرَابِطِينَ ينزلون بِمَنْزِلٍ ، أو يَحْتَلُونَ فى موضعٍ ، فأقول : « إِنَّ ذلكَ لشيءٌ أُمِرُوا به ! » فكنتُ طريقى ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ ، أسأَلُ اللهَ أنْ يُكَفِّرَ بها السيئاتُ ، ويجعلها آخِرَ مصائبنا بعزته ؛ إلى أن وَصَلْنَا الجزيرة .

فأرْسَلْنَا إلى سَبْتَةِ ؛ وَدَخَلْنَا الْبَحْرَ فى يومٍ عاصِفٍ ، أَدْرَكَتْنا فيه أهوالٌ لم نَكُنْ نَسلمُ منها إلَّا بالأجلِ الذى لم يحضر ؛ حتى خَرَجْنَا إلى سَبْتَةِ ، بعد أن قيل لنا : « فيها تَنْتَظَرُوا الأمير ! » كما قيل عن الجزيرة . فزادنا ذلك قلقاً .

ثُمَّ نُقِلْنَا إلى مَكْنَسَةِ الزَّيْتُونِ . وَتَلَقَّانا الأميرُ سَيرُ ، وأنَّسنا ، وأخبرنا أن مَقامنا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلس . وأرْسَلَ إلينا مائةَ دينار . وعند حُلُولنا بها ، أبقانا بالمقام فيها . وبقينا على تلك الحال ، قد

(١) أصل : دوابا .

فَقَدَ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَحْوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي تَرَكْتُمْ لَنَا بَعْدَ أَنْ
اسْتَحْذَوْا قَرُورَ وَحَاسِيَتَهُ عَلَى أَكْثَرِهَا (فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ !) ، لَمْ
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَنْظُرُ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْقِيَ . وَالسُّلْطَانُ — أَيَّدَهُ اللَّهُ ! —
غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنِ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ
أَنْشُقِي مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ .

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنََّّهُ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [كَتَبَ إِلَيَّ] يَقُولُ
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [وَقَدْ كُنْتُ] أَخْرَجْتُهُ
مِنْ إصْبَعِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دِينَارٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ نَعْلَهُ * بِحَاجَتِي إِلَى ثَمَنِهِ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلَا يُبْقِيَ لَنَا شَيْئًا ، وَيَتَقَصَّى الْجَمِيعَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ
لِي غَيْرُهُ . ١٠

ثُمَّ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةِ ؛
وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَعِدُنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أَنْسَاكَ مَا بَقِيَتْ ! »
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللَّهِ
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْثُوكُش^(١) ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ
مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِنْشَارًا . فَعَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقِلٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ
الرُّوعَ كَانَ أَفْتَرًا ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلَبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، جِبِلَّةٌ قَدْ جَبَلَهُ اللَّهُ
عَلَى بُغْضِي ، مَعَ قَلْبِهِ رَحْمَتِهِ ، وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ ، وَدَنَاءَتِهِ وَلَوْ مِهِ .

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . نفيه

وَبَلَقْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا نَعِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،
لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِفَرْطَانَةِ لِإِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَنَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ
مُرَقَّبِينَ فِي الْخَبَاءِ ، كَانَ تَمِيمٌ الْمَذْكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا لِذِي يَلْزَمُ
مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بِبَصَرِهِ ،
وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لَدَيْكَ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنَّ مَا لَا أَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْمَالِ
مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنَّ قِيلَ
لِلْأَمِيرِ : « تَقَفْتَ صَاحِبَ غَرْطَانَةِ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ
إِلَى بِلَادِهِ ، طَلَبَكَ بِالنَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّهِ وَحَدَّثَهُ !
١٠ فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْسُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَعَاجِلٌ بِثِقَافِهِ ، يُصَنِّفُ لَكَ مَا تَوَقَّلُ ! »

وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمْنِي أَخِي الْمَذْكُورُ ، قَدْ أُنْسَهُ السُّلْطَانُ ،
وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيْ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتَ مِنْ
أَخِيكَ [بِالْمَسْئُولِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي] الطَّاعَةِ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،
وَإِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [الْمُرَابِطِيَّةَ] . وَالْآنَ تَسْتَحْمِدُ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،
١٥ وَنَجْعَلُ لَكَ بِتِلْكَ الْمَزِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعَ الصَّبِيُّ بِذَلِكَ ، وَشَرِيَهُ إِلَيْهِ :
كُلُّ ذَلِكَ خِيْلَانٌ [اغْتَرَّ بِهِ] * مُلُوكُ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدُ مِنْ أَجْلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ (١)
فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتِ الْأَمَالُ بِحَيْثُ يَتَبَقَّى لَهَا
أَنْ تَقْصُرَ .

فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أُخِذَ فُجْأَةً لَثْلَا يَشْمُرُ ، فَيَغِيبُ الْمَالُ الَّذِي أَتَمَّهُ بِهِ ،
٢٠ وَيَفِرُّ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرِكْ لَهُ سَقَطًا ؛ وَبِعَتْ أَسْبَابُهُ

في موضع تحلته : قيم لها ثم سوق . وألقى في الحديد ، وأمر به إلى
السوس . ولما كان طريقه على مكناسة ، لقيناه ؛ فأخبر بهول ما قاسى ،
وبصرتنا به ، وهو على تلك الحال قد شق بالكبل لعظمه ، لا يقدر أن
يتحرك به . فأوجب ذلك ما وميم به من الشر ؛ وأن أهل مالقة رفعوا إليه
ه حينئذ أفضالاً قبيحة ، وأبأذى سيئة أسداها إليهم ، على ما ذكر ؛ فاتفقت
الأسباب . فلم يرد الأمير أخذه إلا بيئته ؛ إلى أن وصل السوس ،
ووصى به أمير المسلمين إلى بزلف ، وبالنح في إكرامه . وكان معه في عافية
ورغد من الميش . وفوض أمره إلى ولاة السوس بعد بزلف .

الفصل الحادي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ — موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعدوة ، بعد أن أكمل
ما شاءه من أمر بني عبّاد وصاحب الرية :

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ منها ما بَلَّغْنَا منها ، مما يقبله العقل ، لا بتخليط الناس ؛
وَنُخْتَصِرُ من الوصف ما يُفْنَى عنه الإكثار : فإنها أمورٌ لم نُشَاهِدْها ، فَنُخْبِرَ
عن يقينٍ وإطنابٍ ؛ ولا غابت عنا كل الغياب ، فَنَجْهَلَ مَصْدَرَهَا
ومَوَرِدَهَا ، أن الذي كُنْتُ فيه أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ من النِّفَاتِ ما حدث
بَعْدُنَا لِقَلَّةِ المبالاة بما لا يعنيننا منها ، ولشُغْلِ خواطِرنا بما دَهَيْنَا به ، على أن
ذِكْرُ ما سَمِعَ ، وَنَحْنُ قد أَمِينًا من المَوْتِ ، أَيْسَرُ من ذِكْرِ ما عَيْنَاهُ ،
وَنَحْنُ جازعون منه . فحقَّ لنا أن نذهل عن عِلْمِ جليئته بالمعينة ، وعن
وصفه بعد الأمان ؛ فإنه من ذَكَرَ الهولَ ، فكأنه فيه .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ سَجِيئِهِ إلى غرناطة ، قد وعد المُعْتَمِدَ
بها . ، وقال له : « أنا رجلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وليس قَدَمَتِي أَخْذُ مالٍ ولا

بلاد ! * وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة ؛ وتتوقع عليها من الروى . وليس ٦٦ (ب)
غَرَضِي أ كَثَر من تخليصها ؛ فإذا صارت في يدي ، ولا يُمكنني إمساكها
لِئَن بِلاد الأندلس من العِدوة ، وضَعْتُها عند ذلك في يدِكَ : فتكونُ أعلمُ
بما تَصنعُ بها ، وأقعدُ لِمَا يُصلحُ المسلمين . »

٥ فلم يَشْكُ المَعْتِدُ أن ذلك منه كائنٌ ؛ وَعَمِلَ حساباً آخرَ أن قال
في نفسه : « إن لم يَهَيِّأْ له أَخْذُها بعود صاحبها عن الخروج إليه ، فَلَيْسَتْ
بِمَا تَوَخَّذُ من وقعةٍ واحدةٍ ! ستنجرُ الحالُ من أجْلِها ، وتشينُ عليها
للحلات ، كما صُنِعَ بِلَيْط ؛ وتدخل الشتوة ، فيحتاجُ إلى الانصراف ، وتبقى
هذه المَاقِل التي طاعت للأمير أ كُونُ زَعِيمَها . وفي خلال ما يتلوَّى أمرُ
١٠ غرناطة ، اختَبِجَ إلى ، وكان لي بذلك الصولةُ على الفريقين ، ولا نُخْلِ
من بَرَكَتِها ! »

وكان الحبيبُ إليه أن تَبْقَى على ما ذَكَرناه ، إذ لا يعلم ، عند حصوله
عليها ، ما تكون قرعتهُ معه ، كالذي كان . وسكت عَنِّي في الأمر ؛ ولم
يُمرْ الانكشاف بسرِّه إلى رئيسِ يَفْشِي عليه ، غَيْر رُموزات ، إذ ذاك
١٥ لا تنفع . ولو قال لي : « امْتَسِكْ ! » فَأَنَا أَخَوْتُ على حالي ، أو :
« اخرجْ ! » لم أُطِعْ ما تهمه ؛ ولا يمكن أن يعطيني تقويةً ، فيفتضح
عند المَرايِط . إنما كان صَنعُ الأمير أن يَطْلِعَ وَيَرَى ، عسى يَهَيِّأْ له في النصبِ
شئ ، أو يَسَلِّمَ من معرفتهِ ؛ قد تنسَبَ ، ولم يَجِدْ مَحِيصاً غير ما كان بسبيله .
وكذلك ابنُ الأَفْطَسِ معه على تلك الحال . وصاحبُ المَرِيَّةِ في المَرِيَّةِ
٢٠ لم يتحرك : كلُّ أَحَدٍ منهم إلى ما ينقض من أمرِ غرناطة ؛ قد أَبْهَتَهُم
أمرُها . وأَفْلَقَهُم .

ولمّا بصرتُ تَأْلِبَهُمْ عَلَىَّ مع الأمير، خَاطَبْتُ كُلَّ واحدٍ منهم بِكِتَابِ
أَقُولُ لَهُمْ : « هَذَا الْأَمْرُ مُنْجَرٌّ إِلَيْكُمْ ! وَالْيَوْمَ بِي وَغَدًا بِكُمْ ! » فلم
يَمَكِّنْهُمْ قِرَاءَةَ الْكُتُبِ دُونَهُ ، وعرضوها عليه . فَنَحَقَ عَلَىَّ ؛ وَكُتِبَتْ
الْأَجْوِبَةُ بِأَمْلَانِهِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَلْطَخُنَا بِأَفْعَالِكَ ، * وَنَحْنُ قَدْ
٥ بَرَأْنَا اللَّهَ مِنْهَا ! » وما أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْوَعِيدِ وَالتَّذْنِيبِ : فَعِلُّ مِنْ قَدْ
وَحِلَّ ، ولم يَقْدِرْ عَلَى أَكْثَرِ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، مع الطمع وَعَمَى الْبَصَائِرُ ،
كَما وَصَفْنَا قَبْلَ :

وَكَانَ رُسُلُهُمْ إِلَىَّ قَبْلَ ذَلِكَ يَحْضُونِى عَلَى الْإِمْتِسَاكِ وَالتَّجَلُّدِ . وَقَالَ
ابْنُ الْأَفْطُسِ : « أَنَا أَعْتَذِرُ عَنْهُ ! » وَلَمْ يَرَوْا كُتِبَ كِتَابٌ خَوْفًا مِنْ
١٠ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا عَلَيْهِمْ ، غَيْرَ إِهْدَاءٍ ذَلِكَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ
قَدْ أَسْلَمُونِى إِلَى طَاقَتِى ؛ فَإِنْ كَانَتْ لِى ، لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ دَاخِلَةً ؛ وَإِنْ
كَانَتْ عَلَىَّ ، لَمْ يُفْسِدُوا وَجُوهَهُمْ مَعَ الْمُرَاطِطِ ؛ وَحَسْبُهُ اجْتِهَادُهُمْ مَعَهُ
بِأَنْفُسِهِمْ وَرِجَالِهِمْ .

فَرَأَيْتُ حَالِى فِي هَذَا كُلِّهِ تَارِفَةً ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ ، طُولَ مَدَّةِ إِمْتِسَاكِ
١٥ لَوْ إِمْتَسَكْتُ ، لَكَانَ سُلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ أَجْمَعُ مُتَأَلِّبِينَ عَلَى فِتْنَتِى مَعَ رَعِيَّتِى ،
لِمَا يَلْزِمُهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْمُرَاطِطِ وَالطَّمَعِ ، عَسَى يَحْصُلُ لِأَحَدٍ مَزِيدٌ فِي بِلَادِهِ ،
وَلَا تَمَكَّنُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَعُونَتِى وَلَا الْاسْتِفْسَادَ مِنْ أَجْلِى . فَتَحَنُّ لَمْ يُعِنَ
بَعْضًا بَعْضًا عَلَى الرُّومِ ! فَكَيْفَ عَلَى الْمُسْلِمِ ، مَعَ حَرْبِ الْكَافِرِ وَقِيَامِ
أَهْلِ الْبَيْتِ ! هَذَا مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِمَنْ عَقْلٌ ! وَلَمْ نَظُنَّ نَحْنُ أَنَّ الْأَمْرَ يَنْفَتِقُ
٢٠ إِلَى هَذَا كُلِّهِ ، وَلَا تُعَاجِلْ هَذِهِ الْمُعَاجَلَةَ . وَلَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ
يَتَقَدَّمُنِى إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، إِذْ مَا سِوَى ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ لَا يَنْفَعُ .

وإنما طَمَعْنَا بما قَصَصْنَاهُ قَبْلُ ، وَحَسْبُكَ !
وإنه، لَمَّا آلتِ الحالُ إلى ما لم يُجَرَّ على قياس، خَرَجْنَا إليه، ولم تَلْتَوِ ساعة .

٧٨ — حركات المرابطين على المَرِيَّة

- ٥ ولم يُقَدِّم أميرُ المسلمين شيئاً ، وَقَتَ خروجي إليه ، على إرسال جيشٍ إلى صاحب المَرِيَّة ، قَبْلَ ابنِ عَبَّاد ، إِذْ كَانَ بِتَخَلُّفِهِ مَوْسُومًا بِالْفِئَاقِ ، وَلِأَنَّهُ مُعَاقِدِي عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ تَحَلُّفَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ اتِّفَاقٍ .
- فلم يُحَرِّكْ مِنْهَا وَضِعًا إِلَّا وَأَجَابَ . وَتَنَاقَرَتِ مَعَاقِلُهُ أَجْمَعُ ، حَتَّى بَلَغَ الْعُسْكَرُ إِلَى بَابِ الْمَرِيَّةِ . وَكَانَ الرَّجُلُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — سَاعَةَ وَرُودِ الْخَبَرِ عَلَيْهِ بِمُخْرُوجِنَا ، انْطَبَقَ لَهُ ، وَاعْتَلَّ لَمَّا رَأَى مِنْ هَوْلِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ . وَقَضَى عَلَيْهِ وَصُولُ الْعُسْكَرِ إِلَى الْبَابِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ؛ فَأَقْرَعَ لَهَا وَمَاتَ .
- ١٠ * وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ ، النَّاهِضُ إِلَى قَلْعَةِ حَمَّادٍ عَلَى مَا نَصِفُهُ بَعْدَ هَذَا . ٦٧ (ب) وَقَدْ كَانَ ، لَمَّا رَأَى مِنْ طَلَبِ [الْمُرَابِطِ لِبِلَادِهِ] ، قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِ ابْنَهُ الْآخِرَ ، يَعْظُمُهُ وَيُعَلِّمُهُ بِوَجْهِ الْحَقِّ فِيهِ ، إِذْ كَانَ يَنْتَحِيلُ قِيقَهَا ؛ وَذَلِكَ مِمَّا ذَكَرْنَا مِنْ قَلَّةِ الْمَيِّزِ بِالْأَحْوَالِ ، إِذْ يَرَى هَذِهِ الْأُمُورَ مُشْتَعَلَةً ، وَيَطْمَعُ
- ١٥ إِطْفَاءُهَا بِالْوَعظِ ! فَسَاعَةَ وَصُولِهِ ، أَمَرَ الْأَمِيرُ بِثِقَافِهِ عَلَى الْمَقَامِ فِي الْحَدِيدِ . وَتَحْمِيلِ أَبَوَيْهِ فِي انْطِلَاقِهِ ، حَتَّى انْصَرَفَ إِلَيْهِ فَارًّا مِنَ الْمُرَابِطِ : اخْتَلَسَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ رَجُلٌ لَهُ شَبَّابُكَ ، قَذَفَ بِهِ فِي الْبَحْرِ حَتَّى سَلِمَ إِلَى وَالِدِهِ .
- وَفَتَرَ الطَّلَبُ عَلَى الْمَرِيَّةِ لِلشَّغْلِ بِمَا حَدَثَ بِأَمْرِ ابْنِ عَبَّاد ، وَأَنَّهُ أَوْكَدَ الْأَشْيَاءَ . وَإِنَّ ابْنَ صَمَادِيحَ ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، وَصَّى ابْنَهُ هَذَا الْمُسْتَخْلَفَ ،
- ٢٠ وَقَالَ لَهُ : « أَمْتَسِكْ فِي هَذِهِ الْقِصْبَةِ طَوْلَ مَقَامِ ابْنِ عَبَّادِ فِي مُلْكِهِ

إِشْبِيلِيَّةَ مَا اسْتَطَعَتْ ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ ، فَلَا تَتَرَبَّصْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَأَنْجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَدْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قَدَرْتَهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِكَ ، إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ ! »

٥ خَفِظَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ؛ وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِشْبِيلِيَّةَ مَا انْقَضَى ، تَخَيَّرَ قِطْعَةً أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِهِ ، وَكَتَمَ أَمْرَهُ ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ نَاهِضٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِهَدِيَّةٍ لِيَهْدِنَا بِذَلِكَ أَهْلَ الْمَرِيَّةِ ؛ فَسَرُّوا بِفِعْلِهِ ، وَقَالُوا : « هَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، قَبْلَ أَنْ يَجْلَّ بِكَ مَا حَلَّ بِغَيْرِكَ ! » حَتَّى تَوَسَّطَ الْبَحْرَ ، وَأَعْطَى النَّوَاتِيَّةَ مَا لَا جَسِيماً ، وَأَخْبَرَهُمْ غَرَضَهُ . وَخَرَجَ بِالْجَزَائِرِ ، وَأَكْرَمَهُ صَاحِبُ الْقَلْعَةِ ، وَأَمَّنَهُ فِي ذَخَائِرِهِ ، وَأَكْرَمَ ضِيَاقَتَهُ ، وَخَيْرَهُ حَيْثُ يَحِبُّ الشُّكْنَى ؛

١٠ فَاخْتَارَ تَدَلَّسَ ، لِأَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ ، وَلِيَغِيبَ عَنِ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، خَوْفًا مِنَ الطَّلَبِ . وَانْخَمَلَ فِي ذَاتِهِ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ بِالْأَرْجَحِ فِي أَكْثَرِ أَخْوَالِهِ .

٧٩ - تَوَثَّرُ الْمَلَاقَاتُ بَيْنَ الْأَمِيرِ الْمُرَابِطِيِّ وَالْمُعْتَمِدِ

وإِنَّ الْمُعْتَمِدَ بْنَ عَبَّادٍ ، لَمَّا بَصَرَ بِدُخُولِ الْأَمِيرِ غَرْنَاطَةَ ، وَأَسْتَنْجَزَ وَعْدَهُ ، فَلَمْ يُبَلِّغْتَهُ ، وَرَأَى تَقَافَهَا بِالْمُرَابِطِينَ وَإِخْرَاجَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ وَكُلِّ مَنْ طَمَعَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ ، جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَخَافَ أَنْ يَثْنَى بِهِ ، إِذْ رَأَى

١٥ الْأَمِيرُ مَذْهَبَهُ فِي الْبِلَادِ وَاسْتَصْرَاخَهُ . * وَلَمْ يُمْكِنَ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ : ٦٨ (ب) فَيَقْبَحُ ذِكْرَهُ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُرَابِطُونَ بِتَقَافِهِ ؛ فَأَبَى حَتَّى يُلَوِّحَ قَبْلَهُ ذَنْبٌ يَوْخُذُ بِهِ . مُنْذُ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ نَهَضَ وَاتَّبَعَهُ قَرُورٌ يَقُولُ لَهُ : « الْأَمِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَذْكَارِكَ بَعْضَ الْأَمْرِ ! » فَأَبَى ، وَمَضَى لَوَجْهَتَهُ ، فَأَرَا بِنَفْسِهِ ؛ وَأَطْوَى

٢٠ الْمَرَاحِلَ ، حَتَّى وَصَلَ قُرْطُبَةَ . وَقَالَ فِي طَرِيقَةِ إِلَى ابْنِ الْأَفْطَاسِ : « أَنْجُ

بَنَفْسِكَ ! قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِصَاحِبِ غَرْناطة ، وَغَدَا بِنَا ! »
 ثُمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لِلْأَمِيرِ نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،
 وَيَقُولُ لَهُ : « نُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : لِيَقُولَ : « لَا ! »
 فَيَجِدَ السَّبِيلَ ، كَمَا فَعَلَ . فَرَاجَعَهُ ابْنُ عَبَّادَ : « إِنْ ذَلِكَ كَانَ وَقْتُ
 كُنْتُ ضَيْفًا ، وَتُرِيدُ الْغَزْوَ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتُكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ
 إِنَّمَا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلُ بَادِيَسٍ وَحَفِيدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِجُنُودِكَ !
 فَلَا يُمْكِنُنِي التَّغْرِيرُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْكَ تُرِيدُ أَخْذَ بَلَدِي ، إِذْ لَا تَصُحُّ لَكَ
 غَرْناطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ ! » فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَمِيرُ السَّلْمِينَ أَنْ
 يَلْتَزِمَ الرِّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقَبَالَاتَ ؛ وَتَحَامِلًا كَثِيرًا عَلمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ ؛ وَفِي تَرْكِهِ
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعُهُ . فَامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادَ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وَبَدَأَ [الْمُرَابِطُ] بِدُخَاخَةِ مَعَاقِلِهِ ؛ فَانْتَشَرَتْ ، كَمَا جَرَى لغيرِهَا ؛ وَقَامَتْ
 عَلَيْهِ الرِّعَايَا بِكُلِّ قَطْرِ . فَأَرْسَلَ إِذْ ذَاكَ إِلَى الرُّومِيِّ ، يَسْتَعِيثُ بِهِ ؛ فَقَعَدَ عَنْهُ ،
 خَيْفَةً مِنَ التَّغْرِيرِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ السَّلْمِينَ عَلَى ابْنِ عَبَّادَ ، أَنْ قَالَ لَهُ :
 « ظَنَرْتُ بِكِتَابِكَ إِلَى الرُّومِيِّ وَإِسَالِكَ عَنْهُ ! » فَقَالَ الْمُعْتَمِدُ : « لَوْ قَعَلْتُهُ
 قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ بِلَادِي بَطْرًا وَأَشْرًا ، كُنْتُ أَلَامٌ ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ
 ١٥ طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَرْتُ الضَّرُورَةَ إِلَى ذَلِكَ لِلْمُدَافَعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُتِيَ .

٨٠ — الاسْتِيلَاءُ عَلَى قَرْطُبَةَ وَإِشْبِيلَةَ وَتَقَى ابْنُ عَبَّادَ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقُعُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ الْفُقَهَاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَلِهَذَا مَا أُخْرِيَ^(١) بِهِ لِيُؤَلِّكَ

(١) أَمَل : « وَخَر » .

من هلك عن يَنَنَةٍ ولتكون له الحُجَّة على من يُريدُ إخراجَه . فأمرَ الأميرُ
سير* بالخروج إليه . ونَهَضَ ، ونَحْنُ بِمَكْنَسَةٍ . ونازلهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب)
ومَحَاقِلُهُ قد ذهبَ أَكْثَرُهَا بالطاعة .

٥ وافتتح الأميرُ بخلال هذا مدينةَ قُرْطُبَةٍ ، واستشهدَ فيها ابنُه للأُمونِ
ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بَكْرٍ — رحمهم الله — بِمُدَاخَلَةٍ من أَهْلِ
البلَدِ ، مع انخراقِ المدينة ، وأَنَّهُ لم يَمَكُنْ ضَبْطُهَا إِلَّا بِأَهْلِهَا . وكانَ الْمُعْتَمِدُ
حَذِرًا على قُرْطُبَةٍ ، يَرجو بقاءَ حاله بُثْبوتها ، ويوصي ابنَه بالصبرِ ، ويقولُ
له : « لا تَجْزَع ! فَمَلُوتُ أَهْوَنُ من الدَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطَانُ إِلَّا من
القَصْرِ إلى القَبْرِ ! »

١٠ فَلَمَّا أُخِذَت قُرْطُبَةُ ، انقطعَ الرجاءُ . وضاقَتِ إِشْبِيلِيَّةٌ ؛ ونفذَ ما كانَ
بيده من أَجْلِ النِّفقاتِ ، إلى أَن دَخَلَهَا الأميرُ سِيرَ عُنُوتَ بِمُدَاخَلَةٍ من بَعْضِ
أَهْلِهَا . وهلكَ فيها عَالَمٌ ، وانكشفَ الحُرَمُ ، إِذْ للجَيْشِ مَعْرَةٌ لا تُمَلِّكُ
بَعْدَ صَبْرِهِمْ على مَلِكِهِمْ . وظهرَ لِسِيرٍ من اجتهادهم في القتالِ ما أَعْجَبَهُ
ذلكَ ، وقالَ : « لو أَنِّي أَقْصَدُ^(١) مدينةَ الشُّرْكِ ، لم تَمْتَنِعْ هذا
١٥ الِامْتِناعُ ! »

وكانَ دُخُولُهَا من ناحيةِ الوادِي ، وهو أَمنهْلُ الأَمَاكِنِ . ولولا صَبْرُ
أَهْلِهَا وَكَثْرَةُ أَقَارِبِ ابنِ عِبَادٍ ، لم يَسْتَطِيعَ [الْمُعْتَمِدُ] على شَيْءٍ ؛
فكَانَتْهُ غُلِبَ بالثَّقَاتِ الَّذِينَ كَانَتِ الأبْوابُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَوَكَلَهُمْ بَنُ سِوَاهِمُ ،
إِلَى أَن لم يَكُنْ مع القضاءِ مَدْفَعٌ . وكانَ دُخُولُهَا يومَ الأَحَدِ في [٢٢]
٢٠ رَجَبِ [سنة ٤٨٤] ، في النَّارِيخِ الَّذِي دُخِلَتْ فِيهِ غَرَنَاطَةٌ بَعْدَهَا بِعَامٍ كَامِلٍ .

(١) أصل : « نَقْصِدُ » .

وَدُخِلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُونَةٌ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثُمَّ التَوَى أَمْرُ
رُنْدَةٍ ؛ ونَازَلَهَا قَرُورٌ ، إلى أن ظفر بالراضى ، وخَدَعَهُ ، وحصل على
أمواله ؛ ثُمَّ قَتَلَهُ ، خَوْفًا من أن تفتضح تلك الأموال ؛ وقيلَ إنَّ ذلك
لم يكن عن رأى السلطان . وأَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ من ظفر به فى رُنْدَةٍ
المذكورة من الأحرار والجند المقاتلين . وقُتِلَ فيها رَجُلٌ من العرب يُعرف
بأبى الصَّنْصَامِ ، جرأةً على الله ، لِيَأْخُذَ بِنَتِّهِ ؛ ونكحها من بعده ،
وحصل على ماله . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ ^(١) . وامتنسك بالصعيد ، وصيرهم
إلى السلطان .

ولما ظفر بابن عباد ، قَيَّأَ الأميرُ سِرُّ خَدَمَتِهِ وَعَبِيدِهِ ، حاشى أُمَمَاتِ
الأولاد . وأَمَرَهُ أميرُ المسلمين بإرساله إليه . فقدم إلينا بِمَكْنَسَةٍ مع دَخَلَتِهِ ؛
* وَبَقِيَ فِيهَا إِلَى أَنْ سَبَقَ مَعَنَا إِلَى آغَمَاتِ .

٦٩ (١)

٨١ — ققول يوسف بن تاشفين إلى مراکش

وإنَّ أميرَ المسلمين ، لَمَّا فَتَحَ اللهُ لَهُ فى هذا كُلِّهِ ، أَخَذَ فى الانصراف
إلى مَرُوكُش ؛ وقد بلغ من آماله غايَتَهَا ، وَامْتَلَأَتْ يَدَاهُ بِالْأَمْوَالِ ؛ وقسم
على أجناده بعض من الفَيْءِ ، وَأَهْدَى إِلَى الصَّخْرَاوِيَّ عَمَّةً من تلك الدخائر .
وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْتَوْطِنَ آغَمَاتِ ؛ فَأَتَيْنَاهَا ، ولقينا من أمير المسلمين كُلِّ
جميل ، وَأَنْزَلَنَا بِدَارِهِ الصَّخْرَاوِيَّ فى الحريم ، ولم يَزَلْ يَعْتَقِدُنَا من إناعامه ،
كَيْفَ مَا هَيَّأَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَجَدْنَاهُ بِعَدِ اللهِ أَرْفَقَ بَنَا ، وَأَحْسَنَ
مَذْهَبٍ فِينَا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، ومن كُلِّ من سبق إليه مِنَّا إِحْسَانٌ .

٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطلينوس ومهلكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَدَّمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعُ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طَبْعاً مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيِّينِهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدَلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَيَقَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الرُّبَاطِيِّينَ ، وَدَاخَلَ الرُّومِيَّ ؛ فَحَقَّتْ عَلَيْهِ الْمَطَالَبَةُ ؛ وَسُعِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّعْيِ سِرًّا ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، مِثْلُ السَّمَكَةِ الْعَاجِزَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِمْنَةِ » : لَمْ تَزَلْ فِي تَقَلُّبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصَّيَّادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّطَ : يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ ، وَيُخَاطِبُ الْفُؤُنْشَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلِمَّةٍ ، إِنْ دَهَتَهُ مِنَ الرُّبَاطِيِّينَ . وَكَانَ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحَذَرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسَعِيَهِ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سَاجِدٌ لِمَا سِجِلْمَاسِيٌّ قَفِيهِ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوَطَلَ بَطْلِينُوسَ ، وَاکْتَسَبَ فِيهَا مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّرْوَةِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْمِ صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ عَلَيْهِ ، [عَمَلٌ] بِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ بَقْلُهُ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا تَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنْ الْمُدَارَاةُ فِيهِ نَمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِمَالُ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوَرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ

* الحاجة إليه ، إلا أن تَذَرَى عند ذمِّ العاقبة معه أنك مُسْتَعْنٍ عنه بغيره ؛ ٦٩ (ب) وإلا ، فأنت له طُعمَةٌ .

فقال له ابنُه المنصورُ : « هذا الترددُ لا يجزئُك ، ولا يغني عنك ما تُرى من إظهارِ الطاعة للمُرابِط ! ولا طاعةَ أهلِ بَلَدِكَ لَكَ وَحُبَّهِمْ التي كانوا يمرضون عليك ! فلو أنهم يَرَوْنَ بعضَ حقيقةٍ في عزيمةٍ ، كما أبقوا عليك ؛ كالذي رأيتَ صنيعَ بغيرِكَ ! فإِذَا أن تُضَيِّقَ للمُرابِطِ ، فلنَ تَبْلُغَ مرضاته إلا بالامْخِلَاع له وَوَضْعَ البَلَدِ في يديه ؛ وَنَقْنَعُ بأن تكونَ مُتَحَرِّيًا ، مُتَخَلِّيًا عن الرياسة ؛ فمَاجِلُ ذلك ، تَجِدُ عنده الأمانَ ! وإن فَرَرْتَ نَفْسُكَ عنه ، فلا تَتَأَخَّرْ عن الفِرَارِ منه بِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ وَجَمِيعِ أَمْوَالِكَ ! يجعلُك الرُّومِيُّ في أيِّ بَلَدٍ شئتَ ؛ وَرُبَّمَا سَوَّغَهَا لَكَ ، كما قَعَلَ بَابِن ذِي النُّونِ في بَلَنَسِيَّةٍ ؛ وَتَتْرُكُ مَدِينَةَ بَطْلِيُوسَ ، لا تدخلُ على المسلمينِ داخِلَةً ؛ فيحصلُ لك النجاةُ بِمُهْجَتِكَ ، وسلامةُ البَلَدِ للمسلمينِ ! » فقال له أبوه ، وَسَقَه رَأْيَهُ : « لا أَتْرُكُ مَوْضِعِي ! وَعَسَى أن تُهَيِّئَ الأقدارُ ضِدَّ ما تَظُنُّ ! » فخرجَ عنها ابنُه ، وَتَجَا بِعَالِهِ وَأَهْلِهِ ، وأخذَ لنفسه بالرأى الذي أشارَ به على أبيه . وَبَقِيَ الشَّيْخُ لِحَيَّتِهِ ، حتى نفذَ أمرُ الله فيه .

وإنَّ الأميرَ سِيرَ ، لَمَّا أَرَادَ من التَّخَذُّمِ لأَمْرِ بَطْلِيُوسَ والخيلَةِ فيها ، لم يَثِقْ بِنَفْسِهِ في ذلك ، لحدوثِ ولايتِهِ الأندَلُسَ ، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعَالَى إِلَّا بِدَوَائِهِ ، ولا يُلْقَى أَحَدٌ إِلَّا بِحَجَرِهِ ؛ فَتَخَيَّرَ لِنَاكَ ابْنَ رَشِيقَ ، لِأَنَّهُ أَنْذَلَسِيٌّ ، عَالِمٌ بِالْمَكَايِدِ في الفتنِ ، مع ما كانَ له عليه من الأيادي قَبْلُ في لُيُوطَ ، وَأَنَّ ثقافتهَ ذلكَ الوقتَ لم يكنْ إِلَّا على رَغْمٍ مِنْهُ بِمُضَادَّةِ قَرُورِ

له . فانهز الفرصة فى إطلاقه ، والمكافأة له على صنيعة بما يأمره من أمر بطليوس .

وخطب السلطان فى أمره ، بعد أن أطنب فى صفة حاجته إليه . فقبل قوله ، وأمر بإرساله ، وألطف له القول ، واعتذر إليه بما جرى ، وأمر له بمال جسيم . ونهض ، بعد أن حد له الوقوف عند أوامر سير ، وأنه مستحييه ؛ فضى . وفى الناس من انطلافة* ما تعجبوا منه وخلطوا القول (١) ٧٠ فى ذلك ، كل أحد على مقدار عقله أو شهوته .

فلما وصل ، تخدم أمر بطليوس بكل وجه من المداخلة لأهل البلد ومن معه فى القصة من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ، ويفتحون له [الباب] . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالشور عند الإمارة التى كانت مع من داخله . وتقبض على الشيخ وابنتيه الفضل والعباس ، واحتوى له على أموال جسيمة . وأمر سير بإخراجه للقتل ، بعد أن رأى فى نفسه هواناً عظيماً ، وشده على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التى أعطاهم ؛ فأمر بقتله مع ابنتيه الفضل والعباس — رحمهم الله — . ١٥

وطاع جميع ذلك الثغر للرايطين ، كأنه لم يكن قط لغيرهم . وفى أهله وبناته ، وجميع ما تركه . ثم صار ابنه المنصور فى جملة الروم ، حنقاً لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين .

٨٣ — نشاط الثرابطين ضدّ النصارى .

استيلاء « السيد » لدرّيق على بلنسية

وصرف الرّباطون وجوهمهم إلى رقتة الرّوم ومقاصاتها ، بعد إكمالهم
لأخذ سلاطين الأندلس ؛ يقولون : « إنّه لا ينبغي لنا قتالُ الروم ، وتترك
وراءنا^(١) الأعداء ، يمينُ يوسى علينا منهم ! » فكلّها تهياتٌ بلا مشقةٍ
غير إشديليةٍ ؛ فوقع فيها بعض التّعذر ، كما قدّمنا ذكره . فسبحان المقدر
الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن ! » فيكون . هذا نصٌّ ما كان
ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشعراء :

وَأَعْلَمَ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ
ثم نشأ بعد ذلك من أمرِ بلنسية ما لم يذبلج بها ما يوصف ؛ فإنّ
الحديث لا يحسن ذكره إلّا بعد تفقّص آخره ؛ والقوسُ لا تُكبد إلّا
بقبض طرفيها ؛ فإذا استكمل الخبر ، طاب إرادته وحسن موقعه ، ونمّق
بعضه ببعض . ولو أننا ندعُ هذا التّأليف إلى مدّة يتم فيها خبر بلنسية ،
لأتينا به بعد أن يكون الظاهرُ للسامعين ، وترك* هذا الديوان مخروماً ، ٧٠ (ب)
انتظاراً لما يكون فيه أملٌ بعيدٌ . ١٥

واستئنافُ تاريخ له فصولٌ لا يُعنى ، لا سيما أننا أخذنا أنفسنا في
حيزٍ تامٍّ بما يليق بالزمان ، ورخصناها بما تستمرُّ عليه من ترك الشره
والتّره عما فات ، وإعمال قطع اليأس عما قيل ؛ واليأس عما فات يُمقّب
راحة ؛ ولربّ مطعّمة تعود درّاخاً .

(١) أصل : « وتتركوا وراءنا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاصُ النية
 لأمر المسلمين — أيدهُ الله ! — وتمنى الخير له ، لأنَّ صلاحَ المسلمين
 بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لما أمر به من طاعة الأئمة والنصح
 لكلِّ مسلم ، لا سيما أنه مُحسِنٌ إلينا . ثمَّ اقتصرنا على النظر فيما يخصُّنا
 وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلا على هذه الحالة ، واعتبرنا بمن كان
 قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوننا .

٨٤ — تأملات في تقلب الأقدار

- وما حلَّ بابن الأفتس ، فشكرنا الله على ما نجانا منه ، وصرَّفنا وجهه
 اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وغلَّبنا النفسَ الناطقةَ على الحيوانية ؛ فإنها
 تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أنَّ الحيوانية
 تحمل على الطلبة ، وإثارة الشهوات ، والحيدة عن سبيل المعرفة .
 ورأينا أنَّ شغل البال بما مضى لا يردُّ شيئاً غير الهمِّ والكرب اللذين
 يُنحلان الجسمَ ويذهبان اللَّبَّ ، وأنَّ الخرجَ على ما لا يكون نصبٌ للبَدَنِ
 ومسقةٌ للإنسان ؛ لأنَّ قولُ الفلاسفة : لا يُلتدُّ بما مضى ، ولا يُدرى
 ما يكون فيما بقي ؛ وإنما له لذةُ ساعته التي هو فيها ، أو عمله الذي يجده
 لِمَعادِهِ . فإنَّ أعقبَ الله بخير ، فلنَّ نخسر ما سلفَ من أيامنا ، فنهرم
 قبلَ أوان الهرم ؛ وإن كان الذى يأتى أشدَّ من هذا ، فيحقُّ اغتنامُ
 ما نحن فيه ، ونمُدُّها أعياداً ، ونُحدثُ لله عملاً يرضاه ؛ وإن كُنَّا أبداً
 على هذه الرقبة بلا انتقال (وغير متمكِّن من ذلك) ؛ فتوطينُ النفس
 على ما يَمَلُّ أنها عليه دائماً ، أخرى وأروحُ للبال .

- ثم إنني اعتبرتُ جميع ما في الدنيا ، التي إليها يَسْعَى الناسُ ؛ فوجدتُ
 نفسي مُبْلِغَةً منها كلَّ أَمَلٍ ؛ * وإن انْقَطَعَتْ ، فلم نصحبها ، ونحنُ منها (١) ٧١
 على يقينٍ بتَخْلِيدِها . بل ، لكلِّ شيءٍ مُدَّةٌ ، ولا بُدَّ من تَرْكِها .
 والخروجُ منها في مُدَّةِ المُرَّ خَيْرٌ من مَيِّتَةٍ على فِتْنَةٍ أو غَرْقٍ ، عَسَى
 بذلك أن يُعْظِمَ اللهُ الأَجَرَ ، وَيُكْفِّرَ السَّيِّئَاتِ . ويكون ذلك للإنسان زاجراً
 عن الآثام ، ويعتبرُ قَدْ مَالِهِ كَأَنَّهُ لم يَكْتَسِبْهُ بِرَزِيْقَةٍ نفسه إذ حان حَيْثُ ،
 فَيَقْدَمُ لها النظرُ ، بتوفيقِ الله تعالى ، قبل الموت وحلولِ القوت . والله
 المُسْتَعَان ! لا شريك له !
- سُئِلَ النَّبِيُّ — عليه السلام — عن عَلَامَةِ انْشِرَاحِ الْقَلْبِ للإسلام ؛
 ١٠ فقال : « هو التَّجَافِي من دارِ الغرور ، والإِنَابَةُ إلى دارِ الخلود ، والاستِعْدَادُ
 بالموت قبل لقاءِ القوت . »

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النفي

٨٥ - المؤلف والشعر

- وَإِذْ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى وَصْفِ بَعْضِ الْحَادِثَاتِ بِالْأَنْدُسِ ، وَرَتَبَةِ دَوْلَتِنَا ،
وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ فِيهَا أَحْكَامُنَا ، حَسْبَا سَاعَدَتُنَا عَلَيْهِ أَذْهَانُنَا ، وَنَالَتُهُ
مَقْدُرَتُنَا ، إِلَى انْصِرَامِ الْأَمَدِ ، فَلَنَرْجِعَ الْآنَ إِلَى ذِكْرِ بَعْضِ مَا يَتَعَلَّقُ
بِذَلِكَ مِنْ شِعْرِ نَظْمِنَاهُ وَقَتَ فَرَاغِ الْبَالِ وَجَامِ النَّفْسِ ، مَعَ مَا أُعَانِ عَلَى
ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَى كُلِّ مُسْتَحْسَنِ ، وَالشُّرُورِ بِطَيْبِ كُلِّ خَبِيرٍ .
- عَلَى أَنَّي لَمْ أُنْتَحِلْهُ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ مِنْ شَأْنِي الْأَخْذُ بِهِ ، إِلَّا عَلَى
سَبِيلِ الْإِسْطِرَافِ وَالْإِطْنَابِ فِي وَصْفِ شَيْءٍ أُرِيدُ نَعْتَهُ . فَرَبَّمَا صَنَعْتُ
فِي الْبَيْتِ أَوِ الْبَيْتَيْنِ أَيَّامًا ، أُحْضِرُ لَهَا ذِهْنِي ، وَأُحْدِثُ فِكْرِي ؛ فَتَصْدَعُ
بَعْدَ كَلِّ ، وَمَا أَكَادُ ، كَالشَّيْءِ الْمُسْتَقَرَّبِ مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ . فَيُنْشِدُهَا
الْكُتَبَةُ فِي مَجَالِسِ الْإِحْتِفَالِ لِلرَّاحَاتِ ، نَقْطَعُ بِذَلِكَ الزَّمَانَ عِنْدَ الْفَرَاغِ
مِنَ الشُّغْلِ ، كَالَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهُمْ فِي سَاعَاتِ الدَّعَةِ ؛ وَنُضِيفُ
مَعَهَا لَمَعًا مِنْ آدَابٍ وَسِيَرٍ تُحْضِرُنِي ، مِمَّا يَخْتَلِجُ فِي الْخَاطِرِ وَيُجَرِّبُهَا الْإِنْسَانُ
بِصُحْبَةِ الزَّمَانِ وَتَنْقُلُهُ فِي الْحَالَاتِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ : « مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا
الْعِلْمُ ؟ » قَال : « قَلْبًا عَقُولًا ، وَلِسَانًا سَوًّا وَلَا ! »

٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وَكُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَنْطَبِعُ فِي النِّشْأَةِ وَحِينَ الْمَوْلِدِ . وَلَقَدْ طَالَمْتُ مِنْ مَوْلَدِي
أَشْيَاءَ مَيَّزَتْهَا مِنْ طِبَائِي وَأَخْلَاقِي ، عَلَى أَنَّ وَاضِعِيهِ الْقُوَّةُ وَنَحْنُ فِي حَالِ
الطُفُولِيَّةِ ، * لَمْ يُوصَلْ إِذْ ذَاكَ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِي . وَكَتَمَهُ ٧١ (ب)
عَنِّي سِمَاجَةُ مُدَّةً ، حَتَّى وَقَعَ السَّفَرُ إِلَى يَدِي عَلَى غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ
عَلَيْهِ ، خَوْفًا عَلَى مِنَ الْعُجْبِ بِمَا كَانَ فِيهِ مَنْصُوصًا مِنَ السَّعَادَةِ . فَطَالَمْتُ
مِنْهُ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، إِذْ كَانَ الْمَوْلِدُ رَصْدِي ؛ وَكَانَ الطَّالِعُ الْحَوْتَ
بِأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وَصَاحِبُهُ الْمُشْتَرَى فِي الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الزُّهَرَةِ ؛ وَسَقَطَتْ
الْشَّمْسُ فِي الدَّائِرَةِ مَعَ عُطَارِدِ ؛ وَاتَّفَقَتِ النَّحْسَانِ فِي الثَّوَرِ بَيْتَ الْأُخُوَّةِ
وَالْقَرَابَةِ ؛ وَصَارَ الْقَمَرُ هَيَلَاجًا إِذْ كَانَ فِي السَّابِعِ مِنَ الْبُرُوجِ ، فَصَلَحَ ١٠
لِلْمَلِكِ لِأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ النَّوْبَةِ ؛ وَالزُّهَرَةُ كَدَّخْدَاهُ ، دُلَّتْ بِمَكَانِهَا
— وَاللَّهُ أَعْلَمُ — عَلَى قَوْلِهِمْ ، عَلَى سِنِّيهِ الْوُسْطَى خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً
يَزِيدُهَا الْمُشْتَرَى سِنِّيهِ الصُّغْرَى اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ فَجَمِيعُ ذَلِكَ سَبْعَةٌ
وَخَمْسُونَ عَامًا . وَاللَّهُ بَغِيهِ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ (الطَّالِعُ) عَلَى أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقْسِيمِ
السَّعَادَةِ لِلْمَوْلِدِ ؛ فَكَانَ رَبُّ الْمُثَلَّثَةِ الْأُولَى زُحْلًا ، وَمَعَهُ الْمَرِيضُ فِي
بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الثُّلُثَ الْأَوَّلَ فِيهِ بَعْضُ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْغِيصِ
وَالْتَكْدِيرِ ؛ وَمِثْلُهُ الثُّلُثُ الثَّانِي الَّذِي لِعُطَارِدِ ، إِذْ كَانَ فِي بَيْتِ الشَّقَاءِ
وَالْهُمُومِ ، مُحْشُورًا بَيْنَ التَّحْسِينِ ؛ فَدَلَّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَأَشَدَّ ،
٢٠ كَالَّذِي تَبَيَّنَ الْآنَ ؛ وَالْقِسْمَةُ الثَّالِثَةُ لِلْمُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي بَيْتِ الرَّجَاءِ

وَالسَّعَادَةُ ؛ فَذَلِكَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَطْنَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ وَصَفَ خَبَرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السَّوْدَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءٍ مُخَوِّفَةٍ .

وَذَكَرَ خَبَرَ الْبَنِينَ ؛ فَقَالَ : بَحِثْ شَهِيدَ شَاهِدٍ ، يَكُونُ الْوَلَدُ ؛ وَشَهِيدَ آخَرَ بَأَنَّ لَا وَلَدَ . وَذَكَرَ عَلَى الْقِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتَاهُ دَلِيلًا عَلَى قَتْلِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأَتِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَبَرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ فِي نَصْبِ الْمَوْلِدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَالتَّبَحُّثِ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُتَقَدِّ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ ؛ فَتَعَفَّفَ . وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عَطَارِدُ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَذَلَّ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّغَارِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْعَطَارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبِيحُهُ الشَّرِيعَةُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُسَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلِمْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطْلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صِحَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْأَيَّامِ وَمُجَرِّى
الْأَفْلَاقِ !

(الْفَلَكَ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كُلُّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُون » ^(١) . وَسَمَّاها سَمَاءً ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَقَعَ سَمَاءً ؛
فهي ، لارتِفاعِها علينا ، سماء ؛ وَهَيَّئَمتُها : فَلَكٌ ، لا سَمَاءُ .)

٨٧ — أراء المؤلف في التنجيم

ولا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ
دَلَالٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْقَيْثِ الْمُنْزَلِ دَكِيلٌ
على نبات الزرع به ، أو كالنار المشتعلة بمكان عِلْمٍ أَنَّهَا مُحْرِقَةٌ . وَيَحْتَجُّونَ
١٠ بحديث الزسول — عليه السلام — في قوله : أَقْبَلْتُ بِجَرِيَّةٍ ، فَتَشَاءَمْتُ ،
فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةٌ . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَكِيلٌ عَلَى بُرْئِهِ ، يَرْجَى لَهُ
ذَلِكَ إِنْ أَخَّرَتْهُ الْمُدَّةُ . وَجِئْتُ بِطَبِيبٍ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ،
فَلَمَّا شَكَا الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِحَوْلِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا
أَعْلَمَهُ التَّرْجُمَانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْعَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ :
١٥ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يَسْقُنِي إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى
بَصِحَّتَكَ ! »

وقد أَغْلَى ^(٢) أَهْلُ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « اغلوا » .

إن فيهم من لا يؤلّي مملكتهم إلّا من شاكل طالع الدولة ؛
 وهم يزعمون أنّ طالع الملك ، إن لم يكن وتدّا من أوتاد المملكة ،
 أو كان منها ثاني عشر أو سادساً ، وأمكنت الكواكب غير متفقة* ٧٢ (١)
 لذلك ، فإنّه ينحسها ، ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها : إمّا تهلكه ،
 أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدار إليها . فكانوا يتخيرون الطوالع قبل
 اختيار العقول والمذاهب ، يرون أنّ القدر أغلب من الرأي ، ويقولون :
 « لك سعادة الدولة ومساعدة الأقدار هيأت لنا هذه الآراء لطول
 المدد . »

ثمّ إنهم يزعمون أنّ العمر الطبيعيّ مائة وعشرون عاماً ، وأنّ القواطع
 التي تكون قبله إنّما هي من أحداث داخلية على الإنسان ، عرضيّة ،
 إمّا من فساد المزاج ؛ فتخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التي في
 الإنسان قوامه كأركان البيت ، فتى فسدت منها طبيعة ، اعتلّ
 الجسم ؛ وإن تغيّرت كلّها ، مات . وجعلوها مشاكلة للأزمينة : فالدم
 ربيعيّ ، والبلغم شتويّ ، والصفراء صيفيّة ، والسوداء خريفية ؛ فنّ
 عالج كلّ زمانٍ منها بضدّه من الأغذية والأدوية ، فقد أصاب . ولا
 باقى مع الله !

و[لما] احتجّ عليهم بالذى يموت فجأة ، أو في زحّة ، أو بأرقّ
 سبب ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطبّ من علم النجوم ،
 وافترق رأيهم أن لا فلسفة تتمّ حتّى يجمعها ، وأنّ لا قوام لأحد العليّن
 دون الآخر ؛ قالوا : إنّما ذلك من الهياليج الساقطة ؛ فإنّ المولود ، إذا
 كانت هياليجه ساهرة ، صعب ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرج إلّا عن

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تدُلُّ عليها العَظِيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً كُلَّهَا ، عرض للموت بِأَرْقٍ سببٍ . فَإِنْ لم يكن له هَيَلاَجٌ ، سَيَّرَتْ المَطْلَعِيَّةُ وَعُدَّةً لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عندَ تَمَامِهَا ، وقد يكون في تَحَاوِيلِ السَّنِينَ ؛ وإن تَمَّ العَظِيَّةُ عندَ انْتِهَاءِ صَاحِبِ حَدِّ الدَّرَجَةِ إلى موضعِ نَحْسٍ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إن لم تُسَاعِدْهُ النجومُ السعيدةُ .
وَسَمَوُهُ الجَنَانُ بِخَتَانٍ ، وهو دليلُ الحياةِ بإِذْنِ اللَّهِ .

ومِنَهم من رأى ذلك قوَّةً لِنَفْسِهِ* ، وَرَضِيَ بما قَسَمَ له الباري* — عَزَّ ٧٢ (ب) وَجَلَّ — ؛ فلا يَنقَدُّ على نَفْسِهِ ، وَيَعِيشُ طَيِّبَ العِيشِ ، يَدْرِي أَنَّ لا قاطِعَ يَقْطَعُ بِهِ في تلكِ المَدَّةِ ، وَيُسَجِّعُ لَهولِ عَليٍّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — لِرَجُلٍ قد أَسَنَّ : « آيَةُ شَجَاعَةٍ قد فَاتَتْكَ ! » يَعبى : لو أَنَّكَ قَبْلَ اليَوْمِ تَدْرِي أَنَّ هَذَا يَكُونُ مُعْمَرَكٌ لم تُبَالِ .
وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّهُ تَأْنِيسٌ ما لم تَقْرُبِ المَدَّةُ ، وَزِيَادَةٌ في أَلَمِ المَنِيَّةِ إِذَا اقْتَرَبَتْ . ولا يَكُونُ الطَّبُّ إِلَّا لِيُصَحِّحَ البَدَنَ مُدَّةَ الحياةِ لِكِراهِيةِ العِيشِ في نَكَدٍ . وَأَمَّا لِدَفْعِ أَجَلٍ ، فلا يَنْفَعُ شَيْءٌ .

٨٨ — آراء طَبَّيَّةٍ في الأَغْذِيَّةِ والنَّبِيذِ

١٥

قال بعضُ الحُكَمَاءِ : « النَّاسُ يَعبِشُوا^(١) لِيَأْكُلُوا ، وَنَحْنُ نَأْكُلُ لِنَعبِشَ ! » فَتَأَمَّلْ مَعْنَاهُ .

وَجَمَعَ أَحَدُ المُلُوكِ أَطِبَّاءَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَعْلِمُونِي بِالدَّوَاءِ الَّذِي لا دَاءَ مَعَهُ ! » فَكَلَّمَهُم تَكَلَّمَ على الأَدْوِيَةِ والمُعَانَاةِ بِهَا ، غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ

(١) كَذَا فِي الأَصْلِ .

أكبرهم سنًا ؛ فردَّ عليهم أن : « ليس عن هذا سألكم الأمير ! ولكنَّه يأذنُ لي في الكلام ؟ » قال : « قلْ ! فأنتمُ معدُّنُ الحكمة والفلسفة ! » فقال « أيُّها الأمير ! إنَّ الدواء الذي لا داءَ معه أن تكونَ ، عندَ أخذِكَ للغذاء ، تتركُ منه بقدرَ ما تتمُّ به الشبعة ، ولو كُفِّمتين ، ولا تَمَلأُ ! فذاك دواءٌ لا يحتاجُ معه إلى طيبٍ ! »

وذكرَ هذا عن الرشيد ، إنَّه قدَّم بين يديه قصعةً بطعامٍ ؛ فلما أكل قال : « هذا غذاءٌ ودواءٌ ! فما زيدَ عليه كان داءٌ ! » وعلى أنه لكلِّ امرئٍ من دهرِهِ ما تعودَ .

وقال النبيُّ — عليه السلام — : « أصلُ كلِّ داءٍ البرودة ، وأصلُ كلِّ دواءٍ الحمية ! » وقيلَ : « أقلُّ طعاماً ، تَحَمِّدُ منلماً ! » وقالت الحُكماءُ : « إنَّ الكثرة والقلةَ عدوَّا الطبيعة . »

قد نرى^(١) في التلمُّز ما ، إذا اعتدلَ مزاجُهُ منه بالكثير ، لم يجب أن يُقالَ له : « قلِّل ! » ولا من شاربٍ واهه القليلُ ، أن يُقالَ له : « ازدَدْ ! » غيرَ أنَّ العاقلَ يرى ذلك بحسِّه ، ويعلم ما لم يُوافقَ طَبْعَهُ ؛ فلا يزيدُ عليه شيئاً .

وسُئِلَ حكيمٌ عن التلمُّز ؛ فأجابها ، إلَّا أنه قال : « إذا أخذتَ كيفَ يَنْبَغِي ومع من يَنْبَغِي ، فلا بأسَ بها : تفرح النفسُ ، وتذهب بالهموم ، وتشجُّع ، وتحملُ على الفضائل . والتزيدُ منها شرٌّ كثيرٌ ، * كما أنَّ التقليلَ منها خيرٌ كثيرٌ ! »

(١) ٧٣

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذي إذا أُنْكِثَ عليه بالماء
وطال مَكْنُثُهُ ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا وَبُقْرَاطًا لَهُ عَقْلُ
فَقَضَّلَ مَا لَهُ شِبْهُ وَطِبُّ مَا لَهُ مِثْلُ
قُلْتُ : الْحَرُّ تَعْجِبُنِي ! قَالَ : كَثِيرُهَا قَتْلُ !
قُلْتُ : كَمْ تَقْدُرُ لِي ! قَالَ ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :
وَجَدْتُ مِنْ طِبَائِعِ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خيرَ فيما لا تبيحُهُ الشريعة . ولا بأسَ
بِعِلْمِ الشَّيْءِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَضْعِهِ ؛ وَبُغْضِ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَقْضِهِ لِمَنْ
ابْتَلَى بِهَا أَنْ يَأْخُذَهَا عَلَى حَقِّهَا .

وقالوا إنه مما يُؤَلِّدُ فَرْحَ النَّفْسِ الشَّرْبُ بِأَنِيَةِ الذَّهَبِ وَشَمُّ النَّزْجِسِ ،
كما أَنَّ الشَّرْبَ بِأَنِيَةِ الْقَزْدِيرِ وَشَمُّ الْبَنْفَسَجِ مِمَّا يُؤَلِّدُ الْحُزْنَ .

١٥ وقالوا إنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَدْوِيَةِ السَّوْدَاءِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَتَقْبُّ السَّوْدَاءِ
أَشْرَّ مِنَ الْأُولَى إِنْ أَكْثَرَ مِنْهَا . وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهَا إِلَّا
مَارِقًا مِنْهَا ، وَحَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ ، وَعَطَّرَتْ رَائِحَتُهُ ، وَهِيَ حَارَّةٌ يَابِسَةٌ ،
ثُمَّ تَسْتَحِيلُ إِلَى الْبَرْدِ عَنْ شَرْبِ الْمَاءِ لِلضَّرُورَةِ ، وَتَجِدُ الرُّطْبَةَ مِنْهَا ،
كَبِدِيَّةِ اللَّوْنِ ، غَلِيظَةِ الرَّوْتَقِ ، مُؤَلِّدَةً لِلدَّمِ وَالنَّوْمِ ؛ وَهِيَ الْمَوَاقِفَةُ
٢٠ لِمَازِنِ الشَّتَاءِ . وَلْيَتَّخِذْ مِنْهَا لِكُلِّ زَمَانٍ مَا يُوَافِقُ طَبِيعَتَهُ ، وَيَخَالِفُ هَوَاهُ .

ورأوا أَنَّ أَخْذَهَا بَعْدَ الْغَدَاءِ بِسَاعَةٍ ، لِيَتَنَامَ الْإِنْسَانُ قَبْلَهَا وَيُرْوَى

من الماء أَنْجَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ . وكذلك الْجَمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ
الأعضاء وتودُّعِها بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تملئ
الأعضاء ، واحتياجها إلى إخراج الفضول ، ونشاطها . ولا يكون ذلك عن
*تَكَلُّفٍ ، حَتَّى تَمِيلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَا سِيَّامًا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُؤَافِقُ (ب) ٧٣
ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ
أحدهما ، تَضَفُّعَ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّ جَمِيعًا ، قَوِيَتْ الْمَنَّةُ وَتَكَامَلَتْ
الصَّحَّةُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي الْبَارِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَّةَ مَتَى اشْتَهَتْ
شَيْئًا ، فَقَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنِّي لِلصَّحِيحِ
الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيِّبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانِيَ الْعَلِيلَ ،
وَقَاسَ بَيْنَ دَوَائِيْنِ يَكُونُ نَجْعُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرِجَلِ
وَشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فِعْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرِجَلِ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشْوَقُ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاتَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي الدَّوَاءِ ، وَيَنْجَحُ
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَرَوْا لَشَرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ ،
لِلتَّوَقَّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَطْعِ الْأَبْخَرَةِ .
وَلَيْسَتْ تَعْمَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ
أَسْرَعُ لَهُضْمِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَتَمَلَّأُ شَرَابًا أَحَبُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَمَلَّأُ طَعَامًا ! فَإِنْ
التُّخْمَةُ ، إِنْ تَعَقَّدَتْ ، قَتَلْتُ ؛ وَإِنْ تَحَلَّلَتْ ، أَسْقَمْتُ . « قَالَ بَعْضُ

الفلاسفة : « خففوا هذه الأنفس من أوقار الشهوات ، لتصعد إلى عالمها الأكبر ؛ فتأتيكم بمجائب ما هنالك ! »
 وقالوا في الشراب إنه يسلي الموم . وأنا أقول إنها تهيج الموم ،
 إنما هو ما نزل عليه : إن ألفت سروراً ، حرّكت منه ما سكن الإنسان
 عنه ؛ وإن ألفت هُموماً ، ذكرت بما هو فيه وأشد منه ، وفقت إلى
 طُرق السوء . والهم إنما يكون بما ينظر الإنسان من سوء ؛ فذاك الذي
 لا يسليه عنه شيء ، ولا يأتيه منه ناس ؛ والغم إنما يكون بما مضى ؛
 فربما سلت الخمر عن بعض ذلك . ولا شيء يولد النوم مثل الغم بتذكّار
 ما خلف ، أو النظر في كتاب لا ينبغي منه تعلماً أكثر* من مطالعة ٧٤ (١)
 ما مضى . ١٠

ومن الجهّال من يعتقد أن العشاء قرب المنام يولد الرقاد من أجل
 التعلّي ؛ وأنا أقول إنه يمنعه ؛ فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبخرة
 وكل حار مانع للنوم ، كما أن البرد في الدماغ مؤلدة . ألا ترى أن
 الأدمغة الباردة كثيرة النزلات من الرطوبات ، وتولد التسيان ؟ والسريع
 الحفظ قد يكون في دماغه مرارة ويؤوسه ؟ وقل ما تراه ينزل ، وإن
 كان ، فلا يدوم ذلك به ؛ فإنها من فضلات الدماغ . وكذلك الجاحظ
 العَيْنين يُعرض عن ذلك ، وقلما يسلم من الأمراض والتعرق . والغائر
 العَيْنين عندهم أصبح بَصراً ، مع أنها من صفات الجمال ، إذا قالوا : « هو
 الغائر العَيْنين ، الأسيل الخلدَيْن ، المشرف الحاجِبَيْن »
 كذلك قولي ، وإنه لا يتم لأحد جمال إن خشت أطرافه وامتلأت
 خداه . وكانت العرب تمدح في الإنسان كبر رأسه ، وتقول إنه علامة ٢٠

الشُّؤْدُدُ . وَيَمْدَحُ الْغُلَامَ الْأَبْلَهَ الْعُقُولَ .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصَّوَابِ ، ولا خيراً في
التَّهَوُّرِ والإِكْثَارِ بما لا يحتاج . ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلاً فيما رثى
به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى الْمَقَابِرُ مِنْ شَرِيكِ كَثِيرٍ تَحَلَّمَ وَقَلِيلٍ عَابِ
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَنِّي جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

وَمَا وَصَفْنَاهُ مِنْ عِلْمِ التَّنْجِيمِ ، اخْتَجَجْتُ يَوْمًا بِبَعْضِ الْمُنْجِمِينَ أَنَّهُمْ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ ؛ فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ تَقْتَضِي بَأْتِنَا نَزْعُ أَنْ الْكَوَاكِبَ فَاعِلَةٌ
أَوْ يَعْلَمُ أَحَدُ الْغَيْبِ ، فَمُحَالٌ ذَلِكَ ، لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ ، غَيْرَ أَنَّا قَوْلُ بَأْتِنَا
مُصَرِّقَةٌ . أَلَسْتَ تَقُولُ فِي الشَّمْسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا ضِيَاءً ؟ فَكَذَلِكَ أَقُولُ
فِي النُّجُومِ السَّعِيدِ أَوْ النَّحِيسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لِلذِّكْرِ ؛ ثُمَّ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ
السَّعَادَةِ وَصُورَتِهَا غَيْرَ الْحَمَلَةِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْتَهِي مِنْهَا .

« وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مُوَافِقٌ لِلشَّرَائِعِ إِذْ النَّصْبَةُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مُدَبِّرٍ
وَاحِدٍ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ؛ فَتَمَّ كَانَ فِي الْعَالَمِ دَوْلَةٌ أَوْ مِلَّةٌ ، لَمْ تَدُلَّ النُّجُومُ
عَلَى غَيْرِهَا ، إِذِ الْحُكْمُ مِنْ لَدُنِ الْوَاحِدِ * . فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِئُكَ بِهِ أَنَّهُ (٧٤)
مَا مِنْ طَالِعِ الْقِرَانِ مِلَّةً وَمَوْلِدِ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ شَاكَ كُلٌّ ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ مِنَ
السَّعَادَةِ فِي الْمِثَّةِ مَا خَرَجَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْقِتْلِ .

« وَأُخْرَى . أَلَيْسَ تَقُولُ الْيَهُودُ إِنَّهُمْ زُحَلِيُّونَ ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ !

٢٠ أَلَا تَرَى اتِّخَاذَهُمُ السَّبْتَ عِيدًا ؛ وَهُوَ لَزُحْلٍ ، وَأَخْلَافُهُمْ كُلُّهَا مُطَابَقَةٌ لِمَا

يدلُّ عليه زُحَلُ من البُخْل ، والقَذَارَةُ ، والخُبْثُ ، والمَكْرُ ، والخَدِيعَةُ ؟
 ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهِمْ شَمْسِيُّونَ ، لا امْتِرَاءَ في ذلك ! أَلَا تَرَى أَنْ يَوْمَ
 الْأَحَدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيداً ، وهو يَوْمُ شَمْسِيٍّ ، وطبائِعُهُمْ مُوَافِقَةٌ لِلشَّمْسِ ،
 وَصُورُهُمْ فِيهَا : الْبَيَاضُ وَالْحُمْرَةُ وَالشَّقْرَةُ ، وَالرَّهْبَانِيَّةُ فِي عِبَادِهِمْ لِعَقْمِ
 الشَّمْسِ ؟ ثُمَّ الْمُسْلِمُونَ : أَلَيْسَ هُمْ زَهْرِيَّينَ ؟ وَالزَّهْرَةُ دَالَّةٌ عَلَى الدِّينِ ،
 وَالنِّظَافَةِ ، وَالْمَرْوَةِ ، وَالضُّوءِ ، وَالطَّهَرِ مِنَ الْجَنَابَةِ ، وَإِبَاحَةِ النِّكَاحِ ، وَالْإِمَاءِ ،
 وَالطَّيْبِ وَالزَّيْنَةِ ؟ ثُمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيداً ، وهو يَوْمُ الزَّهْرَةِ !
 « ثُمَّ انْظُرْ إِلَى بَرْجِ الْفَلَكَ . تَقُولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الْعُرْسِ .
 وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ النِّكَاحَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ ، وهو السَّابِعُ مِنْ أَشْهُرِ
 ١٠ الْعَامِ الْمُرَوَّخِ بِهِ ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْمُحَرَّمُ ؛ وَالثَّامِنُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الْمَوْتِ
 وَالْمَوَارِيثُ ، وَشَهْرُ شَعْبَانَ الثَّامِنُ مِنَ الْأَشْهُرِ الَّذِي تُنْسَخُ فِيهِ الْأَجَالُ ؛
 وَالتَّاسِعُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الدِّينِ وَالسَّقَرِ ، وَشَهْرُ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ ، تَاسِعُ
 أَشْهُرِ الْعَامِ . وَجِبَ فِيهِ الصَّوْمُ وَمُحَافَظَةُ الشَّرْعِ ؛ وَالْعَاشِرُ بَيْتُ الْمُلْكِ
 وَالسُّلْطَانِ . وَاتَّخِذَ الْعَاشِرُ مِنَ الْأَشْهُرِ عِيداً يَظْهَرُ فِيهِ بَهَاءُ الدِّينِ وَعِزُّهُ .
 ١٥ « وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ^(١) . وَأَقْسَمَ
 ﴿ بِالْخَنَسِ الْجَوَارِ الْكُنَاسِ ﴾ ^(٢) وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ . وَيَزْعُمُونَ
 أَنَّ زُحْلَ هُوَ النِّجْمُ الثَّاقِبُ . لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضَوْئِهِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ . وَأَنَّهُ أَعْظَمُ
 مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَتَهَا
 مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ . غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ ، فَإِنَّهَا أَصْفَرُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التَّكْوِيْدِ : ١٥ - ١٦ .

- الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفاً . ولكل كوكب منها مدة
 * يقطع فيها الفلك . ورتبة هيأها له باريته — عز وجل — ؛ وإن العالم ٧٥ (١)
- السفلى متعلق بالعلوى . مؤثر به بإذن ربه . «
 ومنهم من قال : لأى شئ تُنسب إلينا الزندقة ؟ ولم تُفكر الخالق ؛
 وإنما تكلمنا فى المخلوقات ؛ فيوصف كل مخلوق بما يدركه علم الإنسان .
 ٥ كواصف رجل أو شجر أو جبل ! »
- وذكر عن حكيم أنه رنى بالمصحف عن يمينه . والأسطرلاب عن
 شماله ؛ فُسِّل ما الذى أوجب جمعها لديه ؛ فقال : « أتلو فى المصحف
 كلام الله . واعتبر فى الأسطرلاب خلق الله ؛ وعلم الهيئة عبادة ! »
 ١٠ وإنه لما نُصَّ على هذه المقالة ؛ كان جوابي عنها : « كل ما تقول
 يشبه يكون من موافقة أهل السنة بما احتججتُم به ؛ غير أنكم خالفتُم
 القرآن فى قولكم « يكون » و « لا يكون » ؛ والله يقول ^(١) ﴿ قُلْ
 لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ قالوا : « لَسْنَا
 نقطع عن الأمر أنه يكون ؛ ولا نقول إلا أنه يدُلُّ . ونأتى بحجة إلا يتم
 شرحها . اللهم ! إذ قلنا : هذا مَوْلِدٌ سعيدٌ ، هل نقدر على شرح تلك السعادة
 ١٥ والكائن فيها . مِنَّا مَنْ يتحرَّى ، فيعدل ولا يتكلم على شئ . وقولنا هذا
 كقول من رأى سحاباً ثقالاً ؛ فيقول : « هذه تدُلُّ على الماء الكثير » . هل
 قائل ذلك مُلحدٌ ؟ ثمَّ الله يفعل ما يشاء .
- وهذا أيضاً ممَّا قدَّمنا ذكره صدر الكتاب أن كل مفتون ملقن
 ٢٠ حُجَّتَهُ ؛ والله يقول ^(٢) : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ؛ على أن الحقَّ

عليه نورٌ لا ينجى ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطل لَجَلج . » .
قال المأمون : « لم أَغْتَبِطْ بأيَّامِ السرور مُذْ عَلِمْتَ التَّجِيمَ ، ولا استمریتُ
الطعام مُذْ عَلِمْتُ الطَّبَّ ، ولا طابَ لى النوم مُذْ عَلِمْتُ عبارة الرؤيا ! »

٩٠ - مسائل فلكية

٥. ويزعمون أَنَّ الليلَ ظِلُّ الأرض ، ولا ضياءٌ غير الشمس ؛ فيأشراقها
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع
الظِّلُّ طالما ، فأظلمَ الليل .
وبعضُهم من قرأ أَنَّ الشمسَ تجرى ، لا مُسْتَقَرٌّ لها ، إذ يقولون إِنَّ
الشمسَ لا تَسْتَقِرُّ* بمكان ، إذ لا يَصِحُّ أَنْ يكون المكانُ إِلَّا أعظمَ من ٧٥ (ب)
الذى تحِلُّ فيه ؛ ولا أعظمَ من الشمسِ إِلَّا الفلكُ ، والفلكُ دَوَّارٌ .
١٠ وقالوا فى الكسوفِ إِنَّ الكلامَ فيه ما يمكنُ إِلَّا بالوقوفِ على صورة
الهيئة ، ولو لا ذلك ، لم يَجِدِ القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف
الذى حُدَّ أمرُهُ وَقْتَ انْجِلَالِهِ وَمَبْلَغِ الْمُنْكَسَفِ منه ؛ وإنَّ الشمسَ فى
ذاتها لا يعرضها شيءٌ غيرُ أَنَّ جرمَ القَمَرِ يحولُ بَيْنَها وَبَيْنَ الأرضِ متى
١٥ قابَلَهَا ؛ وكُسوفُ القمرِ من مُقابَلَةِ الأرض .
وزعموا أَنَّ ضوءَ الكواكب والقمرِ من الشمسِ ، وَأَنَّها أَجْرامٌ شَفَافَةٌ
تَكْتَسِي النورَ من النَّيِّرِ الأعظمِ ؛ فيبدو ضوءُها بغيِّها ، ويطمس عليها
طلوعها . وهو قول الشاعر فى ذلك :
لَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَاكِبُ

٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إِنَّ لَا حَيَوَانَ إِلَّا بِالْحَرَارَةِ وَالرُّطُوبَةِ ، فَأَيْنَ مَا كَانَ الْمَاءُ وَالشَّمْسُ تَوَلَّدَ فِيهِ الْحَيَوَانَ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ نَسْلِ . وَنَرَى حَيَوَانًا يَكُونُ فِي جَوْفِ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ مُكَمَّلَمَةٍ ؛ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . قَالَ تَعَالَى ^(١) : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَذَكَرَ عَنِ الْحَجَّاجِ أَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ عَلَى حَالَةٍ حَسَنَةٍ ؛ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ جُورِهِ ؛ فَقَالَ : « رَحِمَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُهَا : مَرَرْتُ يَوْمًا عَلَى زَرْعٍ ؛ فَقُلْتُ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ ، لَأَنْبَتَهُ فِي النَّارِ وَالْبَقَاعِ ! » (أَيُّ فِي الصَّحَارَى الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا) وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وَلَمْ يَبْلُغِ الْإِنْسَانُ بَعْلَمِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّبِيعَةِ : عِلَاجُ ضَعِيفٍ لَا يَرْفَعُ قَدْرًا أَكْثَرَ مِنْ تَقْوِيمِ الْمَزَاجِ عِنْدَ انْحِرَافِهِ ؛ فَجَالَجُوا الْأَبْدَانُ بِمَا أَدْرَكَتُهُ ، عَقُولُهُمْ ، وَجَرَّبُوهُ بِأَعْمَارِهِمْ ، وَتَرَكُوهُ سَلَفًا فِي الْأَوَاخِرِ . فَكُلُّ يُمَانِيٍّ عَلَى مَقْدَارِ تَجَرُّبَتِهِ ^(٣) وَلَا يُوَافِقُ الْقِرَاءَةَ حَقًّا حَسَنًا وَمَعْرِفَةً بِهَذَا الشَّأْنِ ، قَدْ أَخْطَأَ وَتَكَلَّفَ . * وَقَالُوا إِنَّ الدَّوَاءَ الْمُسَهِّلَ لِلْجِسْمِ بِمَنْزِلَةِ الصَّابُونِ لِلثَّوْبِ : ٧٦ (١)

يُنْقِيهِ وَيُحْلِقُهُ ؛ فَاسْتَعْمَلَهُ فِي زَمَانِ الْخُرَيْفِ أَوَّلَى فِي سُلْطَانِ السَّوْدَاءِ فِيهِ ، كَمَا أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْقَصْدِ فِي زَمَانِ الرَّبِيعِ تَخْفِيفٌ لَا يَحْطَى مِنْ أَخْرَجَ فِيهِ الدَّمُ . وَإِنَّ أَشْبَهَ شَيْءٍ الْأَغْذِيَةِ بِمَزَاجِ الْإِنْسَانِ : فَالْخُبْزُ النَّقِيُّ وَاللَّحْمُ النَّقِيُّ وَالشَّرَابُ

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحو كلمة في الأصل .

الْحَوَالِي؛ فَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى هَذِهِ دُونَ تَخْلِيْطٍ لَمْ يَزَلْ صَحِيْحَ الْجِسْمِ ، قَوِيَّ الْبِنْيَةِ .
وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :
« إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فقال : « وَأَنَا
أُعَالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فلما قيل : « يُخَيِّ الْمَوْتَى » لم يُصَدِّقْ
ذلك حتى رآه مُعَايَنَةً حَقًّا .

٩٢ — تقض قول من ينكر أن الجن تتكلم

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعِمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ
بِسَمَاعِ نَفَقَتِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ ، وَقَوْلُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مِنْ لَه
لِسَانٍ وَآلَةٍ تُعِينُهُ ، وَإِلَّا ، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ
١٠ يعرض في دماغ مَنْ يَدَّعِي ذَلِكَ ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاغِهِ أَمْرٌ مَا يَخِيلُ لَهُ بَفْسَادِهِ
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ ؛ فَيَهْدِي هَذَا نَا ، ضَرْبًا
مِنَ الرُّوحَانِيَةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ ، مُفَكِّرًا فِي بَلَدِهِ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ
مِنَ الصُّوَرِ : إِذَا حَدَّثْتُهُ نَفْسُهُ بِهَا ، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا ، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ ،
أَوْ كَالنَّائِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرْآةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ .
١٥ هذا ، لِعَمْرِي مَذْهَبٌ خُولِفَ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ . وَاللَّهُ يَقُولُ ^(١) : ﴿ قَالَ
عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ ^(٢) : ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ ﴾ ؛
وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ
لَيْسَ عَلَى خَلْقَةِ الْإِنْسِ ، كُلُّ عَلَى جَبَلَةٍ ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .
ولو لا ذلك لم تَدِنْ ، ولا سَبَّحْتَ ، ولا اهْتَدَدْتَ لِمَا يُسْرَتُ لَهُ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٧ .

(١) سورة النمل : ٣٩ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، قَالَ ^(١) : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بالسُّجُودِ النِّجْمَ * وَالشَّجَرِ وَالذُّوَابَ ^(٣) (٧٦) الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَامِدُ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالثَّوَابِ ، وَأَنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى ^(٤) : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .

فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نَسَقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تَوْصَفُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ الْمَنْزَلُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ بِالرِّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

٩٣ - حديث عن المسرَّة وعن هموم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْثَرِ أَدْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لِسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَمْرُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَقَرَّ عَيْنُهُ حَيَاتِهِ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْوَةً شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَنَمَ سَاعَةَ لَدَّتِهِ ؛ فَقَدْ عَنِمَ ؛ وَمَنْ أَخَّرَهَا ، فَقَدْ عَدِمَ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !

وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالرِّيَاحِينَ مِمَّا يُسَلِّي الْعَاشِقَ وَيَتَلَاوَى مِنْ أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَنَقِيمِ الْبُرْهَانِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَوَلِّعُ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنْتَ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأَشْيَاءِ فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛
وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبَهُ سَهْرًا وَقَلَقًا . وَالشَّيْءُ لَا يُعَانِي
إِلَّا بِضِدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفَى بِحُسْنٍ وَيُسْلِيهِ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْغَلُهُ !
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالسُّرُورِ ، وَالسُّرُورَ ، يَضْمَعِلُ بِالْكَدْرِ ؟
وَلَيْسَ لِعَاشِقٍ مُرَزِّيًا بِمَالٍ وَلَا أَهْلٍ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُصَمَهُ ؛ بَلْ
هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةٍ حَلَاوَتِهَا مَشُوبَةٌ بِحَرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكَةِ فِي
الْمُدَاقَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مِثْلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي الْمُشْتَهَاتِ : كُلُّ
مَا تَمَّتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وإذا قاس حالَ أزمِنَتِهِ التي كانت تَسْرُهُ على ضروب من حالات
الصبوة ، لم يَجِدْ فِيهَا مَدَّةً كانت عنده أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السُّرُورِ ، وَأَهْشَ
لِلنَّفْسِ وَاللِّبْقِ * بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلْقَلْبِ ، وَأَصْفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ (١) ٧٧
تلك المدة ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَوْيٍ ؛ فَإِنَّهُ « لَا بُدَّ بَعْدَ الشَّهْدِ
مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ » ، وَدَوَاؤُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا مِمَّا هُوَ
فِيهِ ؛ إِنْ يَشْغَلُهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسِي بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِي
١٥ هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى .

٩٤ — تأملات نظرية وأمثلة يَضْرِبُهَا الْمُؤَلِّفُ

من قصَّة حَيَاتِهِ عَنِ الطُّمُوحِ وَزَوَالِ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا

- وَالصَّبْوَةُ تُحَدِّثُ لِلْإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهْتَمِّ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،
أَوِ الْمُشْتَغَبِ بِمُحَاوَلَةِ مَا يُضْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يَوْمٌ مِنْهُ
٢٠ مُكَابَدَةُ الْأَعْدَاءِ وَمَقَاسَاةُ طَلَبِ الْعَيْشِ ، الَّذِي ، إِنْ فُتِرَ عَنْهُ شَيْءٌ ، لَا طَلَبَ

الزيادة في الرزق . فإن ذلك يسعى كالبطير الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

- والنفس تَوَاقَّةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ ، تَاقَتْ إلى ما فوقها ؛ فالعَاقِلُ يرى أن كُلَّ كَيْدٍ وَطَلَبٍ دون السَّعي في طَلَبِ ما لا بُدَّ منه من قِوامِ العيش فَخْرٌ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عن كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ ، إِلَّا عن ثَلَاثَةٍ : طعامٌ يَسُدُّ جَوْعَهُ ، وثوبٌ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ وَبَيْتٌ يَكُنُّهُ مِنَ الشَّمْسِ . ولو أنَّ له الدُّنْيَا أَجْمَعُ ، لم يكن له منها زائداً إِلَّا حُظُّ العَيْنِ الذي يَسْتَوِي به فيه مع غَيْرِهِ مِنَ النَّاظِرِينَ ، فسلم من تَعَبَاتِهِ ، وتَوَرَّطَ هو في حِسَابِهِ وَأَوْزَارِهِ ، وما كَانَ إلى انْقِطَاعٍ وَنَقَادٍ . فَحَقِيقٌ عَلَى اللَّيِّبِ أن يَزْهَدَ فِيهِ ؛ لو آلَتْ حَالُهُ إِلَى السَّلَامَةِ بَعْدَ ذَهَابِهِ ، لَا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ ؛ فَكَيْفَ ، وهو قد أُيْقِنَ بِالْفَنَاءِ وَبَعْدَهُ الْحِسَابُ وَالْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ ؟
- وقال الْمَسِيحُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ : فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا ! »
- على أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَزْهَدُ فِي حَالِ كُلِّ الزَّهَادَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ أَمَلُهُ أَوْ بَعْضُهُ ؛ فَإِنَّ الزَّهَادَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِيمَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَيْلِهَا إِلَى مَا فِيهِ أَدْنَى سُرُورٍ . وَاللَّهُ يَقُولُ فِي الْإِنْسَانِ ، لَعَلِمِهِ بِهِ ^(١) : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ؛ فَكَأَنَّ الشَّيْءَ ، إِذَا أُدْرِكَ ، انصرفت عنه النَّفْسُ لِبُلُوغِ نَهْمَتِهَا ؛ وَمَتَى تَمَنَّعَ عَلَيْهَا ، كَانَتْ بِهِ أَشَدَّ ^(ب) كَلْفًا .

- ولقد بَلَوْتُ مِنْ نَفْسِي بَعْضَ ذَلِكَ ، إِذِ الطَّبِيعُ الْبَشَرِيُّ وَاحِدٌ ، لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ إِلَّا فِي الْأَقْلُ ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجِبَ لِأَبْنَاءِ

جنسه ما يحب لنفسه ، حظاً على العدل والإنصاف .

وأجِدُنِي فِي كَثْرَةِ الْمَالِ ، بَعْدَ تَمَلُّكِ عَلَيْهِ مَعَ ذَهَابِهِ ، أَزْهَدَ مِنِّي فِيهِ قَبْلَ اكْتِسَابِهِ ، مَعَ سُقُوفِ الْحَالِ إِذْ ذَاكَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ .
وَكَذَلِكَ شَأْنِي كُلُّهُ فِي كُلِّ مَا أَدْرَكْتُهُ قَبْلُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ وَاكْتِسَابِ الذِّخَائِرِ ، وَالتَّائِقِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِيسِ وَالْمَرَائِكِبِ وَالْمَبَانِي ، وَمَا شَاكَلَ مِنَ الْأَحْوَالِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي نَشَأْنَا عَلَيْهَا ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَتَمَنَّاهُ النَّفْسُ ، وَمَا لَا تَنْظُهُ ، إِلَّا وَقَدْ بَلَغْنَا مِنْهُ الْغَايَةَ ، وَتَجَاوَزْنَا فِيهِ الْغَايَةَ ؛ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْحَصُولِ عَلَيْهِ يَنْقَطِعُ وَيَذْهَبُ وَشَيْكَاً ، فَتَطُولُ عَلَيْهِ الْحَسْرَةُ ، وَيُعَدُّ مِنْ جَمَلَةِ الْأَحْلَامِ ! بَلْ ، تَمَادَى بَرَهَةً مِنْ عِشْرِينَ عَامًا ؛ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ يَكَادُ أَنْ يُوَازِيَهُ ؛ إِذْ رُبُّنَا فِي حِجْرِهِ .

وَوَجَدْتَنِي ، بَعْدَ قَدْ هَذَا كُلُّهُ ، عَلَى الْوَلَدِ أَحْرَصَ مِنِّي عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ كُلِّ مَا وَصَفْنَا ، لَعَدِمِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « الْغَايَةُ الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ ، قَدْ أَدْرَكْنَاهَا ، وَشَهَرْنَا بِهَا فِي الْآفَاقِ ؛ وَلَا بُدَّ مِنْ قَعْدِهَا ، بَاكِراً كَانَ أَوْ مُؤَخَّراً ، بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ ! فَنَحْسِبْ هَذِهِ الْعِشْرِينَ عَامًا هِيَ مِائَةٌ عَامٍ ، إِذَا تَمَّتْ ؛ سِوَاءٍ ، وَكَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ! وَنَحْنُ الْآنَ جُدْرَاهُ بِالنَّظَرِ فِيمَا تَبْتَغِيهِ . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضِيَ مَا شَاءَ ! »
وَقِيلَ لِرَجُلٍ حَرَاثٍ : « هَلْ زَرَعْتُمْ ؟ » قَالُوا : حَرَرْنَا . وَاللَّهُ الزَّارِعُ ! » وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْمَزَارِعِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَدْفَنُونَ فِي الْأَرْضِ أَقْوَاتَهُمْ وَيَطْلُبُونَ فَضْلَ اللَّهِ وَبَرَكَتَهُ .

٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديرنا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكونٍ من نشأ لنا من الولد .
لم يتبعه وقته ، ولا كان في غير مكانه .

(وذكر * الفلاسفة أن الوحي يتجزأ على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١) ومنام ؛ وهو قوله تعالى ^(١) : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله ^(٢) — عز وجل — ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ إنما كان وحي إلهام . وكان النبي — عليه السلام — يقول في بعض أقسامه : « لا أُمُكِّلُ القلوب ! » فإنها بين يدي الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه أحكامه وتجري عليها أقداره .)

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ خلالٍ للعاش ، يغنى عن السؤال ، وعملٍ صالحٍ للمعاد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .
وقد كان سُقراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتقد بذلك أنه مُهرمٌ للجسم ومُسرعٌ إلى الفناء ، قد قيل إن فاعل ذلك مُقتبسٌ من حَيَاتِهِ ؛ فمن شاء ، فَلْيُقِلِّلْ ، ومن شاء فَلْيَكْثِرْ ! ولهذا أرجح الجاحِظُ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يُجامع .

١٥ وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعِهِ إلى ^(٣) أشدُّ استِفْراغاً ، وأذهبُ لجَوْهرِيته ، وأقطع لثروقه من أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرّات ؛ لأنّ المُجامع مُخرِجٌ

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهذا خُرِّجَ منه الجَوْهَرُ ، وفُرِّغَتْ عروقه ، وَلِيْنَتْ لحمه ،
وَأُضِفَتْ عَصْبُهُ ، وَأُرِخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولما كَبِرَ سِنَّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ،
جَامَعَ مَرَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِنَّمَاءً لِحِكْمَةِ
الْبَارِي — عَزَّ وَجَلَّ — ؛ وَقَالَ : « لَمْ تَكُنْ حِكْمَةُ النِّسْلِ إِلَّا بِهَذَا
الْفِعْلِ ؛ وَإِنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَصْلًا ، كُنْتُ كَالسَّائِطِ أَوِ الْمُنْتِ لِمَا رَتَّبَهُ
الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ :
« مَا أَظُنُّ عِيًّا عَلَيَّ إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيَّ إِنْ رَزَقَنِي بِكَرٍّ أَوْلَادِي ابْنَةً ، لَمْ يَزَلْ قَبِيلُنَا
كُلُّهُ يَتَبَرَّكُ بِهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِكَرْمِهِ ابْنًا ذَكَرًا . وقد رأينا في سَيْفِ
الدَّوْلَةِ أَيْنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنْ لَمْ تَمْ لَهُ فَرَحُهُ بِذَلِكَ ؛ عَلَيَّ أَنْ هَذَا* لَيْسَ (ب) ٧٨
عَلَى الْعُمُومِ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِلتَّفَاوُلِ ، إِذْ قَالَ نَبِيُّنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — :
« تَفَاءَلُوا وَلَا تَطَيَّرُوا ! » فَتَحَنُّ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سِيَّامَا شَهْرَ عِنْدَ أَهَالِنَا
وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدُّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

١٥ ثُمَّ رَزَقَنَا بَعْدَ هَذَا ابْنَيْنِ ؛ فَلَمْ نُبَشِّرْ بِالِابْنَيْنِ ، كَنَى لَا يَجْتَمِعُ
عَلَيْنَا حَزَنُ ذَلِكَ مَعَ مَا نَحْنُ فِي سَبِيلِهِ ، لُطْفًا مِنَ الْوَهَّابِ وَإِنَّمَاءً وَإِحْسَانًا .
فَتَعَدَّادُ رِئَمِ اللَّهِ شُكْرُهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى
الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ ، مِنْ أَوْجَبِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ —
عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرُ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ
الْعَرَبِ ، وَلَا فَخْرُ ! »

٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثم انصرف وجهُ اهتِبَالِنَا إلى وَضْعِ هذا الكتاب ، وهو لَعْمَرَى بِمَنْزِلَةِ
الابْنِ الذِي يُنَبِّئُ ذِكْرَ أَبِيهِ فِي الْعَالَمِ ، لِنُبَيِّنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى
الْجَاهِلِ مِنْ مَقَالَةٍ سَوَاءٍ [فِي دَوَلَةٍ ،] زَعَمَ الْحَاسِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا .
ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَهَا لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِنَا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا
وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ أَهْلِ
الْفَضْلِ وَالْحَقِّ ، الْمُحِبِّينَ ^(١) لِلَّهِ فِينَا ، الْوَادِّينَ ^(٢) الْخَيْرَ لَنَا ؛ وَلَا يَزِيدُ
الْبُغَاةُ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ فَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَخَوَى الْأَلْيَابِ :

« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْخَاطِبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِدَادُنَا ، وَإِنَّا كَمْ
خَاطَبْنَا ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا ! فَلَا نَعْمَى بِكُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛
وَلَا شَتَانٍ لِرَبِّهِ سَلَفَتْ تُحَرِّفُكُمْ إِلَى نَفَثَاتِ الْحَاقِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ
إِخْوَانًا ، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ وَنَرُدُّ عَلَى مَنْ اعْتَزَّضَ جَهْلًا أَوْ حَقْدًا :

« اخْضَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى
اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ
السَّلَام — فِي قَوْلِهِ ^(٣) : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ
السُّلُوءِ ﴾ .

(٢) أصل : « الْوَادِّينَ » .

(١) أصل : « الْمُحِبِّينَ » .

(٣) سورة الْأَعْرَافِ : ١٩٩ .

الْجَاهِلِينَ . وهل تنقم ، أيها الطاعين لنا ، أن ورثنا مُلْكًا عن آباء
 كرام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمرِكَ كُلِّهِ ؟ إذ قالت * العَلَمَاءُ إِنَّهُ من عاش (١) ٧٩
 ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قَصُرَ عُمرُهُ ، طويلُ العُمرِ ،
 مع أَنَّهُ كان في طاعةٍ لم تُوصَفْ مقدماً ، بحمد الله ، بجورٍ ولا طغيانٍ ،
 ولا سَفَكنا دَمًا ، ولا غَصَبنا مالاً . وكانت مُدَّتُنَا فيه نحو من عشرين
 عاماً خَيْراً من سِنين ، إذ كَلِيلةُ القَدَرِ خَيْرٌ من ألفِ شهرٍ . وتَمَامُ المَدَدِ
 على قديم الدهر عادةٌ لا تُسْتَعْرَبُ لنا خاصّةً . ولا بُدٌّ من الفراقِ ! فللهُ الحمدُ
 إذ لم نفقدها بفقْدِ عقولنا ولا أدياننا ، ولا تَمَّتْ بنفادِ أعمارنا : فيَوْمٌ من عُمرِ
 الإنسانِ يذكرُ الله فيه خَيْرٌ من تمامِ عَمَلِهِ ؛ وَمَيتَةٌ على بلاءٍ وتذكاري
 خَيْرٌ من مَيتَةٍ على فِتْنَةٍ غَفَلَةٍ .

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه
 من أخطاء حياته الخاصة .

ثُمَّ أَضْرَبْتُ عن وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ قَعْلَنَاهُ ، وَحَزَمْتُ اسْتَشْعَرَنَاهُ ،
 وَخِدْمَةُ الدُّوَلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ ، وَتَتَبَعْتُ مَا لَا عَارَ فِيهِ عَلَى الْمَلِكِ . وَلَا تَقْصَانِ
 فِي الْمَمْلَكَةِ ، مِنْ رَاحَةٍ تُخْتَلَسُ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الشُّغْلِ كِي تَعْقِبَ نَشَاطًا ،
 وَعَمَّا دُفِعْنَا إِلَيْهِ تَسْلِيَةً . فَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ : « تَرَكُ الذَّاتِ يُعْقِبُ
 الْبَرْدَةَ ، وَيُؤْثِرُ فِي الْحِلْدِ أَدْوَاءَ مُنْكَرَةٍ . وَقِيلَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرَّءِ
 عَلَى الْبَقَاءِ مَقْدُورَةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكْتَ ذَلِكَ لِلنَّفْسِ .
 ٢٠ فَهَجَّنَا بِلَقْظِكَ ، وَأَخْرَجَهَا مِنْ حَيْرِ الْمَزَلِ إِلَى الْجَدِّ ، وَكُنْتَ كَجَارِ

سُبَّة : إِنْ رَأَى حَسَنَةً ، كَتَمَهَا ؛ وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً ، أَذَاعَهَا . فَطَفَفْتَ
وَأَرْبَيْتَ إِنْ افْتَرَيْتَ ، وَمَا أَدَعْتَ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ أَكُنْ مَخْلُوعَ
الْعَذَارِ ، وَلَا أَطْلُتُ إِلَى رَاحَةِ تَوْجِبِ الْغَفْلَةِ ، كَالَّذِي صَنَعَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا
مِنَ الْمُلُوكِ ، وَتَعَفَّفْنَا عَنِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرِّ !

• وَلَمْ يَبْقَ لَكَ مَا تَقُولُ : « إِنْمَا كَانَ صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ
الْمَالِ ، مُحِبًّا فِي الْحِسَانِ ، يُنَادِمُ الصَّبِيَّانِ ! » [وَإِذَا] لَمْ تُحْسِنِ الرُّوْيَةَ ،
وَلَا ظَنَنْتَهُ فِكْرًا .

- أَلَسْتَ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ
أَوْقَارًا ؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ لَا يَحْرُسُ عَلَى صِيَانَةِ
عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عُلُوِّهِ ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقِّكَ أَوْ أُعْطِيَ
١٠ فِي غَيْرِ مَا يَجِبُ ؟ هَلْ مَتَى ضَاعَ مَعْقِلٌ ، أَوْ رَفُضَ * جُنْدًا ، وَدَخَلَتْ
دَاخِلَةٌ مِنَ التَّقْتِيرِ أَوْ الْمَنَعِ ؟ أَوْ مَتَى شَكَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا
بِفَيْزٍ حَقٍّ ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ . وَأَكْثَرُ
مِنَ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [مَادِحٌ]
١٥ بِكِسْوَةٍ سَنِيَّةٍ : أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِذَارٍ ، إِذَا الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَذْبَارِ .
وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّبِيَّانِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ يَدُّ مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ ،
الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا ، فَالِلْمُقَارِ وَالرِّيَّارِ ؟ لَيْسَ هَذَا تَجْلِسَ حُكْمٌ :
فَيُتَخَيَّرُ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ ، وَلَا يُضَيَّعُ لِتُدْبِيرِ رَأْيٍ ، فَيُسَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ،
وَلَا مِيدَانُ حَرْبٍ ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَنْجَادُ الْقُرْسَانِ ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حِكْمٌ :
٢٠ مِنْ اسْتِعْمَالٍ فِيهِ غَيْرُ شَاكِتٍ ، قَدْ جَهَلَ . وَلَمْ تَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ بِهِمْ
فِي جِدِّ ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لخدمته النبوة مشهورون ؛ ممن له حكمة ودرية :
والخديم لا يكون نديماً : كيف تصول اليوم على من اطلع على عوراتك
البارحة ، إذ الشكر عورة ؟ أم كيف تأمر بخدمته الجندية والشدّة عليه
في الخروج من تعاطي معك الكأس ، وكثر معك المزاح والعريضة ؟ ثم
٥ تطلبه لخدمتك ، فتجده عثولاً عما يصلحك مشغولاً .

وبغير هذا كله ، فإن الدول الكبار لم يزل فيها الفلمان وأبناء
الصنائع صغاراً وكباراً ، عبيداً وأحراراً ، وهم بين يدي الرئيس جمال ،
وعلى خدمته أعوان ؛ ويتصرف الصغير السن فيما لا ينبغي للمسن أن
يتولاه . ولكل درجة ورئسته . وهل الملك والملك إلا للتزين والتجمل
١٠ به ، وانتخاب الحسان منهم تليق بهم الكسوة السنية والمراكب الفارهة ؟
وأخوك من واثاك ، إذ يتعبد بمالك من شئت يتعبد [خدمتك من]
حرّ أو مملوك . وإن ابن الإنسان ، إذا لم يصلح له إن يقل
هذراً ، أى عمل وليناه على بللة ، أو صرفنا إليه حكم رعية ؟ إلا
ما وصفناه ، لا أدري غيره * وإلا فتكون مجرحاً ، وإشارتك ٨٠ (١)
١٥ عاضداً ، أو تكون قاذفاً مستوجباً (١) !

جعلنا الله وإياك عن الشرّ معرضين ، وبطاعته عاملين ! إنه أكرم
الأكرمين ! لا ربّ غيره ، ولا إله حقّ حاشاه !

(١) وقع خرم ومحو كثير في آخر صفحة من المخطوط المنقول عنه .

كل الكتاب . والحمد لله . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الملحق الأول

مُتَخَبَات عَنْ « كِتَابِ الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ »^(١)

لَاِبْنِ عِذَارِي الْمُرَّاكُشِيِّ

عَنْ دَوْلَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُلْقَيْنِ بْنِ زِيرِي

(١)

٥ وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حبّوس على قول المرّادى .
والأكثر على أنّ وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القطّان فى « نَظْمِ
الْجَمَانِ » .

ذِكْرُ رِيعَةِ حَفِيدِ بَادِيسِ بْنِ حَبُّوسَ

هو عبد الله بن بُلْقَيْنِ الهالك بتدبير اليهودى المتقدم ذكره . وتسمّى
١٠ بِالْمُظَفَّرِ بِاللَّهِ ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتفق على
مبايعته ووزّراه جدّه ووجوه صِنْهَاجَةٍ . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف
بِسِمَاكِةٍ ؛ فاستقلّ بحاله ورياسته . وكان لباديس ولدٌ خلف من البنين ،
وكان قد أعطاه فى حياته مدينة جَيَّانَ ؛ فكان ينهمك فى شرب من الخمر ،
ويحدث أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبة سمّاها لُبُونَةَ ؛ فمن أحدث
١٥ له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِيَ إلى الكلبة ، فأكلته .

(١) عن مخطوط مكتبة جامع الفرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلّا الآن .

فتفرق الناس عنه وكرهوه ، وانفقوا على تقديم عبد الله بن بُلقين المذكور .
فقام بأمره سِماجةٌ خير قيام .

وطمع ابن عباد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغَرَنَاطة ؛ فبرز عليها وبنى
هـ بقربها حصناً على ستة فراسخ منها ، وملأه بالرماة والرجالة ، وترك الخيل
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغَرَنَاطة وجهاتها . فكان ذلك .
ثم لم يزل سِماجة يخدم الصبي إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد
بجماله ؛ فنفى عن نفسه سِماجة ؛ فلحق بالمرية بمال كثير وحالة جسيمة ؛
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقي عبد الله بن بُلقين بفرناطة . وسيأتي
١٠ خبره في دولة المرابطين إن شاء الله تعالى .

(٢)

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبد الله بن بُلقين من غرناطة مقاتل بن عطية
الزَنَاتي ، وكان فارس الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان
ذلك ابتداء محوس عبد الله بن بُلقين .

١٥ وفيها ، قام مؤمل ، مولى باديس بن حبوس ، في قصبة لوثة ، على
حفيد مولاه بدعوة لمتونة ؛ فأخذه عبد الله وسجنه .

.....

فأول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحب إغَرَنَاطة عبد الله
ابن بُلقين ، كما ذكرنا ؛ فنظر في اختزان الأقوات ، وألحق الرماة
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنى الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيبَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب
السَّهام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تكن العُدَّة ؛ ونقل
المال والذخيرة ، وخرَّج المتاع والآنية إلى قَصَبَةِ الْمَنَكَب لكونها في غاية
المنعة وعلى ضفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصوناً ، توهم
٥ عليه القيام منها ، ومن مأمَنه يؤتى الخذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب قعيصة ، وتُحَف جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛
فوجَّه بها إلى الإذْفُونَش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه
أنَّ البلد بلدُه ، وأنَّه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إذْفُونَشُ ، وقبل المال
والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مآته أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ،
١٠ ولا يتركه لضَمِّهِ ولا هضمية ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبدل جدَّه في نصره ؛
وراجعه بمثل ذلك من قوله . فقويت قسُ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ سَفِيَّةٍ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ
صَانِعُ إِذْفُونَشٍ وَالنَّصَارَى فَانْظُرْ إِلَى رَأْيِهِ الدِّيرِ
وَشَادَ بَنِيَانَهُ خِلَافًا لِعَطَاعَةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ
دَعَاؤُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِي إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ

١٥

وَاتَّصَلَتْ أَنْبَاؤُهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ؛ وَاسْتَزَادَ

جزعه .

٢٠ وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ الْقُلَيْبِيُّ مِنْ أَهْلِ إِغْرَنَاطَةِ فَرِيدَ عَصْرِهِ فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ

وَالْتَلَاوَةِ ، وَالْمُشَارِ إِلَيْهِ

الملحق الثاني

متنخبات عن « كتاب الإحاطة في تأريخ غرناطة »
للسان الدين ابن الخطيب السُّلمانيّ

(١)

ترجمة عبد الله بن مُبْلَقِين^(١)

٥ عبد الله بن مُبْلَقِين بن باديس بن حَبُوس بن ما كَسَن بن زِيْرِي بن
مَنَاد الصَّنْهَاجِيّ أمير غرناطة .

أَوَّلِيَّتُهُ : قد مرَّ ذلك في اسم جدِّه ما فيه كفاية^(٢) .

حاله : لَقَبُهُ الْمُظْفَرُ بِاللَّهِ ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدِّه الحاجب

المظفَّرُ بِاللَّهِ في شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سِمَاجَةُ الصَّنْهَاجِيّ تسع سنين .

١٠ ﴿ قال النافِيقُ : ﴾ وكان قد حاز حظًّا وافراً من البلاغة والمعرفة ،

شاعراً جيِّدَ الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بفرناطة ربعة مُصَحَّف

يخطه في نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفه ابنُ الصَّيْرَفِيّ ؛ فقال : ﴾ كان جباناً ، مغمداً السيف ،

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ٢١٤ .

(٢) راجع « مركز الإحاطة » (ط القاهرة) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصَّنْهَاجِيّ .

قلعاً ، لا يثبت على الظهر ، عزهاة ، لا أرب له في النساء ، هيابة ،
مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ﴿ قال : ﴾ وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن
تاشفين نلغ رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر ويم قرطبة . وتواترت الأنباء
على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يفيظه ويحفظه ، حسباً تقدم^(١) في
اسم مؤمل مؤلى باديس . وقدم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة
منها ، ولم تمتد يده إلى شيء بوجه ؛ فسر الناس واستبشروا ، وأمنت
البادية ، وتسايك أهل الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في
المال ، وألحق السوق والحاقة ، واستكثر من اللقيف ، وألح بالكتب
على إذفونش بما يطعمه .

ونحقق يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه ؛ فتحرك .
وفي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس
صنائمه ؛ فخوفوه من عاقبة التربص ، وحملوه على الخروج إليه . فركب ،
وركبت أمه ، وخرجا ؛ وتركا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على
فرسخين من المدينة ، فترجل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره
بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيخة^(٢) من خارج الحضرة .
واضطربت المحلات ، وأمر مؤملاً بثفاف القصر ، فتولى ذلك .
وخرج الجلم من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعر عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من
« الإحاطة » . وفي النسخة الأولى : « بالمشانح » .

قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسهل مؤملاً إليه دخول الأعيان ؛ فأمر بكتب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأعلام والذخيرة والحلى ، ونفيس الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرّد ، وآنية الذهب والفضة ، وأطباق البلّور الحكم ، والجرجانيات ، والعراقيات ، والنياب الرفيعة ، والأنماط ، والكلل ، والستائر ، وأوطئة الديباج ، مما كان في ادخار باديس واكتسابه . وأقبلت دوابّ الظهر من المنكب بأحمال السيك والمسيوك . واختلفت أمّ عبد الله لاستخراج ما أودع بطن الأرض ، حتى لم يبق إلا الخردى والنقل والسقط ، وزرع ذلك الأمير على قواده ، ولم يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤملاً في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثر استحسانه إيّاه ، وأمر بحفظه وتقدير أوضاعه وأفنيته .

ونقل عبد الله إلى مراکش ، وسنه يوم خلع خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر ؛ فاستقر بها هو وأخوه تميم ؛ وحلّ اعتقأهما ، ورُقّعه عنهما ؛ وأجروا المرتب والمساهمة عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ؛ فضيّت مآربه ، وأسعفت رغبته ، وخفّ على الدولة ؛ فاستراح واستريح معه . ورزق الولد في المحول ؛ فعاش له ابنان وبنت جمع لهم المال ، فلما توفّي ترك لهم مالا جماً .

مولده : وُلد عبد الله سنة ٤٤٧ .

(٢)

ترجمة مُقاتِل بن عَطِيَّة (١)

مُقاتِل بن عَطِيَّة البرزالي ، يكنى أبا حَرْب . قال فيه أبو القاسم الغافقي : من أهل غرناطة ، ويُلقَّب بذي الوزارتين ؛ وتعرف بالرُّبِّية لحرِّه كانت في وجهه .

حاله : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . ولأه الأمير عبدالله بن بُلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخنقتها . وكان عبدالله يحزره . وعندما تحقّق حركة اللمتونيين إليه ، صرفه عن جبهته ؛ فقلّ لذلك قاصره ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : قال : وحضر مُقاتِل مع عبدالله بن بُلقين أمير غرناطة وقبعة النيبيل في صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعه بالطعن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنت قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر ، وحملت الترس ولم أعلم به ، وحلني الله إلى طريق منجاة ، فركبتها مرّةً أقعُ ومرّةً أقوم ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدهم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعه مهتكةً بالطعن ، وبه جرحٌ في وجهه يشب دماً تحت منقّره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ قتلاً ؛ فتذكّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ جمالته عن عاتقي

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٨٨ .

وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجِدْتُ خَفَّةً وَعُدْتُ إِلَى الْعَدُوِّ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارَسُ : خُذِ
 التَّرْسَ ! « قلتُ : « لا حاجة لي به ! » فقال : « خُذْهُ ! » فَتَرَكْتُهُ وَوَايْتُ
 مُسْرِعًا ؛ فَهَمَزَ فَرَسُهُ وَوَضَعَ سِنَانَ رِجْلِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ وَقَالَ : « خُذِ التَّرْسَ ،
 وَإِلَّا أَخْرَجْتُهُ بَيْنَ كَتِفَيْكَ فِي صَدْرِكَ ! » فَرَأَيْتُ الْمَوْتَ الَّذِي قَرَّرْتُ مِنْهُ ،
 وَرَجَعْتُ إِلَى التَّرْسِ ؛ فَأَخَذْتُهُ ، وَأَنَا أَدْعُو عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعْتُ عَدُوًّا . فَقَالَ
 لِي : « عَلَى مَا كُنْتَ فَلْيَكُنْ عَدُوُّكَ ! » فَاسْتَعِذْتُ وَقُلْتُ : « مَا بَعَثَهُ اللَّهُ
 إِلَّا لَهْلَاكِ ! » وَإِذَا قِطْعَةً مِنْ خَيْلِ الرُّومِ قَدْ بَصُرَتْ بِهِ ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ
 يَسْرِعُ الْجَرْمِيَّ فَيَسْلُمُ وَأُقْتَلُ ، فَلَمَّا ضَاقَ الطَّلُقُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقْرَبِهِمْ مِنْهُ ، عَطَفَ
 عَلَيْهِ كَالْعَقَابِ وَطَعَنَهُ وَوَطَرَهُ ، وَتَخَلَّصَ الرِّمْحُ مِنْهُ ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى آخِرِ : فَطَعَنَهُ
 وَمَالَ عَلَى الثَّالِثِ ، فَانْهَزَمَ مِنْهُ ، فَرَجَعَ إِلَيَّ ، وَقَدْ هَبْتُ مِنْ فَعْلِهِ ، وَرَشَّاشِ
 دَمِ الْجَرَحِ يَتَطَايَرُ مِنْ قِنَاعِ الْمِفْقَرِ لَشِدَّةِ نَفْسِهِ ، وَقَالَ لِي : « يَا فَاعِلُ ! يَا صَانِعُ !
 أَتَلْقَى الرِّمْحَ ، وَمَعَكَ مُقَاتِلُ الرُّثْيَةِ ؟ »

(٣)

ترجمة مؤمل^(١)

مُؤْمَلٌ ، مَوْلَى بَادِيسَ بْنِ حَبُوسَ .
حَالُهُ وَنَحْوُهُ : ﴿ قَالَ ابْنُ الصَّيْرَمِيِّ ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ بُلْقَيْنَ
 حَفِيدَ بَادِيسَ ، وَاسْتَشَارَتَهُ فِي أَمْرِهِ لَمَّا بَلَغَهُ حَرَكَةُ يُوسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ إِلَى
 خَلْعِهِ : وَكَانَ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ أَحْبَابِهِ رَجُلٌ مِنْ عِبِيدِ جَدِّهِ اسْمُهُ مُؤْمَلٌ ، وَلَهُ
 سَنٌ ، وَعِنْدَهُ دِهْلَاءٌ وَفُطْنَةٌ وَرَأْيٌ وَنَظَرٌ .

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأجباء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَة من كتبتَه ، ومؤمِّل من عبيد جدّه ، وجعفر من فِتْيانه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فألطف له مؤمِّل في القول ، وأعلمه برفقٍ وحُسن أدبٍ أن ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرَّبَ ، والتطارُح عليه ؛ فإنه لا يمكنه مدافعتَه ولا يطاق حربه ، والاستخذاء له أحد عاقبة وأيمنُ مغبة . وتابعه على ذلك نظّارؤه من أهل السنِّ والحنكة ، ودافع في صدر رأيه الغلة الأغمار ؛ فاستشاط غيظًا على مؤمِّل ومن نما نحوه ، وهمَّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقًا منه . فلما جنَّهم الليلُ ، فرّوا إلى كَوْشَة ، وبها من أبناء عبيد باديس قائدُها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر مؤمِّل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزَّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلب عليهم . وسبق مؤمِّل ومن كان معه شرًّا سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابِّ هجن ، وكُشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلِّ رجل من يصفعه . وتقدّم الأمر في نصب الجذوع وإحضار الرماة . ونلطفَ جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلْتهم الآن ، أطفأتَ غضبك وأذهبتَ مالك ! فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ! » فثقتهم . وأطعموا في أنفسهم ريثما شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلِّ اعتقالهم ؛ فلم تسعهُ مخالفته . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تفتية تلك الحال ، قدّم مؤمِّلاً على

مُسْتَخْلَصَه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فقال ما شاء من مال وحظوة ، واقتنى ما أراد من صاميتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها السقاية بباب الفخارين ، والخور المروقة بخور مؤمل . أدركتها ، وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قال ابن الصِّيرَفِيِّ ﴾ : وفي ربيع الأول من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ، توفي بغرناطة مؤمل ، مؤلى باديس بن حبوس ، عبد أمير المسلمين وجابى مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاء وصبر ؛ ولم يكن بقارى ولا كاتب ؛ رزقه الله عند أمير المسلمين أيام حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولا أشرف على النية ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثم أبرأ جميع عماله وكتابه ، وأنفذ رجلاً من صناعته إلى أمير المسلمين بجملةٍ من مال نفسه ، يُريه أن ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أيام خدمته ، وأن بيت المال أولى به ؛ ورغب في ستر أهله ووَلَدِه . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى تقديم صنيعته .

ثم ذكر ما كشف البحث عنه من محتجته ، وشقاء من خلفه بسببه ، وعدد مالا وذخيرة .

فهرس أسماء الرجال

- 1 -

أبو إبراهيم اليهودي (ابن نغالة) ، ٣٠ ،

• ۲۷ ۲۶ ۲۵ ۲۴

ولد أبي إبراهيم اليهودي ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

6 57 6 22 6 24 6 21 6 2

6 0 7 6 0 1 6 0 2 6 2 9 6 2 1 6 2 1

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100 101 102 103 104 105 106 107 108 109 110 111 112 113 114 115 116 117 118 119 120 121 122 123 124 125 126 127 128 129 130 131 132 133 134 135 136 137 138 139 140 141 142 143 144 145 146 147 148 149 150 151 152 153 154 155 156 157 158 159 160 161 162 163 164 165 166 167 168 169 170 171 172 173 174 175 176 177 178 179 180 181 182 183 184 185 186 187 188 189 190 191 192 193 194 195 196 197 198 199 200 201 202 203 204 205 206 207 208 209 210 211 212 213 214 215 216 217 218 219 220 221 222 223 224 225 226 227 228 229 230 231 232 233 234 235 236 237 238 239 240 241 242 243 244 245 246 247 248 249 250 251 252 253 254 255 256 257 258 259 260 261 262 263 264 265 266 267 268 269 270 271 272 273 274 275 276 277 278 279 280 281 282 283 284 285 286 287 288 289 290 291 292 293 294 295 296 297 298 299 300 301 302 303 304 305 306 307 308 309 310 311 312 313 314 315 316 317 318 319 320 321 322 323 324 325 326 327 328 329 330 331 332 333 334 335 336 337 338 339 340 341 342 343 344 345 346 347 348 349 350 351 352 353 354 355 356 357 358 359 360 361 362 363 364 365 366 367 368 369 370 371 372 373 374 375 376 377 378 379 380 381 382 383 384 385 386 387 388 389 390 391 392 393 394 395 396 397 398 399 400 401 402 403 404 405 406 407 408 409 410 411 412 413 414 415 416 417 418 419 420 421 422 423 424 425 426 427 428 429 430 431 432 433 434 435 436 437 438 439 440 441 442 443 444 445 446 447 448 449 450 451 452 453 454 455 456 457 458 459 460 461 462 463 464 465 466 467 468 469 470 471 472 473 474 475 476 477 478 479 480 481 482 483 484 485 486 487 488 489 490 491 492 493 494 495 496 497 498 499 500 501 502 503 504 505 506 507 508 509 510 511 512 513 514 515 516 517 518 519 520 521 522 523 524 525 526 527 528 529 530 531 532 533 534 535 536 537 538 539 540 541 542 543 544 545 546 547 548 549 550 551 552 553 554 555 556 557 558 559 560 561 562 563 564 565 566 567 568 569 570 571 572 573 574 575 576 577 578 579 580 581 582 583 584 585 586 587 588 589 590 591 592 593 594 595 596 597 598 599 600 601 602 603 604 605 606 607 608 609 610 611 612 613 614 615 616 617 618 619 620 621 622 623 624 625 626 627 628 629 630 631 632 633 634 635 636 637 638 639 640 641 642 643 644 645 646 647 648 649 650 651 652 653 654 655 656 657 658 659 660 661 662 663 664 665 666 667 668 669 670 671 672 673 674 675 676 677 678 679 680 681 682 683 684 685 686 687 688 689 690 691 692 693 694 695 696 697 698 699 700 701 702 703 704 705 706 707 708 709 710 711 712 713 714 715 716 717 718 719 720 721 722 723 724 725 726 727 728 729 730 731 732 733 734 735 736 737 738 739 740 741 742 743 744 745 746 747 748 749 750 751 752 753 754 755 756 757 758 759 760 761 762 763 764 765 766 767 768 769 770 771 772 773 774 775 776 777 778 779 780 781 782 783 784 785 786 787 788 789 790 791 792 793 794 795 796 797 798 799 800 801 802 803 804 805 806 807 808 809 810 811 812 813 814 815 816 817 818 819 820 821 822 823 824 825 826 827 828 829 830 831 832 833 834 835 836 837 838 839 840 841 842 843 844 845 846 847 848 849 850 851 852 853 854 855 856 857 858 859 860 861 862 863 864 865 866 867 868 869 870 871 872 873 874 875 876 877 878 879 880 881 882 883 884 885 886 887 888 889 890 891 892 893 894 895 896 897 898 899 900 901 902 903 904 905 906 907 908 909 910 911 912 913 914 915 916 917 918 919 920 921 922 923 924 925 926 927 928 929 930 931 932 933 934 935 936 937 938 939 940 941 942 943 944 945 946 947 948 949 950 951 952 953 954 955 956 957 958 959 960 961 962 963 964 965 966 967 968 969 970 971 972 973 974 975 976 977 978 979 980 981 982 983 984 985 986 987 988 989 990 991 992 993 994 995 996 997 998 999 1000 1001 1002 1003 1004 1005 1006 1007 1008 1009 1010 1011 1012 1013 1014 1015 1016 1017 1018 1019 1020 1021 1022 1023 1024 1025 1026 1027 1028 1029 1030 1031 1032 1033 1034 1035 1036 1037 1038 1039 1040 1

11-11-61

• 740 2 155 4 25

ابن الأحسن السجلماي ١٠٢ ، ١٧٢

ابن الأحرار ١٤٥

أبو الأحوص بن صامح (صاحب المرية)

20 4 13

أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤

الإذفونش ٢٠٧ = ٢٠٩ . وانظر « الفونش »

این آرقم ۵۱، ۵۲

بين الأصابع ٩٧

بین اخصی الکاتب ۶۳ ، ۶۰

فلاطون

لرماقش ۱۲۳ ، ۱۲۴

الفقرن السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

LA • C VA C VY C VY C VO C VZ C V

6 1 + 7 6 1 + 7 6 1 + 1 6 9 1 6 A

118 111 104 100 100 100

[illegible]

1102 1126 1150 1174 1198

12A 12V 129 12A 12V

172 c 172 c 179 c 104 c 10

- ۲ -

باديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله) ١١٠٠

67A-3-62962561361

- ۱ -

این یاقوت ۹۶ و ۹۷

تميم بن بلقين بن باديس المعز (آخر عبد الله

(المؤلف) ٤١ ٤٩ ٤٥١

102 40 48 45 45 41

117 6 118 6 119 6 107 6 107

1946 1946

- 7 -

لاحظ ۱۹۸

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣
 جعفر الخصى ١٥١ ، ٢١٣
 ابن أبي جوش ٨٦

- ح -

حيون بن ماكسن (أمير قرناطة) ١٧ ،
 ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٦٧
 الحجاج ١٩٢
 ابن الحديد ٧٧
 ابن الحسن النباهي (قاضي مالقة) ٦٤
 الحكم المستنصر باقه ١٥

- خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨
 ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

- د -

داود بن عائشة ١٠٣

- ذ -

ابن ذي النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
 ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

- ر -

الراضي (ابن المعتمد بن عباد) ١٠٣ ، ١٠٨ ،
 ١١٢ ، ١٧١

أبو الربيع بن الماطوف ٤٨ ، ١٣٠

أبو الربيع النصراني ٦٦ ، ٦٨

الرشد (هارون) ١٨٤

الرشد (ابن المعتمد بن عباد) ٨١

ابن رشيق ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤

الروي أو النصراني = ألفونس السادس
 الريح (لقب مقاتل بن عطية البرزالي) ٢١١ ،

٢١٢

ابن الريولة ٧٧ ، ٧٨

- ز -

زاوي بن زيري ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
 ٢٤ ، ٢٥

زاوي الصنهاجي ٨٧

زهير (صاحب المرية) ٣٤ ، ٣٥

ابن الزيتوني القروي ١٥٨

- س -

سراج الدولة ٨١

ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥

أبن السقاء ٤٥

سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩

ابن سلمون ١١٧

ساجة الصنهاجي ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

السمساري ٢٠٧

ابن سهل (القاضي) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦ ،

السيد لذريق ١٧٥

سير (الأمير المرابطي) ١١٠ ، ١٦٠ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤

سيف الدولة = بلقين بن باديس ولده عبد الله

ابن سبي ١٣٢

- ش -

شغلاند ٧٣

- ص -

الصحراري (أبو بكر م يوسف بن تاشفين)

١٧١

-ق-

القادر (حفيد ابن ذى الثنون) ٧٧ ، ٨٠ ،
 ١٥٣ ، ١٧٣ .
 ولد القاضى (صاحب باغته) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦
 قروى ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨
 ١٧١ ، ١٧٣
 ابن القطان ٢٠٥
 ابن القليجي أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١
 ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

-ك-

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

-ل-

ليبب النصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٥١
 للة الخادم ١٥٨
 ابن أبي لولا ١٣١

-م-

ابن ماشاء الله ١٤٧
 ماكسن بن باديس بن حبوس ٤٠ ، ٤٨ ،
 ٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٦
 المأمون بن المعتد ١٧٠
 المتوكل بن الألفطس ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣
 ١٧٤ ، ١٧٦
 مجاهد (صاحب دانية) ٤٤ ، ٤٥

ابن صباح = أبو الأحوص والمعتصم صاحب
 المرية .

أبو الصمصام ١٧١

ابن الصيرفى ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

-ع-

عباد (المعتضد بن عباد) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،
 ٥٩
 عباد بن المعتد ٧١
 العباس بن المتوكل بن الألفطس ١٧٤
 أبو العباس الحكيم ١٣٢
 أبو العباس (كاتب حبوس) ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠

ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١

ولد عباس (كاتب زهير) ٣٤ ، ٣٥

عبدة الله بن القروى ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩

عبد الملك (القاضى) ١٠٢

أم العلى (بنت عم ماكسن) ٦٧ ، ٦٨

على بن أبي طالب ١٨٣

على بن القروى ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢

ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

-غ-

الغافقى (أبو القاسم) ٢٠٨ ، ٢١١

-ف-

فرقان ٢٨ ، ٣٢

الفضل بن المتوكل بن الألفطس ١٧٤

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨

مخلوف بن ملول ٥٨

المرادى ٢٠٥

المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٥

ابن مرتين ٧١

ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢

المستعين بن هود ٧٨

مسكن بن حبوس المغربي ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،

٦١ ، ٦٢

المظفر (جد عبد الله) = باديس بن حبوس -

المعصم بن صاحب (صاحب المرية) ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤

٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤

١٦٥ ، ١٦٧

المعتضد = عباد .

المعتد بن عباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١

٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١

١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨

١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩

١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦

معد بن يعلى ١٣٩

المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٢٥ ،

٤٣

المعز = تميم بن بلقين بن باديس -

معز الدولة بن المعصم بن صاحب ١٦٧

مقاتل بن عطية البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢

مقاتل بن يحيى ٤٧

المقتدر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

ابن ملحان ٧١

منذر بن هود ٧٩

المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧

المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس)

٤٤ ، ٤٥

المنصور بن المتوكل بن الأفطس ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤

المؤمن بن هود ٧٨ ، ٧٩

موسى ٨

موفق (صاحب المدينة) ٣٧

مؤمل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨

١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢

٢١٣ ، ٢١٤

ابن ميمون (أمين يهود الیسالة) ١٣٠ ، ١٣١

١٣٢

- ن -

الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

٦٥ ، ٧٠ ، ١٢٣

نعمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨

- ه -

هشام المؤيد ١٥

- و -

واصل الطنج ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨

والدة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠

- ی -

يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،

يدير بن حباصة بن ماكس ٢٧ ، ٢٨ ،

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤

ابن يعيش ٦٤

ابن يكون ١٤٥

يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

۱۷۶ ۱۷۴ ۱۷۲ - ۱۴۳ ۱۳۸

۲۱۳ ۲۱۲ ۲۱۰ ۲۰۹ ۲۰۶

۲۱۴

۱۴۷ ۱۴۱ ۱۴۰ ۱۳۸ یوسف بن حجاج

۱۰۸ ۱۰۷ ۱۰۶ ۱۰۵ ۱۰۴

۱۱۴ ۱۱۳ ۱۱۲ ۱۱۱ ۱۱۰

۱۲۰ ۱۱۹ ۱۱۸ ۱۱۷ ۱۱۵

۱۲۹ ۱۲۸ ۱۲۷ ۱۲۲ ۱۲۱

فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

صنهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفرنج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	٦٤ ، ٩٣ ، ١٥٠
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو برزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤ ،	بنو ناقناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو اللواتكي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لغونة ٢٠٦	بنو حمود ٤٤
المرابطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو النصاري ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥ ،	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢ ،
المغاربة ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زناتة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مقيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

فهرس الأعلام الجغرافية

١٦٠٤ ١٥٢ ١٠٨ ١٠٤	أرجوننة (Archidona) ٩٥ ٩١
جطرون (Jotron) ٩٤ ٩٢	إسطة (Estepe) ٧٥
جليقية (Galice) ٧٢	إشبيلية (Séville) ١٠٣ ١٠٢ ٧٥
جيان (Jaén) ١٩ ٥٣ ٥٥ ٦٠	١٧٥ ١٧٠ ١٦٨ ١٢٨ ١٠٥
٦١ ٦٣ ٧٦ ٩٤ ٢٠٥	أشتير ٩١
حارث ٩٤	حصن آشر (Iznajar) ١٩
الحمرء (Alhambra) بقرناطة ٥٤ ١٣٠	إقرناطة = قرناطة
الحمة (Alhama) ٩١	آغمات ١٧١
حور مؤيل (بقرناطة) ٢١٤	إلبيرة (Elvira) ١٨ ١٩ ٢٠
دانية (Denia) ٤٥ ٧٧ ٧٨ ٧٩	٢٢ ٢١
الرملة (La Rambla) بقرناطة ٣٢	أنقرة (Antequera) ٩٥
رندة (Ronda) ١٧١	أبرش ٩٢
ريه ٩١	باب الفخارين (بقرناطة) ٢١٣
ريئة ٩٢ ٩٤	باب فتتالة (بالقة) ٩٢
الزاوية (La Zubia) ٢٢	باغه (Priego) ٦٤ ٦٦ ٦٩
الزلاقة (Sagrajas) ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦	بسطة (Baza) ٥٧ ٧١
سبنة (Ceuta) ١٠٢ ١٠٣ ١٢٩	بطلوس (Badajoz) ٤٠ ١٠٤ ١٠٥
١٤٥ ١٤٦ ١٦٠	١١٣ ١١٤ ١١٥ ١٧٢ ١٧٣
سرقسطة (Saragossa) ٧٨ ٨٠ ٨١ ١٢٢	١٧٤
السطح (عمل) ٢٢ ٣٢	بلنسية (Valence) ٧٧ ٧٨ ١٥٣
الموس ١٦٣	١٧٣ ١٧٥
شاط (Jete) ٩٠	بليش (Velillos) ٧٠ ٧١ ٧٢
شربة ١١٣	١٤٨ ٧٤
شرق الأندلس ٦٠ ٨٠ ١٢٢	بياسة (Bacza) ٦٣ ٦٤ ٩٦
شقورة (Segura) ٨٠ ٨١	تدلس (Dellys) ١٦٨
شليز (Sierra Nevada) ٢٢	تسير ٧٩
شنت ألقج ٧٢	الجيل (نظر) ٢٢ ١١٣
شنت مربة (Santa Maria) ٨٠	جريشة ٩٦ ٩٧ ٩٨ ١٠٤
شنيلى (Genil) ٢٠	الجزائر (Alger) ١٦٨
شيلش ٧١ ٧٢	جزيرة الأندلس ١٠١ ١٠٧
صالحة (Zalia) ٩١	الجزيرة الخضراء (Algeciras) ١٠٢ ١٠٣

الصحراء (Sahara) ١٥٨

صحرة حبيب ٩٢

صحرة دوس ٩١

طربش ٨٩

طليطلة (Tolède) ٧٣ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٦

١٠١ ، ٨٠

المدونة (Maroc) ١١٨ ، ١٨ ، ١٦

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١١٩

الغربية ٩٤ ، ١٣٩ ، ١٣٧ ، ١٤٨

غرناطة (Grenade) ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤

٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١

٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ١٧٠ ، ١٦٩

٢١٤ ، ٢١٣

١٥٢ ، ٧٠ ، ٤٤ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١

١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩

١٦٨ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١

فحص غرناطة ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١

فنيانة (Fifiana) ٨٩ ، ٨٨ ، ٦٠ ، ٥٩

الفوق (Alfuenta) ٣٤

قاشترة ٧٦

قاهرة ٩٤

قبرية ٥٣

قبرة (Cabra) ٦٦ ، ٦٤ ، ٤٤

قرطبة (Gordoue) ٧١ ، ٤٥ ، ٤٣

١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٣١ ، ٧٨ ، ٧٧

٢٠٩ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٥٢

قرطمة (Cartama) ٩٤

قرمونة (Carmona) ١٧٠

القصر (حصن) ٩١

قلعة أسطير (Alcala la Real) ٧٥ ، ٧٠

قلعة حماد ١٦٨ ، ١٦٧

قوجر ٣٢

القيروان ٢٥ ، ٢٤

لرقة (Lorca) ٤٤

لوشة (Loja) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤

٢١٣ ، ٢٠٦ ، ١٥١

ليبط (Alodo) ١٠٨ ، ١٠٧ ، ٨١

١٢٢ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣

١٧٣ ، ١٦٥ ، ١٤٤ ، ١٣١ ، ١٢٤

مارتش (Martos) ٧٦

مالقة (Malaga) ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٤ ، ٤٣

٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٦٤ ، ٥٨ ، ٥٧

١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٢ ، ٩٦ ، ٩٥

١٣٨ ، ١١٥ ، ١١٣

المدينة ٢١

مراكش ٢١٠ (واقظ مراكش)

مرسية (Murcie) ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٦

١٤٥ ، ١٤٤ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١٠٨

١٤٦

مروكش ١٧١ ، ١٢٥

المرية (Almeria) ٤٤ ، ٣٥ ، ٣٤

٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٥

١٦٧ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٢٣ ، ١١٣

٢٠٦ ، ١٦٨

مرية بلش (Velez Malaga) ٩١

المشيحة ٢٠٩

المطمر ٧٦

مكناسة الزيتون ١٦١ ، ١٦٠ ، ١١٥

١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٣

منت ماس ٩٢

المتورى ٨٩ ، ٨٨

المنكب (Almuficcars) ٥٣ ، ٤٤

١٢١ ، ١٢٠ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٨٥

٢١٠ ، ٢٠٧ ، ١٥٩

ميشش (Mijas) ٩٤

٢٢٣

١١٣ ء ٨٧ ء ٨٦ ء ٨٥ ء ٦٤ ء ٥٩

١٢٣ ء ١١٤

ء ١٣١ ء ١٣٠ (Lucena) الیسانة

١٤٨ ء ١٤٥

النیل (Nivar) ٢١١ ء ١٢٩

نیمش ٩٦

الهند ء ١١٨

ء ٤١ ء ٣٩ ء ٣٨ (Guadix) وادی آش

ء ٥٨ ء ٥٧ ء ٥٦ ء ٥٥ ء ٥٣ ء ٤٤

فهرس الفصول

صفحة

١	مقدمة الناشر
١	الفصل الأول : فظرات عامة للمؤلف
١	١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الرضى
١٠	٤ - ضرورة التعليم والتجربة
١١	٥ - التكوين السياسى للمؤلف
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخى
١٤	٧ - المصادفة وأثرها فى التاريخ - مثل المنصور
	الفصل الثانى : الأحداث المهمة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة . أيام زاوى بن
١٦	زيرى وجبوس بن ماكسن
	٨ - الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور . قديم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف
١٨	٩ - استقرار بنى زيرى فى البيرة بناء على طلب أهلها
٢٠	١٠ - رد الفعل الذى أحدثته فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى . اختطاط غرناطة
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته
٢٤	١٢ - رحيل زاوى بن زيرى إلى إفريقية وموته هناك مسموماً
٢٥	١٣ - إمارة جبوس بن ماكسن
٢٧	١٤ - المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يدبر بن حباس . موت جبوس
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن جبوس . (١) من أوليتها إلى موت ابن نغزالة
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن جبوس وتماظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التى دبرها يدبر بن حباس ضد باديس
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نغزالة اليهودى ومؤامراته

- ٢٠ - موت الأمير بلقين مسموماً ٣٩
- ٢١ - ما بلغ ابن نقرالة من المكان الأرفع ٤٢
- ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة ٤٣
- ٢٣ - علاقات باديس ببنى صالح أصحاب المرية ٤٤
- ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومنافسته اليهودي ٤٦
- ٢٥ - إجلاله الأمير ماكسن بن باديس ٤٨
- الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس . (٢) من موت ابن نقرالة إلى نهايتها ٥٠
- ٢٦ - مؤامرة للوزير اليهودي ابن نقرالة . ثورة صنهاجة عليه وقتله ٥٠
- ٢٧ - الحركة الموققة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش من أيدي ابن صالح ٥٥
- ٢٨ - الحركة الموققة التي قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد ٥٧
- ٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها ٥٩
- ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان ٦٠
- ٣١ - استيلاء الناية على يياسة ٦٢
- ٣٢ - مؤامرة ضد الناية وقتله ٦٣
- ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة ٦٦
- الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (١) مشاكل
- الأتدلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله ٦٩
- ٣٤ - رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع بن عمار ٦٩
- ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صالح صاحب المرية ٧١
- ٣٦ - مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه ٧٢
- ٣٧ - استيلاء ألفونش السادس على طليطلة ٧٦
- ٣٨ - استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بني هود ٧٧
- ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمصرية إلى أن أعرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع ٧٩
- ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشيلية ٨٢
- ٤١ - المؤلف يتحدث من منهجه في كتابة مذكراته ٨٢
- الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٢) مشاكل
- غرناطة الداخلية إلى قسوم المرابطيين ٨٤
- ٤٢ - عزل الوزير سهاجة ، ثم إجلاله واستقلال عبد الله في الأمر ٨٤

صفحة

- ٨٨ . ٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله .
 ٩٠ . ٤٤ - توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف ، ونصره إياه .
 ٩٥ . ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بني تاقنوت ونهايتهما .

الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٣) قدوم

- ١٠١ . المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط .
 ١٠١ . ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس .
 ١٠٢ . ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء .
 ١٠٤ . ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد .
 ١٠٤ . ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس .
 ٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين
 ١٠٦ . المتحالفين .
 ١٠٨ . ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيط .
 ١٠٩ . ٥٢ - محاصرة لبيط . تصور فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين .
 ١١٠ . ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيح .
 ١١٢ . ٥٤ - رفع الحصار عن لبيط . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم .

الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٤) سياسة

- ١١٤ . عبد الله بعد عودته من لبيط . إجراءات دفاعية وسياسية .
 ١١٤ . ٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط . مسلك قرور .
 ١١٦ . ٥٦ - بعض المؤامرات وتخاذل القليبي .
 ١١٩ . ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون .
 ١٢٢ . ٥٨ - معاقبة عبد الله مع البرهانش وكرلى ألفونش السادس .
 ١٢٤ . ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه .
 ١٢٧ . ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر مسلكه .

الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٥) الحوادث

- ١٣٠ . الأخيرة قبل النزاع وفكر الكارثة .
 ١٣٠ . ٦١ - ثورة يهود مدينة الزمالة .
 ١٣٣ . ٦٢ - قضية زناتة .
 ١٣٦ . ٦٣ - انقلاب مؤيد وثورته في لوثة .

صفحة

- ٦٤ - وصف التأثير نعمان وسيرته ضد عبد الله ١٢٩
 ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أخى عبد الله ١٢٩
 ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله ١٤١
 ٦٧ - رجوع الحديث عن زواج الأميرتين أخى المؤلف ١٤٣
 ٦٨ - تدخل الأمير عبد الله في مسألة مرمية وغضب المعتمد ١٤٤
 ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسببه من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها ١٤٥

الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٦) استسلامه

- السلطان المرابطي . محبته . إخراجهم من الأندلس ونفيه ١٤٧
 ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته لإياه ١٤٧
 ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة ١٤٩
 ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة ١٥٠
 ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم ١٥١
 ٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٥٤
 ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ١٦٠
 ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . نفيه ١٦٢

الفصل الحادي عشر : عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

- ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة ١٦٤
 ٧٨ - حركات المرابطين على المرية ١٦٧
 ٧٩ - توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد ١٦٨
 ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفي ابن عباد ١٦٩
 ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكنس ١٧١
 ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس وبهلكه ١٧٢
 ٨٣ - نشاط المرابطين ضد النصارى . استيلاء « السيد » « لدريق » على بلنسية ١٧٥
 ٨٤ - تأملات في تقلب الأقدار ١٧٦

الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي

- ٨٥ - المؤلف والشعر ١٧٨
 ٨٦ - اضطراب المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره ١٧٩
 ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم ١٨١

١٨٢	٨٨ - آراء طيبة في الأغذية والتبيل
١٨٨	٨٩ - رجح الكلام عن التنجيم
١٩١	٩٠ - مسائل فلكية
١٩٢	٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطلب
١٩٣	٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم
١٩٤	٩٣ - حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب
	٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا
١٩٥	٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده
١٩٨	٩٦ - ترجمه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه
٢٠٠	٩٧ - يلغ المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة

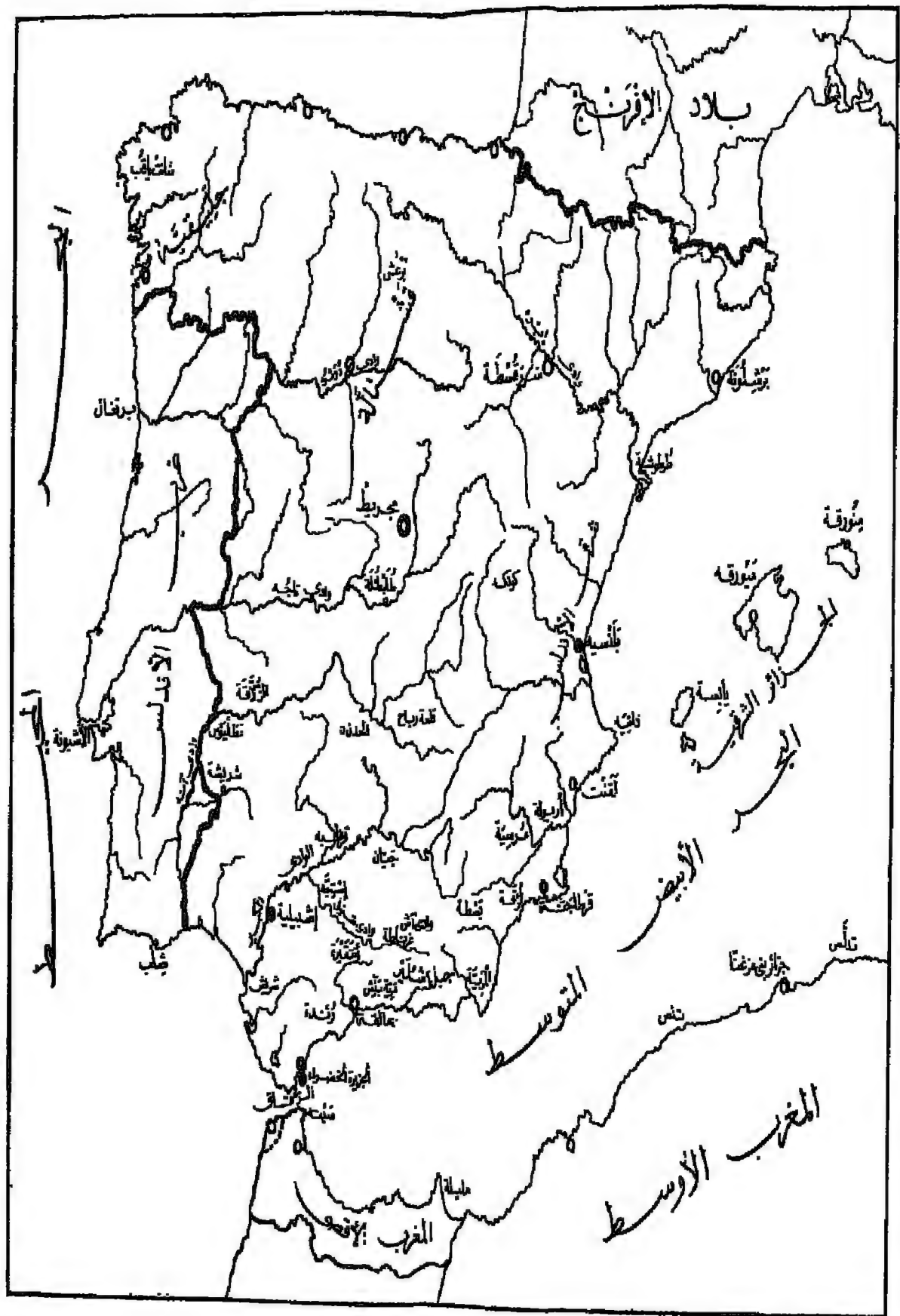
الملحق الأول : منتخبات من « كتاب البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي عن دولة الأمير

عبد الله ٢٠٥

الملحق الثاني : منتخبات من « كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة » للسان الدين ابن الخطيب :

٢٠٨	(١) ترجمة عبد الله بن بلقين
٢١١	(٢) ترجمة مقاتل بن عطية
٢١٢	(٣) ترجمة مؤيد

فهارس الكتاب ٢١٥



خريطة جزيرة الأندلس في عهد ملوك الغرناطة

en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

* * *

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [23 x 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyîn à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabslî* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughnî* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Ihâta* de Ibn al-Khaṭṭîb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

R. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdis ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamfîr al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 483 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Ḥulal al-manṣūḥa*, que l'émir 'Abd Allāh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitāb A'māl al-a'lām* d'Ibn al-Khaṭīb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwān*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allāh ibn Buluggīn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmāt; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmāt me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭīb visita Aghmāt et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbād en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl^m*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allāh: en effet, d'un passage du *Kitāb al-Marqaba al-'ulyā*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubāḥī, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyān 'an al-ḥādītha al-kā'ina bi-dawlat Banī Zīrī fi Gharnāṭa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

Qui était cet émir 'Abd Allāh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre ? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allāh ibn Buluggīn ibn Bādīs ibn Ḥabūs ibn Zīrī fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-ṭawāʾif*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XIe siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIIIe siècle [XIVe siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdî Ibn Tûmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allāh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de

LES « MÉMOIRES » DE 'ABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après l'unicum de Fès

par

E. LEVI - PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne,

Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques

de l'Université de Paris

LE CAIRE

ÉDITIONS AL-MAAREF

1955